

# تاريخ مصر وحضارتها

## في الحقبة البيزنطية - القبطية

دكتوراه

ليلى عبد الجواد إسماعيل

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر  
دار الثقافة العربية

٢٠٠٧

# تاريخ مصر وحضارتها في الحقبة البيزنطية - القبطية

دكتورة

ليلى عبد الجواد إسماعيل

استاذة تاريخ العصور الوسطى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر

دار الثقافة العربية

٢٠٠٧



# Black Hawk

الصقر الأسود  
قراسنقر



تعزوت الأسباب  
والأموت واحد

من لم يمت  
بالسيف مات بغيره

بمكتبة دار الكتب المصرية

بمكتبة دار الكتب المصرية

للمزيد من الكتب عن التاريخ المصري و الآثار المصرية برجاء زيارة صفحتنا علي  
الفيس بوك

Egyptology Resources, and Books

<http://www.facebook.com/Egyptology.Resources.Books>

## مقدمة

يعد تاريخ مصر وحضارتها خلال الحقبة البيزنطية - القبطية مرحلة هامة فى سلسلة تاريخ مصر عبر العصور المختلفة، فهو بمثابة الرابطة القوية التى تربط تاريخ مصر فى العصر الرومانى بتاريخ مصر فى العصر الإسلامى. كما أنه يمثل المرحلة التى ليست فيها مصر رداء المسيحية القشيب، وتزينت بهذا الدين الجديد، الذى ما لبث أن أصبح الدين السائد خلال تلك الحقبة، لذا يحلو للبعض أن يطلق عليها الحقبة القبطية. ولكن تجدر الإشارة إلى أن كلمة قبطى تعنى مصرى، وهى من اليونانية Aigyptus وتعنى مصر ونهر النيل معاً، ومن ثم فإن كلمة قبطى لا يقصد بها المسيحى بل المصرى.

ويمتد تاريخ مصر فى العصر البيزنطى - القبطى بين عامى ٣٣٠م و ٦٤١م ويمثل العام الأول ٣٣٠م العام الذى دشن فيه الإمبراطور قسطنطين العظيم حضرته الجديدة - مدينة القسطنطينية - على ضفاف نهر البوسفور، أما العام الثانى فهو ٦٤١م ويمثل دخول القائد العربى المسلم عمرو بن العاص أرض مصر، وبداية حلقة جديدة فى سلسلة تاريخها.

ويلقى كتاب تاريخ مصر وحضارتها فى الحقبة البيزنطية - القبطية أضواء كاشفة على ميلاد هذه الحقبة التاريخية، ثم يركز على مظاهر الحضارة فيها بداية من الحياة الدينية وما يندرج تحتها من ظهور المسيحية، وانتشارها، والمذاهب الدينية، التى ظهرت على أثر ذلك،



والصراعات مع كنيسة القسطنطينية، مع الحديث عن جذور الرهبانية والديرية ومؤسسيها، وأنواعها، وأنظمتها المختلفة. ويتناول هذا الكتاب كذلك ملامح النظام الإداري والمالي، والحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من مختلف النواحي - مع إلقاء الضوء على الأدب البيزنطي والفن القبطي في أسلوب سهل بسيط يسهل على القارئ استيعابه دون جهد كبير.

والله أسأل التوفيق والسداد،

ليلى عبد الجواد إسماعيل

القاهرة ٢٠٠٧م

للمزيد من الكتب عن التاريخ المصري و الآثار المصرية برجاء زيارة صفحتنا علي  
الفييس بوك

**Egyptology Resources, and Books**

<http://www.facebook.com/Egyptology.Resources.Books>

## مصر فى عصر الرومان (٣٠ ق.م - ٣٣٠ م)

أمست مصر ولاية رومانية، بعد معركة اكتيوم البحرية ٣١ ق.م. بين كليوباترا السابعة آخر ملوك البطالمة فى مصر والقنصل الرومانى ماركوس انطونيوس وهزيمتها على يد زميله أوكتافيانوس أغسطس (المبجل أو المهيب)، هذا ولم تلق لفظه ولاية قبولاً لدى بعض الباحثين، وقد استند هؤلاء إلى أن السجلات المعاصرة ومنها السجلات المعروفة (بأثر أنقرة<sup>(\*)</sup>) جاء فيها على لسان أوكتافيانوس "ضمت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى" أى لم ترد لفظه ولاية على الإطلاق، ولم يقرن اسم مصر بكلمة ولاية، ومع ذلك فإن هناك فريق آخر من المؤرخين يطلق على مصر بعد أن تحولت لسلطان الرومان لفظه ولاية. وقسمت ولايات الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: ولايات تابعة للسنااتو (مجلس الشيوخ) وأخرى تابعة للإمبراطور (القائد الأعلى للجيش) وقد ضمت مصر إلى الولايات التابعة للإمبراطور نظراً لأهميتها، إذ كانت مصر ولاية - إذا جاز لنا التعبير - ذات طابع فريد ومتميز، ويرجع ذلك لأهميتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية بالنسبة للإمبراطورية الرومانية.

وقد عبر المؤرخ جونز Jones عن أهمية مصر الاقتصادية بالنسبة للإمبراطورية الرومانية بقوله: "لو أننا سألنا أياً من الأباطرة الرومان عن العلاقة الوثيقة التى تربط مصر بالإمبراطورية لأجاب على الفور: القمح والنقود".

وأكد الخطيب الرومانى بلينيوس Plinius هذا الأمر بقوله صراحة: "أن مدينتنا (أى روما) لا تستطيع أن تطعم نفسها أو تقيم أودها دون ثروة مصر"، وتتطرق هذه العبارات بأهمية مصر الاقتصادية بالنسبة للإمبراطورية الرومانية

(\*) اكتشف بالقرب من مدينة أنقرة بآسيا الصغرى سنة ١٥٥٥م وتحتوى هذه الوثيقة على موجز بالأعمال التى قام بها الإمبراطور أغسطس فى الميدانين العسكرى والمالى.



فهي مستودع القمح ومخزن الغلال الذي لا غنى عنه لإطعام الشعب الرومانى، خاصة وأن ما كانت تنتجه إيطاليا من القمح كان لا يكفى لسد حاجات هذا الشعب هذا من ناحية، من ناحية أخرى أدرك الرومان أهمية مصر كمورد للأموال التى تمد بها الإمبراطورية، والتى توفر الدخل للخرانة الإمبراطورية، وتعمل على تدعيمها وخاصة وأنها خوت من جراء الحروب الأهلية التى تعرضت لها الإمبراطورية مرارًا وتكرارًا .

أما عن أهمية مصر السياسية والعسكرية فترجع إلى موقعها الاستراتيجى الممتاز وحدودها الطبيعية الآمنة التى تجعل محاولة غزوها من الخارج عسيرة ومهمة الدفاع عنها يسيرة فهي بلد يسهل الدفاع عنه، وفى وسع من يتحكم فى مداخلها أو مفاثيحها أن يصد أى هجوم ويستقل بها، ويمنع ما قد يصل إلى روما من قمح وأموال فيصهر إيطاليا بمجاعة أو يقطع عليها طريق الاتصال مع الشرق .

ونظرًا لأهمية مصر الاقتصادية والسياسية والعسكرية بالنسبة للرومان فقد وضعوا لها نظامًا عسكريًا وإداريًا محكمًا يختلف عن سائر الولايات الأخرى، فمن الناحية العسكرية، قام أغسطس بوضع أعداد كبيرة من الفرق الرومانية والقوات المساعدة فى مصر أكثر مما تستلزم الحاجة للدفاع عنها، لضمان عدم وقوعها فى يد أى عدو . عسكرت حامية عسكرية فى شرق الإسكندرية وأخرى فى بابلون (مفتاح الوجه البحرى) وثالثة فى طيبة مركز الثورات الوطنية ضد البطالمة. أما القوات المساعدة فقد وزعت فى الأماكن الحساسة مثل مدينة بلوز أو بلوزيوم (على مقربة من بورسعيد الحالية)، وفى كبتوس (قفط) وفى أسوان لحماية حدود مصر الجنوبية، وفى برايتونيوم (مرسى مطروح حاليا) Peraetinum.

أما عن النظام الإدارى الذى وضعه الرومان لمصر فيتلخص فى:

### أولاً فى العاصمة (الاسكندرية) :

عين أوغسطس على مصر والياً من طبقة الفرسان الرومان وليس من الطبقة الارستقراطية أو من السناتو (مجلس الشيوخ) وذلك لأن ثقته فى الفرسان كانت أكبر، كما أنهم بحكم خبرتهم العملية فى شئون المال والتجارة وممارستهم منصب (مدير تموين العاصمة) قبيل مجيئهم إلى مصر مباشرة كانوا أقدر من السناتو على إدارة شئونها الاقتصادية التى كانت تأتى فى المقام الأول. وقد عبر المؤرخ تاكيتوس - مؤرخ الرومان المشهور - عن ذلك بقوله : «تولى مصر منذ أيام أغسطس المؤله فرسان رومان فى منزلة الملوك».

حرم أغسطس على السناتو زيارة مصر إلا بتصريح خاص منه وذلك لعدم الثقة فيهم، والخوف من أن يدفع الطمع أحدهم إلى الاستقلال بمصر معتمداً على وفرة أموالها ومواردها إلى جانب مناعتها وقوة حصانيتها أو تحصينها . وهذا يعنى أن الرومان حاولوا عزلة مصر، وقد عبر تاكيتوس عن ذلك بقوله : " إن أوكتافيانوس أغسطس عزل مصر مخافة أن يحتلها أحد فيصهر إيطاليا بمجاعة".

وحمل حاكم مصر لقباً من ألقاب الفرسان وهو لقب Praefectus وتعنى والى أو حاكم وعرف هذا الوالى رسمياً باسم ( والى مصر وأحياناً والى مصر والإسكندرية)<sup>(\*)</sup> كما حمل الوالى ألقاباً أخرى منها القائد والرئيس وتولى الإشراف على السلطتين المدنية والعسكرية، ومع ذلك لم تكن سلطته مطلقة، بل كانت سلطته خاضعة لسلطة الإمبراطور، فهو لا يعين إلا بأمر منه، كما أنه يتبعه تبعية مباشرة، ويكون بمثابة نائبه فى مصر ووكيله فى إدارة شئون الولاية، ويقوم مقامه، ويستمد سلطته منه ويعتبر مسئولاً أمامه وحده . هذا

(\*) لأن الرومان فرقوا بين مصر والإسكندرية، ولكن لم تكن الأخيرة فى نظرهم جزء من مصر بل متاخمة لها.



فضلاً عن أن الوالى لا يمارس سلطته إلا وفقاً للقواعد العامة التى يسنها الإمبراطور كما أن احتفاظه بمنصبه كان رهناً بمشيئة الإمبراطور .

أما مدة حكم والى مصر، فكانت لا تزيد عن ثلاث سنوات، فى الغالب وإن كانت هناك بعض الاستثناءات طويلاً وقصراً وذلك حتى لا يمكن الوالى لنفسه فى مصر ولا يغريه طموحه ويدفعه إلى الاستقلال بها وإعلان الثورة والتمرد على الإمبراطورية . أما عن سلطات الوالى فكانت عديدة منها : أنه رأس الجهاز العسكرى فقد كان القائد العام للجيش والفرق الرومانية والقوات المساعدة فى مصر، كما كان الرئيس الأعلى للإدارة والمال فيقوم بتعيين جميع موظفى الإدارة المحلية وبصفة خاصة مديرو الأقاليم (الاستراتيجوس) والكااتب الملكى فلا يكاد موظف يتولى عمله إلا بقرار من الوالى باعتباره الرئيس الإدارى فى الولاية. كما يقوم الوالى بفحص كشوف الضرائب وإصدار قرارات الإحصاء (التعداد) وتحديد ضريبة الرأس، كما يشرف على سائر الضرائب العينية والنقدية وإرسالها إلى روما. وكان الوالى يهيمن أيضاً على الجهاز القضائى ويعقد مجلسه القضائى ثلاث مرات فى السنة للنظر فى قضايا شرق الدلتا ومصر الوسطى وغرب الدلتا. ويقوم بالفصل فى القضايا المدنية والجنائية ، وكان يتمتع بحق مصادرة الأملاك وإصدار أحكام الإعدام لو اقتضى الأمر. كما كان للوالى الحق فى تعيين حكام المدن اليونانية فى مصر .

ويستاعد الوالى فى ممارسة مهامه عدد من الموظفين منهم : رئيس ديوان الحساب الخاص (الاديولوجوس Idioslogos) ويختص هذا الموظف بالبحث والتحرى عن الأموال التى لا مالك لها، والكشف عما ينبغي منها أن يكون ماله إلى الخزانة، ثم آل إليه الإشراف على ممتلكات المعابد. ورئيس القضاء أو المستشار القضائى (اليوريديكس Juridicus) وكان هدف هذه الوظيفة تزويد الإدارة فى مصر بخبير قانونى نظراً لأن الوالى كان من طبقة الفرسان وليس لديه خبرة بالقانون الرومانى. وكان نائباً عنه فى بعض الأحيان، أما الموظف الثالث فهو الحاكم العام (الابستراتيجوس) وهى وظيفة مدنية لا علاقة لها



بالشئون العسكرية ومع ذلك فإن اغسطس قصرها على رجال من طبقة الفرسان، وكان الاستراتيجوس واسع النفوذ فيما يتعلق بالأعباء الإلزامية سواء أن كانت مدنية (كالخدمة العسكرية) أو بدنية كأعمال السخرة (إقامة السدود وحفر الترع وزراعة أرض الدولة). ويعين الحاكم العام من قبل الإمبراطور مباشرة، ولم يكن الوالى يملك عزله. وكان هذا الموظف مع باقى الموظفين الآخرين، يشكلون غصة فى حلق الوالى، وذلك لأنه كان منهم كالقاضى الأعظم أو رئيس القضاء كان رقيباً على الوالى أو جاسوساً عليه ومستشاراً قانونياً له فى آن واحد.

### ثانياً : الإدارة فى عواصم الأقاليم :

قسمت مصر من الناحية الإدارية إلى ثلاثة أقسام كبرى هى الدلتا - مصر الوسطى (ارسينوى) طيبة. وعين على رأس كل منها (مدير أو حاكم من الفرسان بلقب استراتيجوس (Strategees) وكانت سلطته مدنية فقط وليس له أى مهام عسكرية، لأن السلطة العسكرية مركزة فى يد الوالى بوصفه القائد الأعلى للجيش الرومانى فى مصر، ويتم اختيار مدير الإقليم من أفراد الطبقة الإغريقية ومن مواطنى عواصم الأقاليم، ويشغل منصبه لمدة ثلاث سنوات ويتقاضى راتباً سنوياً عن عمله. ويشرف مدير الإقليم على جميع شئونه الإدارية والمالية، ويرأس جهاز الشرطة والأمن به، لذلك كان له الحق فى القبض على مخالفى القانون، والنظر فى الشكاوى، والتحقيق فى القضايا.

ويلى مدير الإقليم الكاتب الملكى وهو بمثابة مساعد للمدير ونائباً عنه، ويحصل كذلك على مرتب سنوى مثله وله اختصاص اجتماعى وآخر مالى، فهو الذى يستدعى المكلفين بأداء الالتزامات العامة، ويتسلم شهادات الميلاد والوفاة من الأهالى، وترفع إليه تقارير مسح الأراضى الزراعية أى قياسها، وقوائم بأسماء المرشحين للمناصب المحلية، ويساعده فى أداء مهامه هيئة من الكتبة. وتجر الإشارة إلى أن الإقليم انقسمت إلى مراكز وقرى ومدن ولكل منها جهاز إدارى.



أما عن نظام ملكية الأرض فقد أبقى أوغسطس على تقسيم الأراضي كما كانت عليه في العصر البطلمي فقسمت إلى نوعين : أ- الأراضي التي تمتلكها الدولة. ب- الأراضي التي يمتلكها الأفراد.

وتشمل أراضي الدولة : (١) الأراضي الملكية وظل مزارعوها يحملون لقب مزارعي الأرض الملكية.

(٢) الأراضي العامة وهي الأراضي الرملية الواقعة إلى جوار الصحراء وهي ضعيفة الإنتاج.

(٣) أراضي الوسايا (الضياع الإمبراطورية) وجاءت نتيجة دعوة أوغسطس لأفراد الطبقة الارستقراطية في روما والإسكندرية إلى استثمار أموالهم في استصلاح الأرض وزراعتها.

(٤) أراضي المعابد، وقد قام أوغسطس بمصادرة أملاك المعابد التي حصلوا عليها في العصر البطلمي، والحقها بملكية الدولة، ووضعها تحت إشراف رئيس الحساب الخاص، وذلك رغبة منه في تقليص أظافر الكهنة. كذلك خصص أوغسطس للمعابد مساحات من الأرض تعرف باسم (الأراضي الملكية التابعة للمعابد).

الأراضي التي يمتلكها الأفراد (الأملاك الخاصة) : تعتبر من أهم معالم سياسة الرومان التي تهدف إلى إيجاد طبقة من أصحاب الملكيات المتوسطة، يتوافر لديهم نصاب مالي معين يمكنهم من شغل بعض وظائف الدولة الإلزامية مثل وظيفة كاتب القرية، أو محصلو الضرائب النقدية والعينية، كذلك الوظائف الشرفية في عواصم الأقاليم، وكانت هذه الوظائف تشترط إلى جانب الكفاءة والمقدرة، حصر موارد دخل المرشح لها لضمان توريد الضرائب وجمعها دون عجز. ونمت الملكية الخاصة بصورة تسترعى النظر في العصر الروماني، فإلى جانب الضياع ذات الصبغة الإمبراطورية، شجع أوغسطس على استثمار رأس

المال الخاص فى الزراعة عن طريق شراء الأرض، فامتلك أثرياء الإسكندرية أراضى كثيرة عن هذا الطريق، ثم زادت الأملاك الخاصة خلال القرنين الثانى والثالث للميلاد عن طريق الميراث والرهن (ضماناً للدين) والشراء والهبة والزواج وغيرها.

وانصب اهتمام أوغسطس على العناية بالزراعة بعد أن أهملت فى أواخر عصر البطالمة، فشجع الملكية الخاصة والاستثمارات الفردية بأنواعها المختلفة مع الاهتمام بمشروعات الري، كتنظيف القنوات الرئيسية والفرعية من الرمال والأعشاب والإشراف على إصلاح الجسور والقنوات وملاحظة الفيضان، وحراسة السدود، مما ساعد على انتعاش الزراعة. كذلك ازدهرت الصناعات التى اشتهرت بها مصر كصناعة الورق من نبات البردى، وإذا كان البطالمة قد احتكروها فإن الرومان أطلقوا يد الصناع مقابل ضريبة نقدية وأخرى عينية وهى عبارة عن مقادير من الورق ترسل إلى روما لسد حاجاتها منه. ولم تحتكر الحكومة الرومانية صناعة النسيج كذلك، ولكنها أشرفت عليها إشرافاً كاملاً، فكان لها مصانعها الخاصة، وأخضعت باقى النساجين لإشرافها الكامل، مع دفع ضريبة نقدية، وأخرى عينية يدفعها النساجون وأصحاب المصانع للدولة. كذلك ازدهرت صناعة الزجاج فى مصر لتوافر الرمل والصودا فى أرضها بشكل كبير، وكانت الإسكندرية أهم مراكزها.

وساهمت عدة عوامل فى ازدهار تجارة مصر فى عصر الرومان إلى جانب موقع مصر الفريد ومنها : وجود عدد من الموانئ الصالحة للملاحة على ساحل البحر المتوسط والبحر الأحمر، الاهتمام بتجارة الشرق الأقصى وما ترتب عليه من تأمين موانئ البحر الأحمر، وتأمين الطرق الطرق بينها وبين النيل، كما قام الإمبراطور تراجان (٩٧-١١٧م) بتطهير القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر بعد أن طمستها الرمال. لذلك كله شهدت تجارة مصر مع الشرق



الأقصى انتعاشا وإن كانت قد ذبلت خلال القرن الثالث الميلادي.

الحياة الاجتماعية في مصر في عصر الرومان : قسم الرومان المجتمع إلى عدة طبقات هي : الرومان - الإسكندريون - المصريون.

تكونت الطبقة الحاكمة (الرومان) من الرومان الذين عينهم الإمبراطور في المناصب العليا بالإدارة المصرية، ومن رجال الأعمال الرومان الذين حضروا إلى مصر من أجل ممارسة نشاطهم التجاري، ومن الجنود الذين شكلوا الحامية الرومانية في مصر. وطعمت هذه الطبقة بدماء جديدة من اليونانيين ومن المصريين الذين حصلوا على الجنسية الرومانية عن طريق العمل في القوات المساعدة أو في البحرية الرومانية عدة سنوات. وأفراد هذه الطبقة هم سادة المجتمع، يختار من بينهم موظفي الإدارة، وأغفوا من الضرائب وفي مقدمتها ضريبة الرأس. وتأتي طبقة الإسكندريين في المرتبة الثانية بعد الرومان، وحصل هؤلاء على الاعفاء الكلي من ضريبة الرأس، وانقسم المصريون (الطبقة الثالثة) إلى المصريين الذين تجرى في عروقهم دماء يونانية (مصريون غير وطنيين) والمصريين الخالص أو الوطنيين. واعتبر اليونانيون مصريين لأنهم ذابوا في المجتمع المصري وحملوا ملامحه، وأصبح من الصعب التمييز بين من هو يوناني وبين من هو "مصري". وأهم ما يميز هذه الطبقة هو : خضوع المصريين واليونانيين لضريبة الرأس ولكن بأنصبة متفاوتة بحسب المكانة، فالإيونانيون الأكثر ثراء والمتأغرقون من مواطني عواصم الأقاليم كانوا يدفعونها بحسب منزلتهم الاجتماعية، ومستواهم الثقافي. أما غالبية المصريين من الفلاحين الفقراء فكانوا يدفعونها كاملة غير منقوصة إلى جانب الأعباء الأخرى.

أما الأسرة فكانت ترتبط بروابط قوية ممثلة في صلات الدم والمودة والرحمة، وكان رب الأسرة يهتم بشئون أسرته وأحوالها المالية، وعاشت بعض

الأسر في مصر الرومانية حياة لا تخلو من الترف، فكان لدى بعض الأسر عبید كثيرون، ولديهم طاه ومربية أطفال وبستاني ومحام وطبيب خاص. ولقد اقتصر الزواج الرسمي على أرقى الطبقات الاجتماعية من الرومان والإسكندرانيين واليونانيين، وكثرت لدى المصريين عقود الزواج المكتوبة وليست مسجلة، وكانت تنص على حسن العشرة، فلا يجوز أن يسئ الزوج معاملة زوجته، ولا يحق له أن ينجب أطفالاً من غيرها، أما الزوجة فعليها السمع وحسن الطاعة، وألا تتورط في علاقة مع رجل آخر. وكان لحفلات الزواج تقاليد وعادات منها: إرسال الدعاوى المكتوبة للمدعوين قبل موعد الاحتفال، وتقديم الهدايا من الأهل والأقارب والجيران للعروسين، وإحياء الحفل بالموسيقيين والراقصات والمغنيات.

أما عن الأعياد والاحتفالات في مصر الرومانية فكان منها ما هو ديني مثل الاحتفال بعيد الإله سرابيس ومنها ما هو عام مثل الاحتفالات التي تقام بمناسبة دخول الأبناء معهد الجمنازيوم<sup>(١)</sup> أو تخرجهم منه، والاحتفالات بمناسبة زيارة الأباطرة وكبار الشخصيات الرومانية لمصر، وإقامة المسابقات الرياضية، والنشاط المسرحي في مدينة الإسكندرية وغيرها.

### الحياة الثقافية في مصر الرومانية :-

كان التعليم يتم في المدارس الخاصة التي يشرف عليها "معلم" أو عن طريق إحضار المعلم إلى المنزل إذا كانت الأسرة ميسورة الحال، ليقوم بتعليم الصغار نظير أجر يدفع له. ويتعلم الصغار في البداية حروف الأبجدية اليونانية - لغة البلاد الرسمية التي تصدر بها الأوامر والقرارات. أما اللغة اللاتينية (لغة

(١) تم إنشاء هذه المؤسسة التعليمية في عصر البطالمة، وهو الذي خرج أبطال الرياضة في مصر الرومانية وحشد من كبار موظفي الإدارة، فضلاً عن دوره الثقافي والاجتماعي؛ حيث كان مركزاً للحضارة الهلينية.



الرومان) فقد اقتصر التعامل بها على شئون الجيش الروماني، لأن غالبية العظمى كانت من الرومان. وبعد تعلم الأبجدية اليونانية واتقان القراءة والكتابة، يتدرج منهج الدراسة في مراحل مختلفة ليشمل النحو، البلاغة، الأدب، الرياضة، الفلسفة، مع دراسة بعض القصص الأخلاقية إلى جانب القصص التمثيلية والشعر والخطابة. ويتلقى الشباب من طبقة الجنمازيوم البيان والموسيقى إلى جانب تدريباتهم الرياضية. وبعد إتمام المراحل الأولى للتعليم، يستطيع الطالب الالتحاق بجامعة الإسكندرية، وتشمل كل من المجمع العلمي (الموسيون) والمكتبة. وقد اهتم الرومان بأمرهما، وبباحثي الموسيون، وألوه عناية ورعاية، ويدل على ذلك ازهار العلوم فيه، كما كان يقصده الطلبة من داخل مصر وخارجها. أما التعليم الديني فتخصصت فيه المعابد المصرية، وارتكز على اللغة والكتابة المصرية وطقوس الديانة.

وبلغت الإمبراطورية الرومانية أقصى اتساع لها في القرنين الأول والثاني الميلاديين، وضمت داخل حدودها أنهار مثل نهر الراين والدانوب والفرات والنيل، وامتدت حدودها من المحيط الأطلنطي غربًا إلى الفرات شرقًا. وكان القرن الثاني الميلادي أكثر عصور الإمبراطورية سلامًا، ولكن ما أن اقترب القرن الثاني من نهايته حتى بدأت تتتاب الإمبراطورية أزمامت شتى سواء كانت سياسية أم اقتصادية، وسرعان ما أخذت في الضعف والانحلال بعد القوة والانتساع .

أما عن أسباب هذا الضعف والانحلال فمنها ما هو سياسي، خاصة وأن الإمبراطورية في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث بدأت تعاني من عدم الاستقرار السياسي ومن ضعف الحكومة المركزية وظهور الحكم الاستبدادي العسكري لدرجة تدخل قادة الفرق العسكرية في ولايات الإمبراطورية في تعيين الأباطرة وفي عزلهم، فطغى بذلك سلطانهم على سلطان الحكومة وترتب على

ذلك أن أصبح الأباطرة ألعوبة فى أيدي رجال الجيش . يضاف إلى ذلك تصدع النظام الإدارى فى الولايات، وانقسام ولاء الجند بين أدياء العرش مما أدى آخر الأمر إلى تعاقب الحروب الأهلية .

أما من حيث الظروف الاقتصادية التى سادت الإمبراطورية خلال تلك الفترة فقد عانت الإمبراطورية من أزمة مالية حادة، وتدهور فى شتى المجالات الصناعى منها والتجارى وانخفضت قيمة العملة، إذ اضطر الأباطرة إلى تزييفها بزيادة نسبة المعادن الرخيصة بها، وترتب على ذلك اختفاء العملات الجيدة من السوق، وتداول العملات الرديئة، وحدث بذلك نوعاً من التضخم المالى، وارتفعت الأسعار بشكل لم يؤلف من قبل .

وليس أدل على ذلك من أن هناك وثيقة بردية نادرة المثال عثر عليها فى البهنسا بصعيد مصر، وفيها يطالب النساجون فى تلك البلدة بزيادة الأسعار لإنتاجهم بسبب زيادة أسعار المواد الخام، وزيادة أجور العمال، ونتيجة للتضخم المالى وانخفاض سعر العملة هجرت الدولة الاقتصاد المالى الذى كانت العملة أساس التعامل فيه إلى الاقتصاد العينى إلى حد بعيد، بحيث أصبحت كثير من الضرائب تجمع عيناً من السلع والمحاصيل، كذلك كانت أجزاء كبيرة من المرتبات تصرف عيناً فى صورة ثياب أو مواد تموينية .

كما ألم بالإمبراطورية تدهور اجتماعى كان من أسبابه أن الرخاء الذى شهدته الإمبراطورية فى القرنين الأول والثانى نتج عنه ظهور طبقة جديدة أثرت بسرعة فائقة وهى الطبقة البرجوازية التى أدى ظهورها إلى اختفاء الطبقة الوسطى، التى ذابت وسط طبقتين هما : الطبقة الأرستقراطية والطبقة البرجوازية . وقد ترتب على ظهور الطبقة البرجوازية أصابة مجتمع الولايات الرومانية بعدم الاستقرار الاجتماعى، ونفشى روح القلق داخل هذا المجتمع .



تزايدت إغارات القبائل الجرمانية على الإمبراطورية وبدأت هذه القبائل تتوغل داخل أراضيها وخطوط دفاعها وفي نفس الوقت تعرضت الإمبراطورية لخطر آخر من جانب دولة الفرس الساسانية التي أخذت تهدد أرمينية وبلاد ما بين النهرين وسوريا تهديدًا خطيرًا ومستمرًا . وهكذا انتهب الجرمان والفرس حالة الضعف والإعياء التي كانت تعاني الإمبراطورية منها وشنوا إغاراتهم المستمرة على حدودها وأطرافها ولذلك لا عجب أن أطلق على تلك الفترة من تاريخ الإمبراطورية وهي من أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث اسم « المحنة الكبرى للإمبراطورية الرومانية ».

وهكذا أصاب الضعف والانحلال الإمبراطورية الرومانية وشمل كافة مرافقها، ولم يحل القرن الثالث الميلادي، إلا وكانت الإمبراطورية الرومانية قاب قوسين أو أدنى من التدهور التام، وفي ذلك الحين ظهرت على مسرح أحداث الإمبراطورية الرومانية شخصية دقلديانوس ( ٢٨٤ - ٣٠٥ م ) الذي استطاع أن يكتسب ولاء الجند وأن يعلن نفسه إمبراطورًا، واستطاع بشخصيته القوية أن يعيد الحياة للإمبراطورية الرومانية وأن يمنحها عشرين سنة من السلام النسبي، وهي فترة حكمه إذ استطاع خلالها أن يقيم بناءً إداريًا محكمًا منح الإمبراطورية فرصة جديدة للحياة .

ولد دقلديانوس حوالي عام ٢٤٥م في ولاية دالماشيا ( في شمال غرب مقدونيا )، وكان والده يشغل وظيفة كاتب، سلك دقلديانوس طريق الجندية، وتدرج في المناصب العسكرية حتى وصل إلى رتبة دوق ( أى قائد الفرسان ) ثم حصل على القنصلية، وفي آخر المطاف اختير قائدًا لقوات الحرس الإمبراطوري أى حرس القصر، وأظهر دقلديانوس مهارة حربية فائقة في

حروب الإمبراطورية ضد الفرس، أكسبته هذه المهارة قلوب الجند ومهدت له الطريق إلى حكم الإمبراطورية .

اعتلى دقلديانوس عرش الإمبراطورية فى نوفمبر من عام ٢٨٤م وعندئذ ألقى على عاتقه مهمة من أشق المهام وأصعبها ألا وهى " إنقاذ الإمبراطورية من براثن الانحلال والضعف " ولذلك وضع دقلديانوس فور ارتقائه العرش برنامجًا ضخمًا للإصلاح ولعلاج مشاكل الإمبراطورية لذلك فهو يعتبر من كبار المصلحين الذين عرفتهم الإمبراطورية الرومانية . وتظهر جهود دقلديانوس الإصلاحية فى ثلاثة مجالات هى : الإدارة والجيش والمال .

### إصلاحات دقلديانوس فى الإدارة

بدأ دقلديانوس إصلاحاته بإعادة تنظيم الجهاز الإدارى فى الإمبراطورية، بعد أن رأى أن النظام السابق تعرض للتفكك والانحيار، ورأى من الصعب أن تدار أمور الإمبراطورية على اتساعها عن طريق إدارة مركزية واحدة ولذلك اتخذ الخطوة الأولى نحو تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين أساسين القسم الشرقى والقسم الغربى، وجعل بذلك السلطة العليا فى الإمبراطورية فى يد اثنين من الأباطرة، يحمل كلاهما لقب ( أغسطس ) ويحكم أحدهما القسم الشرقى من الإمبراطورية ويحكم الآخر القسم الغربى منها .

أما الخطوة الثانية التى اتخذها دقلديانوس لإصلاح النظام الإدارى فهى: أنه قرر عام ٢٩٣م توزيع السلطة الإمبراطورية على أربعة، وبذلك أوجد دقلديانوس النظام المعروف باسم " السلطة الرباعية أو التتراخيا Tetrachia وذلك بتعيين نائب له ونائب لشريكه ماكسيميانوس ليساعدهما فى إدارة شئون الإمبراطورية وفى حكمها، كلاهما بدرجة قيصر أو ولى عهد، فهما يحلان محل الإمبراطور فى حالة وفاته أو استغفائه . واختار دقلديانوس جاليريوس Galerius ليكون نائبه . أما ماكسيميانوس فقد اختار قسطنطينوس خوروس



Constantinus Chlorus ليكون ولياً له .

وقسمت الإمبراطورية بين هؤلاء الأربعة، فتولى دقلديانوس حماية المقاطعات الشرقية، وجعل ( نيقوميديا ) شمال غرب آسيا الصغرى عاصمة له ومقرًا . وأما جاليريوس فقد أشرف على حماية منطقة البلقان وجزء من آسيا الصغرى . وتولى ماكسيميانوس حماية المناطق الشمالية من الراين والدانوب، وجعل ( ميلان أو ميلانو ) فى شمال إيطاليا عاصمة له لأن ميلان كانت تتحكم فى معظم ممرات جبال الألب، مما يجعل من السهل انتقال الجيوش الإمبراطورية منها إلى غاليا وألمانيا، لصد أى هجوم أو إخماد أية فتنة . أما قسطنطينوس خلوروس فقد عهد إليه بحماية ولاية بلاد الغال وبريطانيا وأسبانيا . وكان كل من هؤلاء الأربعة مستقلاً فى شئون ولايته له تشريعاته الخاصة غير أنهم تعهدوا جميعاً بتقديم العون أحدهم للآخرين حفاظاً على مصالح الإمبراطورية . وعلى الرغم من تقسيم السلطة الإمبراطورية بين هؤلاء الحكام الأربعة، إلا أن الإمبراطورية ظلت وحدة سياسية واحدة، لأن الإدارة فيها كانت جماعية والقيادات واحدة .

وأعاد الإمبراطور تنظيم الولايات، فدمجها فى وحدات إدارية كبيرة تعرف كل منها باسم دوقيات Dioceses وجعل على رأس كل دوقية موظف ليس فى يده إلا سلطة مدنية، وأطلق عليه اسم نائب حاكم Vicarius أما القيادة العسكرية فى الدوقيات، فقد عهد بها دقلديانوس إلى الدوق Dux وأخضع سلطته العسكرية لسلطة الحاكم المدنى فى الدوقيات أو المقاطعات وبذلك فصل دقلديانوس السلطة العسكرية عن السلطة المدنية، وجعل كل منهما تعتمد على الأخرى فى نفس الوقت . ونجح بذلك فى القضاء على خطر محاولات التمرد والانقلابات التى تهدد

السلطة المركزية . هذه هي أهم المعالم الرئيسية لإصلاحات دقلديانوس الإدارية، ومما لا شك فيه أنها حققت قدرًا كبيرًا من الكفاءة الإدارية ولكنها حققت ذلك بقدر أكبر من التكاليف لأن سياسة تفتيت المناصب الكبرى وإنشاء إدارات جديدة أضافت عبئًا ماليًا جديدًا على مالية الإمبراطورية المنهكة .

**أما بالنسبة لإصلاح الجيش فقد اتخذ دقلديانوس إجراءات هامة من بينها :**

١ - أعد دقلديانوس فرقة جديدة من الفرسان عرفت باسم " قوات الحرس الخاص " لتتولى حماية الإمبراطورية، ولتحل بذلك محل الحرس البرايتورى (الحرس الإمبراطورى) الذى لم يعد يتولى حماية الإمبراطورية كما كان من قبل .

٢ - قوى دقلديانوس ( حرس الحدود Limitanei ) الذين كانوا يستوطنون الأراضى الواقعة على حدود الإمبراطورية ويزرعونها ويتولون الدفاع عنها فى نفس الوقت .

٣ - فرض نظام التجنيد الإجبارى، وأعتد على الجنود المرتزقة فى الجيش وخاصة من العنصر الجرمانى، وفتح أمامهم باب الترقى فى المناصب العسكرية شأنهم فى ذلك شأن باقى طبقات المجتمع الرومانى بقدر ما قل نصيب الجندى من الحضارة بقدر ما ازدادت أهميته ومكانته . كذلك ألزم أصحاب الإقطاعيات بإمداده بعدد معين من المتطوعين وإذا عجزوا عن ذلك يدفعون مبالغ معينة تعادل العدد المقرر عليهم من المرتزقة . وذلك كله ليحل مشكلة النقص فى التجنيد . ومما لا شك فيه أن عدد أفراد الجيش الرومانى ازداد على عهد دقلديانوس كما أصبح الطريق مفتوحًا أمام



الجندي ليصل إلى مرتبة القائد الأعلى للجيش . وكل ما كان يطلب منه من مؤهلات في هذه الحالة هو أن يكون شجاعًا خبيرًا بفضه، مخلصًا للإمبراطور .

٤ - جهاز دقلديانوس مجموعات عسكريا سريعة الحركة، يمكنها أن تتولى الدفاع عن الإمبراطورية في سرعة وخفة، وبذلك لم يعد للفرق الثقيلة قيمة كبيرة .

٥ - أوجد الإمبراطور قوة متحركة تكون تحت قيادته مباشرة وتصاحبه في كل تنقلاته، ومن ثم عرفت باسم " قوة المعية Comitatus وكانت قوة المعية هذه تشتمل على وحدات من بربر شمال أفريقية .

٦ - اهتم دقلديانوس بتحسين الحدود الإمبراطورية، وتظهر النقوش والآثار الجهود الكبيرة التي بذلها في بناء الطرق العسكرية والحصون في شمال أفريقية وسوريا، وحدود الجزيرة العربية، وعلى الراين والدانوب وقام دقلديانوس بإصلاح قلاع الحدود القديمة، وتشيد قلاع جديدة وإصلاح أسوار المدن .

وتزايد عدد الجيش في عهد دقلديانوس زيادة كبيرة على أن هذه الزيادة إذا كانت قد حققت السلام على الحدود والأمن في الداخل إلا أنها مثلت عبئا اقتصاديا وماليا على الإمبراطورية . فقد نجح هذا الجيش في إخضاع الثورات المتأججة في غاليا وبريطانيا وولاية أفريقية ومصر، وصد البرابرة على امتداد جبهتي الراين والدانوب، وهاجم الفرس واسترد منهم بلاد ما بين النهرين، وامتدت بذلك حدود الإمبراطورية مرة أخرى حتى نهر دجلة شرقا .

أما فيما يتعلق بالعملة والنواحي المالية والضرائب فقد قام دقلديانوس بإصلاح النقد وبذل جهودا صادقة في سبيل إقامة نظام سليم للعملة لعله يتحكم بذلك في الأسعار فأصدر عملة جديدة من الذهب والفضة، معلمة بأوزانها كذلك

أصدر كمية كبيرة من العملة البرونزية المطلية بالفضة وحاول بذلك إيجاد نظام موحد للعملة من الذهب والفضة والبرونز كالذى وجد قبل أن تتعرض الإمبراطورية للتضخم وحازت هذه العملة ثقة التجار والمتعاملين بها على حد سواء .

وفى ٣٠١ م وضع دقلديانوس لائحة للحد من ارتفاع الأسعار وخاصة أسعار السلع الغذائية كالقمح والشعير واللحوم والخضروات والفاكهة والسمك إذ ثبت بها سعر كل سلعة على حدة، وحدد فيها حد أعلى لكل سلعة . وقد شملت هذه اللائحة أنواع المنسوجات والأدوات الكتابية وشملت حتى أجور الحرفيين . وأندر دقلديانوس فى هذه اللائحة بالإعدام كل من يتعداها أو يخبئ سلعته من السوق .

كذلك سارع دقلديانوس إلى حماية مصالح الدولة المالية عند إصلاح نظام الضرائب، فقام أولاً بمسح شامل لكل ما تقع عليه الضريبة من أرض ودواب وسكان وذلك لإعادة تقدير الضرائب عليها، مراعيًا فى ذلك مساحة الأراضي وما عليها . كذلك توسع دقلديانوس فى نظام الضرائب النوعية أو العينية أى التى تجبى فى شكل محاصيل زراعية أو منتجات زراعية كالزيت والنبيد وغيرها، وذلك بغرض تثبيت الأسعار وضمان ارتباط المزارعين بالأرض لزراعتها، وفى نفس الوقت القضاء على الغش فى العملات النقدية .

وهكذا نجح دقلديانوس بإصلاحاته أن يبعث الروح من جديد فى جسد الإمبراطورية الضعيف كما نجح فى أداء المهمة الشاقة التى ألقيت على عاتقه وهى إنقاذ الإمبراطورية من براثن الانحلال .

وفى مايو ٣٠٥ م أعلن دقلديانوس تنحيه عن عرش الإمبراطورية، بعد أن أدى واجبه فى إنقاذها وتدعيمها فقد بلغ الستين من عمره، واستبد به المرض . وباعتزال دقلديانوس قامت حرب أهلية استمرت سبع عشرة سنة، ونشب صراع



طويل حول العرش ومن خلال هذا الصراع برزت شخصية قسطنطين . ولد قسطنطين بن قسطنطين خلوريوس Chlorus أى (الأخضر الشاحب) فى مدينة نيش - فى يوغوسلافيا الحالية - فى عام ٢٨٠م، ونشأ وتربى فى مدينة نيقوميديا، التى اتخذها دقلديانوس مركزاً له، وعندما بلغ الخامسة عشر من عمره التحق بالجيش وأظهر مهارة فائقة فى ميادين القتال. وعندما قامت الحرب الأهلية على أثر وفاة دقلديانوس، كان قسطنطين أحد المشتركين فيها، واستطاع قسطنطين أن يتغلب على منافسيه وخصومه الواحد تلو الآخر حتى انفرد بحكم الإمبراطورية . ومنذ ذلك الحين أخذ على عاتقه إتمام إصلاحات دقلديانوس لدرجة أصبح من الصعب معها الفصل بين أعمال كل منهما .

سار قسطنطين على نهج دقلديانوس فى إصلاحاته الإدارية، كما أحدث تغييرات هامة من بينها، إدخال مبدأ الوراثة فى تولى العرش الإمبراطورى أى أصبح منصب الإمبراطور وراثياً فى أسرته، وعمل قسطنطين على زيادة جيش ( المعية ) تلك القوة الضاربة المركزية، التى كانت تتحرك مع الإمبراطور حين تدعو الحاجة ذلك . كما فتح الباب على مصرعيه أمام الجرمان لينخرطوا فى سلك الجيش الرومانى، يضاف إلى ذلك أنه جعل الحرف والأعمال وراثية، حتى لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب، هذا إلى جانب أنه ربط المزارعين بأراضيهم وحرّم عليهم الانتقال إلى ولايات أخرى . مما أدى إلى التعجيل بالقضاء على طبقة المزارعين الأحرار وتحويل أبناء هذه الطبقة إلى ألقان مربوطين بالأرض .

ونجح قسطنطين كذلك فى تثبيت العملة، إذ أصدر عملة ذهبية جديدة تسمى ( الصولد Solidus )<sup>(\*)</sup>، حافظت على وزنها ونقائها حتى القرن الحادى

<sup>(\*)</sup> الصولد يساوى ٤٠ جرام من الذهب وينقسم إلى ٢٤ قيراط كل منها سدس جرام من الذهب، وعرف بالنوميزما، وكان يزن أيام قسطنطين العظيم ٤٥,٥٠ جرام وأطلق عليه الصلبييون فيما بعد اسم (البيزنط) نسبة إلى بيزنطة.

عشر، وهى عبارة عن قطعة من سبائك الذهب أو الفضة مدموغة بخاتمه أكثر من كونها عملة، أما عن المصادر التى حصل منها على الذهب لعملته الجديدة فكانت عن طريق جمع الضرائب بالذهب أو شراء الذهب من الأسواق، ولكن أهم مصدر من غير شك هو ما صادره قسطنطين من أملاك المعابد الوثنية التى توسع فيها بصورة مضطربة .

شهد عصر قسطنطين ( ٣٠٦ - ٣٣٧ م ) حدثين هامين وهما :

١ - اعتراف قسطنطين بالمسيحية كاحدى الديانات المصرح بها فى الإمبراطورية ٣١٣ م .

٢ - نقل عاصمة الإمبراطورية من روما على ضفاف نهر التيبر إلى روما الجديدة ( القسطنطينية ) على ضفاف البوسفور، وقد ساهم هذان الحدثان الهامان فى ظهور ما عرف فى التاريخ باسم " الإمبراطورية البيزنطية " وترتب عليهما أيضاً أن تحولت مصر من ولاية رومانية إلى ولاية بيزنطية.

ولذلك لابد من إلقاء الضوء على هذين الحدثين الهامين وبالنسبة للحدث الأول فسوف نتناوله بالتفصيل عند الحديث عن الحياة الدينية فى مصر فى العصر البيزنطى . أما الحدث الثانى وهو تأسيس عاصمة جديدة للإمبراطورية الرومانية وهى " بيزنطة أو القسطنطينية فسوف نتحدث عنه قليلاً .

الحقيقة أن هناك أسباب سياسية ودينية واقتصادية دفعت قسطنطين إلى نقل العاصمة من روما القديمة، ومن هذه الأسباب أن قسطنطين كان فى حاجة إلى تأييد سياسى وخاصة من أقاليم الشرق، والمعروف أن قسطنطين كان يحكم فى الغرب، فى حين أن مركز النقل بالنسبة للإمبراطورية أصبح ينحصر فى الشرق منذ القرن الثالث الميلادى، ولذلك أراد قسطنطين أن يجعل عاصمة بلاده فى الشرق مثلما سبق وفعل ذلك الإمبراطور دقلديانوس الذى اتخذ من نيقوميديا مركزاً له . وأدرك قسطنطين أن المسيحية قد انتشرت فى الشرق، وهو فى



حاجة إلى تأييد الشرق له، ولذلك كان لزاماً عليه أن يساند المسيحية والمسيحيين، وهذا لا يتحقق إلا ببناء عاصمة جديدة تقوم أساساً على الدين المسيحي، بدلاً من روما مركز الوثنية وحصنها المنيع. يضاف إلى ذلك أن روما لم تعد عاصمة مأمونة وخاصة بعد أن تكررت هجمات الأعداء عليها من فرنجة وقوط وألمان وغيرهم . ولعل هذا الأمر هو الذى دفع دقلديانوس إلى نقل العاصمة من روما إلى ميلان، وهو نفس السبب الذى جعل قسطنطين يتخلى عن روما وميلان، ويتخذ عاصمة مأمونة وحصينة بدلاً منهما وهى القسطنطينية ذات الموقع الاستراتيجى الفريد. الذى جعلها تتحكم فى طريق تجارة البحر الأسود وبحر ايجة والبحر المتوسط إذ لم تلبث أن أصبحت مركزاً للتجارة العالمية . وأخيراً لا ننسى العامل الشخصى لدى قسطنطين، فقد كان قسطنطين كما سبق أن ذكرنا شرقى المولد والنشأة فقد تربى فى نيقوميديا . كل هذه العوامل ساهمت فى جعل قسطنطين ينقل عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة إلى روما الجديدة ( Roma Nova ) ( القسطنطينية ) .

كان أمام قسطنطين العديد من المدن التى كان من الممكن اختيار احداها عاصمة للإمبراطورية منها : نيقوميديا مقر حكم (دقلديانوس) ولكنه لم يتخذها مقراً وعاصمة لأنها كانت مركزاً لصدور القرارات الخاصة باضطهاد المسيحيين، ومن ثم فهى تذكر المسيحيين بتلك الفترة السوداء فى حياتهم وتاريخهم. ومنها سالونيك فى البلقان عاصمة جاليريوس قيصر دقلديانوس، ولكنه لم يختارها إذ أنها لم تتمتع بالصفات التى تؤهلها لأن تكون عاصمة للإمبراطورية كما كان فى استطاعته أن يختار إحدى المدن العريقة مثل الإسكندرية فى مصر أو انطاكية فى سوريا، وكلتا المدينتين كانتا مركزاً عظيماً للتجارة والحضارة، ولكل منهما موقع استراتيجى مميز، كذلك كان أمامه مدينة اثينا مهد الحضارة الإغريقية، ولكنه فضل أن يقطع صلته بالماضى تماماً، فترك كل هذه المدن الشهيرة، واختار مدينة مغمورة هى بيزنطة. وكانت أشبه



بمثلث صغير من الأرض غائر في البحر، ويرجع تأسيسها إلى القرن السابع قبل الميلاد، وقد قام بتأسيسها جماعة من المهاجرين الإغريق وفدوا من مدينة ميجارا Megara، وزعيمهم بيزاس Byzas الذي سميت المدينة بأسمه. وكانت ذات موقع ممتاز فالبحر يحيط بها من ضلعيها، ولها ميناء طويل مقوس من الشمال الغربي عرف باسم القرن الذهبي، لأنه كان في شكل القرن، وفي الجنوب الغربي منها يقع بحر مرمرة، وبينه وبين القرن الذهبي يوجد مضيق البوسفور.

وكانت بيزنطة مدينة صغيرة حينما وقع اختيار قسطنطين عليها لتكون عاصمة لامبراطوريته، ومن ثم بدأ في إعادة تخطيطها وتعميرها فأنشأ بها قصرًا امبراطوريًا فخماً، وساحة كبرى واسعة Forum كمركز تجارى واجتماعى وثقافى، كما أمر ببناء ملعب كبير لسباق الخيول التى تجرها العربات Hippodrome وكافة المرافق الإدارية للحكومة، ولرجال البلاط وكبار الموظفين. واشرف قسطنطين بنفسه على التخطيط العمرانى الجديد، وأمر أن تحاط المدينة بسور عظيم، يبدأ من الساحل الشمالى وينتهى عند الساحل الجنوبى، ودعمه بأبراج للحراسة تقام على مسافات معينة، وبنيت كذلك أسوار على طوال الساحل لحماية المدينة براً وبحراً.

وبذل قسطنطين جهدًا كبيرًا فى إتمام عملية البناء فجمع كل ما يلزم البناء من عمال ومواد أولية وأحجار وتماثيل استعملت فى تجميل العاصمة الجديدة . وبعد أن انتهت مرحلة البناء والتشييد، قام الإمبراطور قسطنطين بافتتاحها وسط حفل كبير فى ١١ مايو سنة ٣٣٠م، وبعدها أقيمت الاحتفالات التى استمرت أربعين يومًا .

أما عن النتائج التى ترتبت على تأسيس القسطنطينية فتتمثل فى أن القسطنطينية قامت على أساس مدينة يونانية قديمة قريبة من مراكز الحضارة الهلينية مما ساعد على إنتعاش تلك الحضارة مرة أخرى، إذ أن الإمبراطورية



الرومانية الشرقية ما لبثت أن احتضنت تلك الحضارة وجعلتها أساساً لحضارتها، كما أن موقع هذه المدينة الحصين حطم كثيراً من هجمات المسلمين، ومنع وصولهم إلى شرق أوروبا، كما ساعد على تحطيم غزوات السلاف المتكررة، كذلك أدى قيام هذه العاصمة الجديدة على أسس مسيحية إلى انتشار الدين المسيحي . يضاف إلى ذلك أن القسطنطينية أصبحت هي الوسيط التجاري بين آسيا وأوروبا، وأصبحت هي العاصمة الوحيدة للإمبراطورية الرومانية بعد سقوط روما على يد الجرمان في عام ٤٧٦م . هذا فضلاً عن أنه لولا قيام القسطنطينية لما استطاعت البابوية الوصول إلى ما وصلت إليه من مجد وعظمة في العصور الوسطى .

وهكذا أصبحت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية وهي التي أطلق عليها اسم ( الإمبراطورية البيزنطية ) نسبة إلى مدينة بيزنطة (القسطنطينية ) ومن ثم أصبحت الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية تأخذ اسم بيزنطية هي الأخرى، وكان من بين تلك الولايات مصر، التي أطلق على تاريخها في تلك الفترة اسم تاريخ مصر في العصر البيزنطي .

و على هذا النحو فإن تاريخ مصر في العصر البيزنطي يبدأ في عصر الإمبراطور قسطنطين العظيم ( ٣٠٦ - ٣٣٧م ) ويستمر حتى عصر الإمبراطور هرقل ( ٦١٠ - ٦٤١م ) حيث فتح المسلمون في عهده مصر سنة ٢٠هـ / ٦٤١م ، وانتقل بذلك حكم مصر من البيزنطيين إلى المسلمين .

## الحياة الدينية

### انتشار المسيحية في مصر :

المسيحية ديانة شرقية نبتت في فلسطين حيث ولد السيد المسيح (\*) عليه السلام في بيت لحم عام ٦ ق.م. وعاش معظم سنوات حياته في قرية الناصرة (\*\*\*) في عصر الإمبراطور أغسطس (٢٧ ق.م - ١٤ م) وأخذت في الانتشار التدريجي في كل من الشرق والغرب، فدخلت المسيحية مصر واعتنقها عدد كبير من سكان مصر . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا كيف دخلت المسيحية مصر، وقد نبتت أصلاً في فلسطين وكيف انتشرت بها؟

يمكن القول أن المسيحية دخلت مصر عن عدة طرق :

### الطريق الأول : اليهود

يستخلص من سفر أعمال الرسل - أحد أسفار العهد الجديد - ومن الفصل الثاني منه أن يهود الإسكندرية كانوا على اتصال دائم ببني جلدتهم بفلسطين، وفي الوقت الذي كان فيه السيد المسيح موجوداً بفلسطين زار يهود الاسكندرية أورشليم، وسمعوا برودود الفعل التي أحدثتها تعاليم السيد المسيح ومعجزاته، بل

---

(\*) اختلفت الآراء حول تسمية عيسى عليه السلام بالمسيح ومنها أنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وقيل لأن حبريل عليه السلام، مسحه بجناحيه عند ولادته صوتاً له من مس الشيطان، وقيل المسيح لأنه كان يمسخ رعوس اليتامى وكان لا يمسخ بيده صاحب عاهة ألا برأ، وقيل كذلك مسح بالبركة.

(\*\*) عاش السيد المسيح معظم حياته في هذه القرية، خاصة بعد أن هربت به أمه من بطش اليهود، وهو ابن عامين إلى مصر، ثم عادت إلى فلسطين بعد أربع سنوات لتسكن في قرية الناصرة هذه الواقعة على جبل الجليل، لذلك يعرف المسيحيون باسم النصارى، لأن المسيح قضى بها معظم سنوات عمره حتى بلغ الثلاثين عاماً.

---



أن بعضهم رأوا بأعينهم المعجزات، وسمعوا بأذانهم ما فاه به السيد المسيح عن قوة الله وعجائبه، وشاهدوا إرشاده وتعليمه، ومنهم من مكث في أورشليم حتى وقت صعوده إلى السماء. ومن الطبيعي أن هؤلاء اليهود أخذوا - بعد عودتهم إلى مصر - يقصون ما سمعوه وما راوه في أورشليم على أقاربهم وذويهم. وهكذا أخذت أخبار المسيحية تنتقل إلى مصر عن طريق اليهود ويؤكد ذلك بعض المؤرخين المحدثين فمنهم من ذكر أن العديد من السكندريين خاصة الطائفة اليهودية كانت على علم بأخبار الديانة المسيحية.

**الطريق الثاني : الجنود والفرق العسكرية** التي كان يرسلها الرومان تبعاً إلى مصر برًا وبحرًا لحمايتها والدفاع عنها فقد كان من بين هؤلاء الجنود من اعتنق المسيحية أو لديه معلومات عنها، وباحتكاكهم بالمصريين، بدأ المصريون يتعرفون على هذا الدين الجديد.

### **الطريق الثالث : هو التجارة والتجار :**

إذ كانت مدينة الإسكندرية عاصمة مصر في عصرى البطالمة والرومان مدينة تجارية هامة، وفد إليها التجار من كل مكان من سوريا ومن آسيا الصغرى ومن بلاد اليونان، فضلاً عن ذلك كانت الإسكندرية أهم ميناء فى حوض البحر المتوسط الشرقى ( بحر الروم ) استقبل السفن القادمة من بلاد الشام، ومن موانى شرق البحر المتوسط وغربه . ومن المعروف أنه عن طريق التجارة وعبر الطرق التجارية تنتشر الأفكار والآراء والمعتقدات وتنتقل من مكان لآخر فى تلك الأزمان، ونتيجة لازدهار الحركة التجارية ونشاطها بين مدن الإمبراطورية فقد ازدادت الصلات التجارية بين بلاد الشام وخاصة بيت المقدس وبين مصر من ناحية، وبين روما ومصر من ناحية أخرى، ومما لا شك فيه أن التجار الذين قدموا إلى مصر فى تلك الفترة سواء من بلاد الشام أو من روما كان منهم من اعتنق المسيحية أو لديه على الأقل معلومات عنها وعمّا

تدعو إليه من أفكار ومعتقدات، كذلك ليس من المستبعد أن يكون عدد من التجار المصريين سواء كانوا من اليهود أم من الوثنيين ممن ذهبوا بتجارتهم إلى بيت المقدس أو إلى روما قد سمعوا وهم في تلك البلاد عن هذه الديانة الجديدة ومن ثم بدأت تتزايد المعلومات في مصر عن هذا الدين الجديد وبدأت المسيحية تأخذ طريقها في الانتشار في مصر، وبصفة خاصة في مدينة الإسكندرية قلعة التجارة والتجار .

دخلت المسيحية إلى مصر على يد القديس مرقس الرسول حوالي منتصف القرن الأول الميلادي - وهو أحد رسل السيد المسيح السبعين، وجاءها من فلسطين مدفوعاً بحمية روحية وغيره دينية ليدعو أهلها إلى ترك الوثنية واعتناق المسيحية التي كان يؤمن بها هو نفسه أشد الإيمان .

وهو يوحنا ( هذا اسمه اليهودي ) ويلقب بمرقس، فهو من أصل يهودي إذ ولد من أبوين يهوديين، ويدعى أبوه أرسطو بولس وتدعى أمه مريم - وكانا على جانب كبر من التقوى والصلاح متمسكين بشريعة أجدادهما، واستوطنا بادئ الأمر في بلدة ابرياتولوس بإقليم المدن الخمس الغربية ( وتقع في إقليم طرابلس الغرب وبالتحديد في برقة الحالية على حدود مصر ) . وكان والدا مرقس يعملان بالزراعة، وحدث أن أغارت إحدى قبائل البربر على مدينتهما في عهد أغسطس، فنهبت أهلها وسلبت منهم خلقاً كثيراً كان من بينهم والدي القديس مرقس .

اضطر والدا مرقس إلى ترك البلاد والهجرة إلى فلسطين وذلك وقت ظهور السيد المسيح عليه السلام وأقامت أسرة يوحنا أولاً في (قانا الجليل بالقرب من أورشليم). أما عن ميلاد القديس مرقس فهو موضع خلاف بين علماء الشرق والغرب، فيرى علماء الشرق أنه ولد في بلدته إقليم المدن الخمس الغربية، وهذا ما أكده انجيله، بينما يرى علماء الغرب أنه ولد في أورشليم بعد



هجرة أسرته إليها، والأرجح هو رأى علماء الشرق على أية حال نشأ القديس مرقس نشأةً صالحةً فى أحضان والديه ويبدو أنه تلقى تعليماً طيباً، وصار على معرفة كافية باللغتين اليونانية واللاتينية إلى جانب العبرية. وما لبث القديس مرقس أن اعتنق المسيحية على يد ابن عمه الأكبر وهو القديس برنابا كما كانت له صلة وثيقة بالقديس بطرس، الذى تبناه بعد وفاة أبيه ولقنه تعاليم المسيحية، وظل مرقس يتردد على بيت القديس بطرس بسبب صلة القرابة التى كانت تربطهما إذ كانت استرابولا زوجة بطرس بنت عم والد مرقس وهكذا كان فى حكم والده من جهة وقرب السكن من جهة أخرى، ولذلك اتاحت الفرصة لمرقس ليلم بأخبار السيد المسيح وتعاليمه ومعجزاته أولاً بأول، فازداد إيمانه بالسيد المسيح.

واستمر مرقس فى اتصاله بنسيبه بطرس، حتى صار الأخير يدعوهُ فى رسالته الأولى الجامعة بولده الحبيب، هذا فضلاً عن أنه جعله من جملة السبعين رسولاً .

وكان القديس مرقس من أوائل من تطوعوا لنشر المسيحية والتبشير بها وبدأ عملية التبشير مع الرسل السبعين حوالى سنة ٤٠م حيث رافق القديس بطرس فى أسفاره، فذهب معه إلى أورشليم، ثم إلى أنطاكية حوالى سنة ٤٥م، ثم ذهب إلى قبرص ثم إلى بعض جهات آسيا الصغرى، ثم عاد إلى أورشليم، ثم أرسله بطرس إلى مصر والإسكندرية خاصة ليبشر فيها بالمسيحية قائلاً له : « قم وامض إلى مدينة الإسكندرية لتزرع فيها الزرع الجيد الذى هو كلام الله » .

قصد القديس مرقس الديار المصرية فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى وذلك عن طريق الصحراء الغربية وبعد أن بشر بالمسيحية فى موطن رأسه فى المدن الخمس الغربية، ووصل مرقس مصر فى عام ٥٨م وفى عهد

الإمبراطور نيرون (٥٤-٦٩م) وأقام في بابلون بعض الوقت، ثم غادرها إلى الإسكندرية فوصلها في عام ٦١م، وبدأ يبشر فيها بالسيد المسيح، واتخذها مقراً ومركزاً لأنها تجمع أجناساً مختلفة من مصريين ونوبيين ويونانيين وغيرهم، كما أنها عاصمة مصر ومركزاً هاماً للتجارة، فضلاً عن كونها مركزاً علمياً ممتازاً، يضاف إلى ذلك أنه كان بها حيان لليهود، فضلاً عن أن دعوة القديس بطرس له بالخروج كانت وجهتها الإسكندرية.

ونزل القديس مرقس أول الأمر بأحد الحيين اليهوديين على إسكافي يهودى إذ حدث أن تهرأ أو تمزق حذاؤه من طول السير، فطلب من هذا الإسكافي ويدعى أنيانوس أن يصلحه له، وأثناء قيام الإسكافي باصلاح الحذاء دخل المخراز في أصبعه فادماها، فصاح الإسكافي مستغيثاً بعجـارة (أيوس ثاوس) معناها (يا الله الواحد أو قدوس الله) وما أن سمع مرقس هذه الكلمات حتى اهتز فرحاً، ودعا الله أن يبرأ الإسكافي من جرحه بعد ان اتى بالطين ودهن به اصبع انيانوس فبرأ من جرحه. ثم دار حديث طويل بين القديس مرقس والإسكافي، واعتنق الإسكافي المسيحية على يديه وخاصة بعد أن استولى عليه العجب من أمر شفاء أصبعه في نفس اللحظة. واتخذ القديس مرقس من بيته مركزاً لنشر المسيحية في الإسكندرية، كما إن انيانوس سوف يصبح ثانى بطريرك للكنيسة بعد وفاة القديس مرقس.

ولم يكن عدد المسيحيين في أول الأمر إلا قليلاً جداً، ثم أخذت دعوة القديس مرقس إلى المسيحية في الانتشار وذلك بفضل فصاحته وقوة إقناعه التى يمكن ملاحظتها من مطالعة انجيله المقدس، الذى يعد من أقدم الأناجيل على أغلب الظن. وتزايد عدد أتباعه في الإسكندرية وليس أدل على ذلك مما ذكره يوسيبوس القيصرى فى كتابه (تاريخ الكنيسة) إذ يقول: "كان جمهور المؤمنين رجالاً ونساءً يتزايد حتى أن "فيلون" اليهودى وجده أمراً جديراً بالاهتمام أن



يصف جهادهم واجتماعاتهم وطريقة معيشتهم فى كتاب "حياة التأمل" لذلك شرع القديس مرقس فى تأسيس أول كنيسة فى تاريخ المسيحية فى مصر، وهى الكنيسة المرقسية بالإسكندرية . هذا وإن كانت هناك بعض الآراء التى تشير إلى أن القديس مرقس ليس هو مؤسس تلك الكنيسة وانها بنيت بعد موته.

وأسس القديس مرقس أيضاً المدرسة اللاهوتية المسيحية بالإسكندرية إذ رأى القديس مرقس ضرورة وجود مدرسة تناظر المدرسة الوثنية المعروفة بالرواق الإسكندري - وتقوم تلك المدرسة اللاهوتية بنشر المبادئ المسيحية والتعاليم الإنجيلية وبالفعل أنشأ المدرسة اللاهوتية . وكانت مهمة هذه المدرسة فى البداية قاصرة على درس الكتاب المقدس وتعليم الديانة المسيحية على طريقة السؤال والجواب، ثم ما لبث أن اتسع نطاقها بعد ذلك، وصارت تشتغل بالعلوم والآداب والفلسفة حتى فاقت المدرسة الوثنية، وجعل القديس مرقس العلامة يسطس رئيساً لهذه المدرسة اللاهوتية، وكان منصب الرئيس يلى منصب البطريرك فى الرتبة والمنزلة .

على أن القديس مرقس ما لبث أن سافر إلى روما تلبية لدعوة القديس بطرس الرسول، وظل بها حتى عام ٦٧م، وهو العام الذى استشهد فيه القديس بطرس فى اضطهاد نيرون، ثم عاد القديس مرقس ثانية إلى مصر .

وبعد عودة القديس مرقس إلى الإسكندرية حقد عليه الوثنيون وعلى المسيحية فدبروا مكيدة للقبض عليه، وفى أثناء احتفال القديس مرقس بعيد الفصح فى ٢٦ إبريل ٦٨م وكان يوافق اليوم الذى يعبد فيه الوثنيون الههم سيرابيس - الذى كانت عبادته من أكثر العبادات شيوعاً - فلما اجتمعوا للاحتفال بعيد سيرابيس أثارهم الحكام ضد مرقس ؛ لذلك خرج الوثنيون بعد أن انتهت شعائر الاحتفال، مندفعين نحو الكنيسة واقتحموها ووثبوا عليه أثناء وجوده فى الهيكل، وقبضوا عليه، ووضعوا حبلاً فى عنقه، وراحوا ينفوا به فى

طرقات المدينة، ثم وضعوه فى السجن، ثم اخرجوه من السجن فى اليوم التالى، وراحوا يسجلونه فى الطرق حتى توفى، وبينما كان الغوغاء يعترمون احراق جثته، هبت عليهم عاصفة فرقت شملهم، وتركوا الجسد خلفهم وهنا جاء المسيحيون فحملوه خلسة ودفنوه تحت جزع الكنيسة، فى بوكاليا وهو المكان الذى أقام فيه المسيحيون فيما بعد الكنيسة المرقسية .

### عوامل انتشار المسيحية فى مدينة الإسكندرية وخارجها

وعلى الرغم من وفاة القديس مرقس إلا أن المسيحية انتشرت فى الاسكندرية بسرعة وزاد عدد أتباعها ومعتقيها ويرجع ذلك إلى عدة عوامل من بينها :

١ - سمو المبادئ التى تدعو إليها المسيحية، وهى المحبة والمساواة والإخاء والعدالة، وهى مبادئ سامية لم تعرفها الديانات الوثنية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت مما رغب العديد من السكان فى تلك الديانة للتمتع بتلك المبادئ التى تساعدهم على تحقيق حياة أفضل.

٢ - الحصار الذى فرضه اليهود على أنفسهم، وحالوا به بين الديانة اليهودية وبين انتشارها، فقد اعتبر اليهود أنفسهم فئة تختلف عن سائر فئات المجتمع المصرى، ورفضوا الاندماج داخل هذا المجتمع، مما أدى إلى عدم انتشار الديانة اليهودية، وساعد فى نفس الوقت على انتشار المسيحية. وهناك عوامل أخرى أدت إلى عدم انتشار اليهودية ومنها: ان اليهود لم يقوموا إلا بنشاط تبشيري قليل، كما ان الكثير من اسرار الديانة اليهودية ظل غامضا بالنسبة لمعظم اهالى الامبراطورية ومنهم المصريين.

٣ - الفراغ الروحي الذى عايشه المصريون فى تلك الفترة خاصة بعد أن فترت (ضعفت) الديانة المصرية القديمة فقد أصمت تعاني أشد حالات الفساد



والضعف وتعرضت لكثير من التهكم من جانب اليهود واليونانيين والرومان المقيمين بالاسكندرية لما فيها من خيالات وخرافات، وحل محلها عدد من الديانات أو الآلهة اليونانية مثل زيوس كبير الهة اليونان والرومانية مثل جوبتر وعبادة الامبراطور، وجاءت المسيحية لتفوق سائر الديانات الأخرى بتعاليمها الأخلاقية التي انفردت دون سائر الديانات الأخرى، علاوة على أن العبادات الوثنية كانت بعيدة عن الواقع غارقة في الأساطير، لا تهتم بالفرد وقضاياه ومشاكله، وكان الفرد يطلب الخلاص وينتظر المخلص، وكانت المسيحية هي طريق الخلاص.

٤- استخدم المبشرون بالمسيحية اللغة اليونانية في التبشير بها وكانت لغة العالم آنذاك مما ساعد على انتشار المسيحية.

٥- ساعدت نظرة الرومان الأولى إلى المسيحية على نمو بذورها في العالم أجمع وفي مصر بصفة خاصة، فقد نظر الرومان إلى المسيحية في بداية أمرها على أنها مجرد نزعة دينية يهودية لا شأن لهم بها، لذلك فلا خوف منها ولا ضرر، واعتبروا المسيح عليه السلام رجل يهودى جاء ليكمل (الوحي) الناموس. كذا لم ير الرومان في المسيحية في بادئ أمرها ما يثير مخاوفهم منها. ولكن سرعان ما تبددت هذه النظرة بعد أن كشفت المسيحية عن نفسها وأنها ديانة جديدة لا تعترف بقيصر كإله ولا بآلهة الرومان وإنما تؤمن بالله الواحد خالق السماء والأرض، لذلك سرعان ما اعتبر الرومان المسيحية ديانة محرمة وأنه لا حق للمسيحيين في الحياة والوجود.

ساعدت هذه العوامل على انتشار المسيحية (داخل) مدينة الإسكندرية عاصمة مصر في تلك الفترة، ومن ثم كان طبيعياً أنه بانتشار المسيحية في الإسكندرية أن تنتشر في سائر أنحاء مصر، وذلك لأن معظم سكان مصر ارتبطوا بعاصمتهم ارتباطاً وثيقاً، ووفدوا إليها إما تجاراً حيث كانت الإسكندرية

أكبر سوق تجارى بمصر، وإما لقضاء مصالح إدارية وإما للزيارة والمتعة والترويح عن النفس، وأما للتعليم فقد كانت منارة للعلم والعلماء. ويدل هذا كله على أن الصلة بين سكان مصر وبين عاصمتهم لم تنقطع، ونظراً لأن المسيحية بدأت تنتشر بتلك العاصمة، فإنه كان طبيعياً أن يسمع المصريون الوافدون إلى مدينة الإسكندرية بتلك الأفكار الجديدة التى تنادى بها المسيحية، وينقلونها معهم إلى مدنهم وقراهم . وعن هذا الطريق بدأت المسيحية تنتشر من الإسكندرية إلى سائر أنحاء القطر المصرى .

هذا وترجع سرعة انتشار المسيحية فى مصر إلى أن كثير من معتقدات المسيحية كانت لها أشباه ونظائر فى الديانة المصرية القديمة، فقد آمن المصريون القدماء بوجود اله واحد وأنه ازلى أبدي وذلك زمن أختاتون (١٣٧٠-١٣٤٩ ق.م) كما آمنوا بأن هذا الإله هو أصل الكائنات وهو الذى أوجدها وهو بذاته موجود فيها وهذا الإله هو "آتون" الذى لا شريك له. كذلك نادى المسيحية بالإله الواحد الذى لا شريك له. كما أن فكرة البعث والخلود، والثواب والعقاب فى العالم الآخر، كانت من أسس الديانتين، كذلك فكرة الثالوث المقدس فى المسيحية يقابلها الثالوث المصرى القديم، الذى يجمع بين أوزيريس وإيزيس وحورس، أيضاً فكرة ولادة المسيح من عذراء بكر يقابلها فكرة ولادة أبيس من عجلة بكر تحل فيها روح الإله بتاح، وأن "حور محب" آخر ملوك الأسرة الثامنة عشر هو ابن آمون من عذراء. كما أن العماد بالماء المقدس معروف فى الديانتين . هذا فضلاً عن أن الصليب الذى هو رمز الحياة الروحية فى المسيحية كان هو رمز الخلود عند المصريين القدماء، إذ صورت آلهتهم وفى يدهم ذلك الصليب المعقوف الرأس وهو علامة عنخ ورمز الحياة عندهم. لذلك استطاعت المسيحية أن تتغلغل فى روح المصريين، ولم يجدوا أية عضاضة فى تقبلها وفهمها.



## دلائل انتشار المسيحية في مصر

وليس أدل على انتشار المسيحية في أنحاء القطر المصري في القرن الثاني الميلادي من اكتشاف أربع برديات حفظت لنا نصان من إنجيل القديس يوحنا، وترجع كتابتها إلى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، كما عثر أيضًا على نسخ من العهد القديم مكتوبة باليونانية، وكذلك ما جاء في بردية أهناسيا (بنى سويف) من أقوال السيد المسيح " ..... ارفع قطعة الخشب فسوف تجدني، واقلب الحجر تجدني ... " وهذه كلها دلائل على انتشار المسيحية ومعرفة السيد المسيح في بلدان مصر في أوائل القرن الثاني الميلادي الذي ما كاد ينتهي حتى انتشرت المسيحية في الوجه القبلي أيضًا وفي سائر أنحاء القطر المصري .

للمزيد من الكتب عن التاريخ المصري و الآثار المصرية برجاء زيارة صفحتنا علي الفيس بوك

**Egyptology Resources, and Books**

<http://www.facebook.com/Egyptology.Resources.Books>

## الاضطهادات الدينية

وكان أكبر خطر هدد المسيحية هو ذلك الاضطهاد والتعذيب الذى أنزله الرومان بمعتقداتها . والحقيقة أن الأباطرة الرومان لم يكونوا أعداء للمسيحية كديانة، فقد اشتهر هؤلاء بتسامحهم الدينى تجاه مختلف الديانات الموجودة داخل الإمبراطورية الرومانية، تلك الإمبراطورية التى ضمت عددًا كبيرًا من الشعوب التى اختلفت عقائدها ودياناتها . ومع ذلك لم تحاول الإمبراطورية أن تستأصل أى عبادة جديدة إلا إذا كانت تتنافى مع المبادئ الأخلاقية أو تتعارض مع السياسة العامة . ومن ثم فإن حركة الاضطهاد الدينى التى نزلت بالمسيحيين والمسيحية نبعت من أسباب أخرى بعيدة عن التعصب الدينى للأباطرة الرومان . ومن هذه الأسباب ما يلى :

١ - رفض المسيحيون مشاركة الرومان فى ممارسة شعائر الديانة الرسمية للدولة، كما رفضوا عبادة الإمبراطور وتأييده وتقديس صورته وتقديم القرابين لتمثاله وحرق البخور أمامه فى المناسبات العامة، لأن عبادة الإمبراطور تتنافى مع ما تدعو إليه المسيحية من عبادة الله، لذلك أدرك الأباطرة الرومان أن المسيحية خطر يهددهم شخصيًا .

٢ - العزلة التى فرضها المسيحيون على أنفسهم، إذ اعتزلوا المجتمع الرومانى وأنشطته المختلفة، فلاهم يشتركون فى حفلاته ولاندواته العامة، ولاهم يختلطون بالرومان ويندمجون فيهم، بل أغلقوا على أنفسهم باب العزلة فى ظل التعاليم التى أشاعها آباء الكنيسة أو المسيحية الأول من فساد الحياة الدنيا وضرورة الزهد فيها . واعتبر الوثنيون اعتزال المسيحيين للشئون الدنيوية هروب من الواجبات المدنية وإضعاف للروح القومية . ولذلك اعتبرت السلطات الرومانية المسيحيين خارجين عن النظام العام للمجتمع وعن الحياة الرومانية وتقاليدها وأنهم أمسوا يشكلون خطرًا عليها ولهذا



وقفت منهم موقفاً معادياً .

٣ - أثار تجمع المسيحيين وخلواتهم الشك في نفوس السلطات الحاكمة التي اعتبرتهم جمعيات سرية تدعو ضد الإمبراطور الروماني وتشكل خطراً على أمن الدولة وسلامتها . فقد عاش المسيحيون في شكل جماعات صغيرة وكبيرة لكل منها رئيس يختلف لقبه بحسب كبر الجماعة أو صغرها فالجماعات الصغيرة رئيسها ( راعي Shepherd ) والجماعة الكبيرة رئيسها ( أسقف Bishop ) ، وكلاهما يشرف على شئون جماعته ؛ وله سلطان أوسع من سلطان الإمبراطور، وليس لأحد عليه نفوذ سوى الكتاب المقدس وطاعة الله .

٤ - رفض المسيحيون في بادئ الأمر الاشتراك في الخدمة العسكرية للدفاع عن الإمبراطورية واعتبروا أنهم بأدائهم العمل العسكري إنما ينخرطون في العبادة الوثنية . هذا فضلاً عن أن انتشار المسيحية بين الجند يؤدي إلى القضاء على ولاء الجيش للإمبراطور، وبالتالي لا يعد للرومان هيبة .

٥ - رفض أغنياء المسيحيين وأثريائهم تولى المناصب العامة في الدولة، فاعتبر ذلك تهرباً من تحمل مسؤوليات المجتمع، وجعل ذلك الأباطرة الرومان ينظرون إليهم بعين ملؤها الشك والريبة .

٦ - طالب المسيحيون بالمساواة بين سائر الطبقات الاجتماعية في المعاملة، خاصة فيما يتعلق بتحسين أحوال العبيد والنساء، ولذلك اعتبرت السلطات الرومانية المسيحية ثورة اجتماعية تعمل على هدم الدعائم التي قام عليها المجتمع في ذلك الوقت .

٧ - تحريض اليهود الدائم ضد المسيحية، خاصة أن شطراً كبيراً من اليهود كان ذا ثقافة إغريقية يونانية رفيعة، خاصة يهود الإسكندرية الذين كرهوا المسيحية، واعتبروها أكبر عدو للوثنية الإغريقية ذات الأصول الفلسفية المرتبطة بالثقافة الإغريقية.

يتضح من هذه الأسباب أن الأباطرة الرومان والسلطات الرومانية لم تقف موقفاً معادياً من المسيحية ذاتها بل من سلوك المسيحيين أنفسهم، ولذلك اعتبرت اعتناق تلك الديانة جرماً في حق الدولة، وبدأت تتظر إلى المسيحيين على أنهم منشقين مبتدعين لديانة جديدة غير مرغوب فيها . ولذلك حرمت اجتماعات المسيحيين، وأخذت تنظم حملات الاضطهاد ضدهم . هذا ولم يقم بموجة الاضطهاد هذه الأباطرة الطغاة والمتعسفين أمثال نيرون ( ٥٤ - ٦٩ م ) بل قام بها أيضاً أباطرة خيرين مصلحين أمثال تراجان وهادريان وأنطونيوس بيوس وماركوس أوريليوس .

أما عن اضطهاد نيرون فقد حدث عام ٦٤م أى في العام العاشر من حكمه، ففي هذا العام حل بروما حريق كبير، قضى على ما فيها من معابد وقصور وتمثاليل، ولم يسلم من السنة النيران سوى أربعة أحياء من أحياء المدينة الأربعة عشر، واتجهت أصابع الاتهام نحو نيرون خاصة بعد أن قام بذبح أخيه وأمه وزوجته اوكتافيا واستأذه سينيكا، ولكن لكى يبرأ الإمبراطور نفسه، اتهم المسيحيين بهذه الفعلية، وراح ينزل بهم أشد وأنكى أنواع الاضطهاد. وزج بالمئات منهم فى السجون لمحاكمتهم بتهمة الخيانة والائتان بأفعال تتنافى مع السياسة العامة للدولة، وإثارة الاضطرابات فى أنحاء الإمبراطورية، ونال المسيحيون مختلف صنوف العذاب. وقد استشهد فى هذا الاضطهاد فى روما بولس وبطرس تلميذا السيد المسيح.

وحدث اضطهاد تراجان (٩٧-١١٧م) الذى تولى عرش الإمبراطورية فى عام ٩٨م، فى العام الثامن من حكمه أى فى عام ( ١٠٦ م )، فقد نظر هذا الإمبراطور إلى المسيحيين على أنهم شيعة يهودية خطيرة، ونظراً لأن اليهود اشعلوا العديد من الثورات ضد الإمبراطورية الرومانية، واعملوا فيها تخريباً وتدميراً، لذلك اضطهد تراجان المسيحيين مع اليهود لظنه أنهم منهم، ونتيجة لذلك تعرض المسيحيون فى الإسكندرية ومصر لاضطهاد عنيف .



واضطهد هادريان (١١٧-١٣٨م) المسيحيين فى عام ١١٧م، حينما قام بزيارة لمدينة الإسكندرية، وأخذ يتجول فى أنحائها، وحمل على المسيحيين فيها، فقتل منهم خلقا كثيرين، حتى خيل للناظر أنه أفناهم جميعاً، وأصدر أمراً بتعميم عبادة الأوثان، وإرغام المسيحيين بشكل خاص على السجود لها .

أما عن اضطهاد ماركوس أوريليوس ( ١٦١ - ١٨٠ م ) اتبع ماركوس أوريليوس فى بداية عهده أى عام ١٦١م سياسة التسامح تجاه المسيحيين، حتى أنه شبه فى نظر البعض بالسيد المسيح فى أخلاقياته وحبه للخير والسلام، وعلى الرغم من أنه لم يكن مسيحياً إلا أنه قرأ كل ما كتب عن السيد المسيح وأتباعه وحوارييه، كما تعرف على معالم المسيحية لدرجة دفعت البعض إلى التشكك فى وثنيته. وقد دفع ذلك المسيحيون إلى أن يستبشروا خيراً، ويأملوا فى مرحلة جديدة من التسامح والاستقرار الدينى خلال حكم هذا الإمبراطور.

ولكن هناك من المؤرخين من يذكر أنه انتشرت فى عهد هذا الإمبراطور الأوبئة والمجاعات نتيجة الفيضانات فأرجع سبب ذلك إلى الدين الجديد ( أى المسيحية ) وأقدم على اضطهاد المسيحيين، وأمر بقتل آباء الكنيسة باعتبارهم رأس الأفعى .

### اضطهاد سبتموس سفيروس فى مصر (١٩٣-٢١١م)

وكان أول حادث هام فى تاريخ كنيسة الإسكندرية هو اضطهاد سبتموس سفيروس ( ١٩٣ - ٢١١ م )، وهو أول اضطهاد رسمى تقوم به الإمبراطورية الرومانية ضد المسيحيين فى مصر بصفة خاصة . وتتأخص حوادث هذا الاضطهاد فى أن سفيروس قام بزيارة لمصر فى عام ٢٠٢م وأثناء هذه الزيارة هاله وأفزعته ما أحرزته المسيحية من انتشار سريع، وخشى من كثرة عدد المسيحيين فى مصر على الإمبراطورية الرومانية لذلك عهد سفيروس إلى والى مصر الرومانى وكان يدعى ليتوس بأن يحو آثار ذلك الدين، وبذل الوالى

الرومانى جهده لكى يجعل هذا الاضطهاد قاسياً، وركز على الاسكندرية بنوع خاص باعتبارها مركز المسيحية وذلك طبقاً لرغبة الامبراطور .

واستمر هذا الاضطهاد طول مدة بقاء سفيروس فى مصر ولم يتوقف الا بعد مغادرته لها، وقد أقام بمصر سبع سنوات، حدث خلالها الاضطهاد .

واغلقت المدرسة اللاهوتية المسيحية أبوابها نتيجة لهذا الاضطهاد، وتشتت شمل طلابها، ولازموا بيوتهم، كما فر أساتذتها الى الخارج نجاة بانفسهم، وكان على رأس هؤلاء فى ذلك الحين العلامة اوريجين السكندرى خاصة بعد ان توفى والده؛ كذلك حرم المسيحيون من الامتياز الذى تمتع به اليهود فى الاسكندرية وهو إعفاءهم من احراق البخور أمام تمثال الامبراطور فى المناسبات . وضاعف الوالى الرومانى ليتوس الاضطهاد للشعب، وهاجمت حملة من الجنود الرومان البطريركية، ونهبوا أمتعتها وسلبوا الأوانى الفضية والذهبية وكل ما فيها من غال ونفيس، وقبض على البطريرك نفسه ونفى إلى اوسيم (بالجيزة) وظل بها حتى خفت حدة الاضطهاد .

وتعرض المسيحيون لصنوف شتى من العذاب، فكانوا يصلبون أو تقطع رؤسهم، أو يحرقون بالنار أحياء، أو يلقون فى السجون، ويظلون بها حتى تفكك بهم الامراض، أو يرسلون للأسود والحيوانات المفترسة ويقال انه فى هذا الاضطهاد كانت النساء تعذبن عذاباً اليماً . أما الرجال فتقطع رؤسهم، ورغم ذلك واجه المصريون الاضطهاد بثبات واصرار و عناد .

وقد ركز سفيروس هذا الاضطهاد على مصر بالذات لمعرفة بثراء مصر وثروة أهلها من القبط، وكثرة علومهم و معارفهم، فضلاً عن انهم اذا اتحدوا فسوف يمكنهم الوقوف فى وجه الرومان، خاصة وأن المسيحية بدأت تجمع شملهم وتؤلف كلمتهم .

ولم يؤت هذا الاضطهاد بالثمار المرجوة منه بل على العكس زاد



المسيحيين ايماناً بدينهم واصراراً وعناداً على التمسك به، كذلك لم يزد المسيحية الا انتشاراً . وبذلك ذهبت جهود الامبراطور للقضاء على المسيحية أدراج الرياح، وليس أدل على ذلك من ان عدد اساقفة الاسكندرية ارتفع من ثلاثة الى عشرين أسقفاً في نهاية حكم سفيروس وعند نهاية حكم البطريك ديمتريوس (١٨٨-٢٣٠م).

وفي عهد الامبراطور دكيوس (٢٤٩ - ٢٥١م) جرت عدة محاولات للقضاء على المسيحيين. فقد حكم الإمبراطورية قبل دكيوس الإمبراطور فيليب العربى وكانت زوجته مسيحية، وساد اعتقاد بأن فيليب كان أول إمبراطور اعتنق المسيحية وآمن بها، وهنا المسيحيون فى عهده، وأن كان البعض يتشكك فى ذلك، لذلك شن دكيوس حرباً لا هوادة فيها على المسيحيين اكليروسا و شعبا، وأصدر فى عام ٢٥٠م مرسوماً عرف باسم "مرسوم التحريم" حرم فيه دكيوس (القول بالنصرانية) وكان هذا المرسوم يحتم على المواطنين حمل شهادة تتضمن الاشارة الى أن حاملها قام بتقديم القرابين والاضاحى للالهة الوثنية، وسكب الزيت أمامها، وتذوق طعم الذبيحة كنوع من الولاة للإمبراطور، وهذا يعنى أنه غير مسيحي لأن المسيحيين رفضوا تقديم القرابين، ولتففيذ هذا القرار خصص فى كل مدينة من مدن الامبراطورية لجنة تتكون من خمسة أفراد، وتصدر هذه اللجنة أوامرها الى أى فرد - مشكوك فيه وفى أمر عقيدته - بأن يقدم الاضاحى للالهة و من بينها الامبراطور بطبيعة الحال وعندما يتم ذلك على نحو ترتضيه اللجنة تعطيه الشهادة أو البراءة من أى اتهام.

أما اذا تمسك المسيحي بعقيدته ورفض ما أمر به توجه اليه التهمة، ويقبض عليه ويلقى به فى السجن ويترك بدون طعام أو شراب لارغامه على الارتداد عن عقيدته . وفى بعض الاحيان كان عقاب من يرفض تقديم الذبيحة أن يكون هو الذبيحة التى تقدم للأوثان . ونتيجة لذلك اضطر بعض المسيحيين

لتقديم القرابين والاضاحى، فى حين حصل بعضهم على تلك الشهادات<sup>(\*)</sup> عن طريق الرشوة . وأطلق على هؤلاء حملة (البراءات المزورة) أما الغالبية العظمى من المسيحيين فقد تحملوا الاضطهاد والتعذيب والضرب بالعصى والرجم بالحجارة والاحراق بالنار، حتى استشهد الكثيرون منهم فى سبيل عقيدتهم، ولجأ بعضهم الى الهرب والاختفاء فى الصحراء، ويقول ديونيسيوس أسقف الاسكندرية فى وصف اضطهاد دكيوس هذا: "وهل هناك حاجة الى ذكر جماعات أولئك الذين ضربوا فى الصحارى والجبال، وهلكوا من الجوع والعطش والامراض أو بفعل اللصوص والوحوش الضارية".

وكان اضطهاد دكيوس اضطهادا عاما اذا أستشهد فيه أسقف روما وأسقف اورشليم وأسقف أنطاكية وأسقف الاسكندرية كما شمل الامبراطورية بأسرها، هذا فى حين كان الاضطهاد يتسم فيما سبق بالطابع المحلى . على أية حال أنهى اضطهاد دكيوس فى عام ٢٥١م بنتائج عكسية اذا ساعد على انتشار المسيحية فبطولة الشهداء جذبت عددا كبيرا من الوثنيين الى هذا الدين حتى يذهب البعض الى القول بأن "دماء المسيحيين تعتبر البذور التى نبتت ونشأت منها المسيحية " وكذلك عمل من هرب من المسيحيين الى الصحراء والجهات النائية على نشر المسيحية فى تلك الاماكن .

مراسيم التسامح :

مرسوم التسامح الاول ٢٦١م :

وما لبثت المسيحية أن نعمت بفترة من الهدوء والسلام بعد ما عانته من اضطهادات، ودامت فترة الهدوء هذه أربعين عاما، اذا أصدر الامبراطور

---

(\*) الشهادة او البراءة تتضمن أسم صاحبها وأسم والده، والمكان الذى ولد فيه، وتوقيع كاتبها؛ والشهادات أم فردية يصدق عليها مندوب واحد، أو جماعه يصدق عليها اثنان من المندوبين أو اكثر .



جاللينوس (٢٥٣ - ٢٦٨م) قرارا في عام ٢٦١م بالتسامح مع أصحاب الديانات المختلفة بما فيهم المسيحيين. ومن الأسباب التي دفعته الى ذلك الأخطار الخارجية التي كانت تهدد الامبراطورية في عهده، ومنها هجوم القوط على الحصون الدفاعية على طول الراين والدانوب، وتعرض بلاد الغال واسبانيا لهجمات الجرمان وخاصة الفرنجة، كذلك تعرضت مناطق البلقان واسيا الصغرى وسواحل بحر ايجه لهجماتهم. اما في الشرق، فقد تعرضت حدود الامبراطورية لهجمات الفرس بقيادة شابور الاول الذي شن هجماته على بلاد ما بين النهرين و بلاد الشام وقبادوقيا الى جانب مشاكل الامبراطورية الخاصة ممثلة في انتشار قطاع الطرق في الاحراش والصحاري لقطع الطريق على القوافل، وتعرض الامبراطورية لزلازل وبراكين كما حدث في أسيا الصغرى وايطاليا وانتشار الاوبئة الفتاكة ببعض اقاليمها ومنها مصر التي ظهر فيها الوباء وانتشر منها الى باقى ارجاء الامبراطورية. وقد ترتب على تلك الكوارث انهيار الاقتصاد الامبراطورى. واعترف في هذا المرسوم بأن المسيحية مسموح بها، وسمح للمسيحيين بممارسة شعائهم مع عدم تعرض الوثنيين لأماكن عبادتهم، وأمر كذلك بأن يرد للمسيحيين ما كان قد صودر من أملاكهم .

ونتيجة لذلك دخل عدد كبير من الأغنياء في المسيحية، وشيدت الكنائس الضخمة في كثير من المدن ؛ وهناك قائمة رسمية ترجع الى عام ٣٠٠م تشير الى وجود كنيستين في أهناسيا (بنى سويف). هذا وتولى أثرياء المسيحيين بعض الوظائف العامة، بل أصبحوا حكاما للولايات، واحتل عدد منهم المناصب العليا في البلاط الامبراطورى . كما أتاحت فترة السلام والهدوء هذه للكنيسة أن تستكمل بناءها وتنظيمها الداخلى.

وهكذا أقدم الامبراطور جاللينوس على خطوه جريئة لم يسبقه اليها إمبراطور، وسبق بها ما صدر فيما بعد من مراسيم للتسامح فى عام ٣١١ م على يد جاليريوس . وفى عام ٣١٣ م على عهد قسطنطين و ليكنيوس.

## الاضطهاد زمن دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م)

وبعد فترة التسامح والهدوء والسلام التي نعمت بها المسيحية و التي استمرت أربعين عاما، شهد العالم المسيحي أكبر موجة من موجات الاضطهاد والتي تعرضت لها المسيحية من قبل وذلك في عصر الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) .

يختلف المؤرخون حول تحديد أسباب هذا الاضطهاد الذي شهده عصر دقلديانوس فيرى أحد المعاصرين أن سبب الاضطهاد إنما يرجع الى النزاع العقائدي الذي نشأ بين الفرق المسيحية المختلفة، على أن هذا لا يبدو معقولا لأن الاختلاف حول مشاكل العقيدة لا يهم الدولة في شي وبالتالي لا يمكن أن يكون بأي حال من الاحوال سببا في الاضطهاد .

ويسوق لنا مؤرخ معاصر آخر حادثة طريفة يعتبرها شرارة البدء في هذا الاضطهاد، فيذكر أن الامبراطور أراد استطلاع الغيب والكشف عما يخبئه القدر للامبراطورية، وذلك أثناء قيامه مع قيصره جاليريوس بتقديم الأضاحي للآلهة، وتصادف في ذلك الحين وجود عدد من المسيحيين من موظفي البلاط أثناء الاحتفال . غير أن العرافين عجزوا عن التنبؤ بشئ فأعادوا الكره ثانية دون جدوى، وأخيرا ذكروا أن ذلك إنما يرجع الى وجود أفراد ملحدين مدنسين في الاحتفال. وعندئذ جن جنون دقلديانوس -كما يذكر ذلك المؤرخ- وأمر بأن يقدم كل من يقيم في القصر -وليس الموجودين في الاحتفال فحسب- القرابين للالهه وأن يجلد كل من يرفض عمل ذلك ولم يكتف الامبراطور بذلك، بل أصدر أوامره الى قادة الجيش بأن يتأكدوا من تنفيذ الجنود جميعا لهذه التعليمات وإلا تعرضوا للطرده من الخدمة نهائيا، وتم ذلك تحت ضغط وإلحاح من جانب جاليريوس .

ويرى بعض المؤرخين المحدثين أن السبب الذي دفع دقلديانوس الى



اضطهاد المسيحيين هو اكتشافه مؤامرة دبرها بعض المسيحيين ترمى الى قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة . على انهم لا يذكرون دوافع المسيحيين لتدبير هذه المؤامرة، وهو الذى أبدا لهم من التسامح الكثير خلال فترة طويلة من عهده . ويرى فريق آخر أن عددا ليس بالقليل من أفراد الجيش كان قد أعتق المسيحية، وامتنع بذلك عن ممارسة الطقوس الوثنية وخاصة تقديم الاضاحى وإحراق البخور أمام تمثال الإمبراطور، وكان هذا الأجراء يدل على الولاء للإمبراطور رأس الدولة . ولهذا أدرك دقلديانوس أن هذه العقيدة سوف تعصف بولاء الجنود لشخصه، وهذا أخشى ما كان يخشاه الامبراطور .

هذا فى حين يرى فريق ثالث أن عددا من موظفى القصر والخدم من المسيحيين كانوا يخشون عاقبة ما سيحدث لهم عندما يخلف جاليريوس الامبراطور دقلديانوس على العرش، وذلك لما يعرفونه عنه من عداة للمسيحية والمسيحيين، فسعوا جاهدين لدى دقلديانوس ليبعد جاليريوس عن طريق خلافة العرش، وتعيين من يميل الى المسيحية والمسيحيين، وأثار ذلك ارتياب جاليريوس فيهم، وكان على علم بما يحمله له المسيحيون من حقد دفين، ولذلك عقد جاليريوس اجتماعات سرية مع الامبراطور أقنعه من خلالها بأن المسيحيين يتآمرون عليه .

ومن ثم حاول البعض إبعاد التهمة عن دقلديانوس وإصاقها بقيصره جاليريوس الذى كان الد أعداء المسيحية وقد تأثر جاليريوس بأمه التى كانت تهوى آلهة الجبال وتضحى لها باستمرار، وحدث ذات مرة أنها لم تجد أحدا من أفراد أسرتها يشترك معها، لأنهم دخلوا المسيحية جميعا لذلك تسلطت عليها رغبة جامحة للخلاص من المسيحيين، وأوحت الى أبنها جاليريوس بذلك . وتعرض دقلديانوس لضغط وإحاح من جانب جاليريوس بضرورة استئصال شأفة المسيحيين، ونظرا لأن دقلديانوس كان يخشى جاليريوس، ويقيم له اعتبارا

منذ انتصاره على الفرس فان دقلديانوس أقدم على اضطهاد المسيحيين لارضائه. ولكن هل يعقل أن رجلا مثل دقلديانوس قام بحركة إصلاح واسعة النطاق أنقذ بها الامبراطور من الانهيار، رجل تمتع بمقدرة اداريه فائقة، هل يعقل أن يستسلم ببساطه لإلحاح أحد اتباعه ويقدم على اتخاذ خطوات غاية فى الخطورة لا لشيء سوى لأن قيصره أراد ذلك ؟

أما عن الاضطهاد فقد تضمن اربعة مراسيم، يقضى المرسوم الاول بتدمير الكنائس المسيحية، واحراق الاناجيل والكتب المقدسة، ومصادرة املاك الكنائس، وحرمان المسيحيين الاشراف من التمتع بامتيازات هذه الطبقة التى ينتمون اليها، هذا فضلا عن انه اعتبر المسيحيين جميعا خارجيين عن القانون وحرهم بذلك من حق الدفاع عن حقوقهم امام المحاكم. اما المرسوم الثانى والثالث فينصان على القبض على كفة رجال الاكليروس بمختلف طبقاتهم، وعدم الافراج عنهم الا بعد أن يقدموا القرابين والأضحيات للآلهة وقد صدرت هذه المراسيم الثلاثة فى عام ٣٠٣م. اما المرسوم الرابع فيلزم كل فرد فى الدولة بتقديم الاضحيات للآلهة وبتعذيب كل من يتمسك بالمسيحية، واطلاق سراح من يكرم الآلهة وصدر هذا المرسوم فى عام ٣٠٤م.

وعندما أذيع المرسوم الأول بتدمير الكنائس ثار أحد المسيحيين وهو شاب يدعى مارجرس الكبادوكى على هذا المرسوم، فقبض عليه الحرس، وأشعلوا فيه النيران، ويقال أنهم قاموا باحراق جسده عضوا عضوا حتى الموت.

ومما زاد الأمر سوء اشتعال النيران مرتين على مدى أسبوعين فى القصر الامبراطورى فى نيقوميديا بفعل حريق غامض وبطبيعة الحال وجهت أصابع الاتهام نحو المسيحيين، خاصة وأن فكرة إشعال الحريق ارتبطت بالمسيحية منذ ظهورها. وبعد الحريق الثانى للقصر الإمبراطورى ألقى القبض على عدد كبير من المسيحيين وعذبوا حتى يعترفوا بارتكاب جريمة الحرق



العمد، كذلك صدر المرسوم الثانى الذى يقضى بالقبض على القساوسة والكهنة وجميع رجال الدين. ويعزو البعض تدبير حادثى الحريق إلى جاليريوس نفسه قائلا : "أزه أفتعلهما لإثارة دقلديانوس ضد المسيحية".

وما لبث الاضطهاد أن أصبح عاما وشاملا، فسيق القسس والموظفين وعائلاتهم من المسيحيين الى الحريق أو القتل زمرا، وامتألت السجون بأعداد كبيرة من المسيحيين. ويفصل المعاصرون لعمليات الاضطهاد هذه التى شهدها عهد دقلديانوس لدرجة أنهم يفردوا له فصولا بأكملها فى كتبهم .

### اضطهاد دقلديانوس فى مصر

يجب أن نذكر فى البداية أن دقلديانوس بدأ حكمه بسياسة من اللين تجاه أهل مصر وبخاصة مدينة الإسكندرية، فقد قام بتحصين بوابة مصر الجنوبية فى أسوان، لحماية أهل الصعيد من هجمات أهل النوبة.

كما قام دقلديانوس بتوزيع قدر من محصول القمح المصرى، الذى كان يشحن إلى روما، على أهالى الإسكندرية عندما أصيبت المدينة بالمجاعة، وقد قابل السكندريون هذه اللفتة الإمبراطورية الكريمة، بإقامة عمود من الجرانيت، وتمثال لدقلديانوس، ولا يزال هذا العمود قائما حتى اليوم ولكن التمثال قد زال.

لابد من القاء نظرة سريعة على اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين فى مصر بصفة خاصة والذي ترجع أسبابه إلى ثورة اخيلوس وزعيمها الحقيقى لوكيوس دومينوس، المكنى باسم اخيلوس. ذكر البعض أنه رومانى، وكان من طبقة السناتو، وقيل أنه كان من كبار تجار الاسكندرية، وقيل أنه كان أحد ضباط الفيلق الرومانى بالإسكندرية، وقرر الكفاح من أجل مصر المستقلة. بدأت الثورة فى طيبة، وامتدت شرارتها حتى وصلت إلى الاسكندرية. أما عن أسبابها فكانت الإصلاح الإدارى الذى حدث فى الاسكندرية عام ٢٩٧م، وكذلك إلغاء العملة الوطنية، الاستياء العام من الإصلاح النقدى، علاوة على أسباب اقتصادية منها

الركود الاقتصادي و غلاء الأسعار وسياسة الضرائب وغيرها.

ونجح أخيلْيوس بهذه الثورة في الاستقلال بمصر، ونادى بنفسه حاكماً عليها، واتخذ من طيبة عاصمة له ومقراً، وأقام فيها أربع سنوات، لم يستطع جاليريوس خلالها أن يخضعه، فجاء دقلديانوس بنفسه إلى مصر ليقتص من أخيلْيوس على هذه الجراًة، ويخلص البلاد من يده. وفر أخيلْيوس بعد أن حاصر دقلديانوس الاسكندرية على مدى ثمانية أشهر، أصيبت المدينة خلالها بالخراب وكسدت بها حركة التجارة بشكل ملحوظ، وبعد أن قضى على الثورة في كل أنحاء مصر قام بقطع إمدادات المياه عن الاسكندرية مما أصابها بالمجاعة، وأجبر أهلها على التسليم. وتصور دقلديانوس أن المسيحيين أثاروا هذه الفتنة وناصروا أخيلْيوس لذلك راح يضطهدهم، وقام بمصادرة ممتلكات عدد من أهل الاسكندرية ظناً منه أنهم كانوا عوناً لأخيلْيوس.

وقد ارجع البعض سبب الأضطهاد إلى محاولة دقلديانوس إجبار الكنيسة على الخضوع للدولة شأنها في ذلك شأن بقية الهيئات والمنظمات الاجتماعية في الدولة الرومانية، أما كون الكنيسة هيئة مستقلة فأنها تصبح دولة داخل الدولة، وهذا أمر يتعارض مع مبدأ خضوع جميع الرعايا لسيادة الدولة المطلقة. ولهذا السبب راح دقلديانوس يفتك بالمسيحيين وواقع بهم وقتلهم وهدم كنائسهم، واستعمل معهم مختلف اساليب الظلم والجور، وعاث جنوده في الأرض فساداً، وأهلكوا الحرث والنسل، وقتلوا ونهبوا وأراقوا الدماء أنهاراً. واستمر دقلديانوس يعذب المسيحيين بل وأرغمهم على السجود للأوثان مما دفع الكثيرين إلى الفرار .

وقد وصف يوسابيوس ذلك الاضطهاد بقوله : " أنه يصعب على الكاتب الماهر ان يصف ما تجرعه الشهداء في صعيد مصر من عذاب قاس وآلام تشيب لها النواصي، فقد كانوا يأتون بهولاء الشهداء ويمزقون أجسادهم



وينزعون عنها الجلد إلى أن ينكشف اللحم، وهكذا يفعلون بباقي أجزاء الجسم إلى أن يموتوا . " وذكر البعض أن عدد من قتلهم دقلديانوس من المسيحيين بلغ حوالي ثمانمائة الف شهيد، ومن بين الشهداء القديسة دميانة والعدارى الأربعين فى الدلتا، والقديسة كاترين فى الإسكندرية وعدد من أساقفة الإسكندرية .

أما عن نتائج هذا الاضطهاد فيمكن ان نوجزها فيما يلى:

١- استشهد عدد كبير من المسيحيين خاصة فى مصر نتيجة لهذا الاضطهاد، لذلك اعتبرت الكنيسة القبطية عصر دقلديانوس "عصر الشهداء" ولا زالت تؤرخ الأحداث بعصره، كما اعتبرت عام ٢٨٤ م الذى تولى فيه العرش بداية للتقويم القبطى.

٢- ازداد المسيحيون تمسكا بدينهم وعقيدتهم، كما ازدادت المسيحية انتشارا، فقد جذبت سير أولئك القسس والقديسين الشهداء وبطولتهم عدد كبير من الوثنيين، ودفعتهم الى الدخول فى الديانة المسيحية واعتناقها.

٣- انتشار المسيحية فى المناطق النائية عن طريق أولئك المسيحيين الذين تعرضوا للنفى خارج الاسكندرية عقابا لهم على اعتناقهم المسيحية، فقام هؤلاء بنشر الدين الجديد فى تلك المناطق التى نفوا إليها.

على هذا النحو أتى الاضطهاد بنتائج عكسية اذ ساعد على انتشار المسيحية انتشار واسع النطاق وخاصة فى مدن مصر وقرائها.

سياسة جاليريوس تجاه المسيحيين ومرسوم التسامح الثانى ٣١١م

أما عن سياسة جاليريوس تجاه المسيحيين، فمن المعروف أنه كان يكن للمسيحية والمسيحيين عداوا كبيرا منذ أن كان قيصرًا فى عهد الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م)، وأنه كان المحرك الاول لعمليات الاضطهاد التى حدثت فى عصره . هذا ويبالغ البعض فى اتهامه بأنه هو الذى دبر حريق قصر

نيقوميديا ليثير كراهية دقلديانوس نحو المسيحيين. وعندما اعتلى جاليريوس العرش تمادى فى عدائه للمسيحيين، وصب جام غضبه عليهم فى كافة أنحاء الامبراطورية ومن بينها مصر فأصدر فى عام ٣٠٦ م أمرا يقضى بالزام جميع الافراد بتقديم القرابين، وأمر بقتل كل من يرفض تقديم الاضاحى للآلهة الوثنية ويتخلى عن عقيدته الجديدة بما فى ذلك النساء والشيوخ والاطفال. كذلك راح جاليريوس يتفنن فى وسائل تعذيب المسيحيين ابتداء من التشويه والتمثيل بهم الى الاعمال الشاقة فى المناجم والمحاجر.

على أن جاليريوس ما لبث أن غير سياسته تجاه المسيحيين اذ اصدر فى ابريل عام ٣١١ م مرسوم التسامح الدينى، جاء فيه: ٠٠٠. ونحن نأذن لهم بالمجاهرة بمعتقداتهم الخاصة، وبان يمارسون طقوسهم الدينية فى جمعياتهم دون خوف، ونحميهم من أن يتعرضوا للأذى، طالما انهم يظهرون الاهتمام الواجب للقانون والحكومة. ٠٠٠. ونأمل بقرارنا هذا بالعفو والتسامح للمسيحيين سوف يدعوهم الى الابتهاال للمعبود الذى يقدسونه لكى يمن على شخصنا بالسلامة وعليهم وعلى الامبراطورية جميعا بالسعادة والرخاء.

ومن الجدير بالذكر أن هذا المرسوم صدر باسم كل من جاليريوس وليكينوس وقسطنطين ولم يشترك ماكسيميانوس فى اصداره وذلك لأنه كان يحكم القسم الغربى من الامبراطورية، وهو القسم الذى سادته الوثنية على أوسع نطاق وبه روما قلعة الوثنية.

وهكذا سمح جاليريوس بمرسومه للمسيحيين أن يجهروا بمعتقداتهم الخاصة ويمارسوا شعائهم الدينية دون خوف وفتح كنائسهم فى جميع أنحاء الامبراطورية، واصلاح ما تهدم منها بشرط أن لا يقوموا بأى عمل ضد القانون أو ضد الحكومة أو ضد النظام العام، وبشرط اخر هو أن يذكروا اسم الإمبراطور فى صلواتهم بالخير ويدعون له وللإمبراطورية بالرخاء والسعادة



والسلام، واصدار عفو شامل عن جميع المسيحيين واخراجهم من السجون. ومن ثم يعد هذا المرسوم اعترافا صريحا من جانب جاليريوس بما أقدم عليه من تحديات للمسيحيين، كما أنه يعتبر في نفس الوقت دليلا واضحا على فشل سياسة الاضطهاد، التي سار عليها جاليريوس خاصة وان هذه السياسة استمرت عدة سنوات دون جدوى، كما أنها أدت إلى تعطيل مصادر الدخل في مجال الزراعة والصناعة والتجارة، وتدهور الحياة الاجتماعية، وانتشار المجاعات بين الطبقات الدنيا، هذا إلى جانب إضعاف الجيش مما جعل جاليريوس يدرك خطورة هذه السياسة على الامبراطورية خاصة وانه ركز ضرباته ضد الجنود المسيحيين في الجيش.

اما عن الدافع الذي حدا بجاليريوس الى اصدار هذا المرسوم، فيذكر المعاصرون أن جاليريوس دهمه مرض عضال، فأعتقد أن اله المسيحيين قد انتقم منه بهذا الداء. وفي اثناء مرضه ادرك عدوم جدوى الاضطهاد، فقرر وقف المذابح البشرية ضد المسيحيين، واصدر قراره بالتسامح في عام ٣١١م. غير أن هذا المرسوم لم ينفذ تماما في كل انحاء الامبراطورية اذ توفي جاليريوس بعد اصداره بوقت قليل وفي مايو من نفس العام.

**المرسوم الثالث للتسامح المعروف خطأ باسم :-**

**مرسوم ميلان والاعتراف بالمسيحية (٣١٣م) :**

وسرعان ما نالت المسيحية قسما كبيرا من التأييد والانتشار، وذلك بعد اصدار المرسوم الذي عرف خطأ بمرسوم ميلان في عام ٣١٣م، اذ أثبتت الدراسات التاريخية ان تسمية هذا المرسوم الذي اصدره كل من قسطنطين وليكينوس والذي عرف بأسم "مرسوم ميلان" تسمية غير صحيحة وانه عبارة عن رسالة بعث بها ليكينوس الى حاكم نيقوميديا في آسيا الصغرى يوضح فيها سياسة الحكومة تجاه المسيحيين في تلك الانحاء، وهي عبارة عن تأكيد سياسة التسامح.

ويذكر بعض المؤرخين ان ما سمي بمرسوم ميلان لم يكن شيئاً جديداً، انما هو تجديد لمرسوم التسامح الذى سبق ان اصدره جاليريوس فى عام ٣١١م. على أية حال اصبحت المسيحية بمقتضى مرسوم ٣١٣م ديانة مرخص ومصرح بها داخل الامبراطورية الرومانية، ولم يعد اتباعها مهتدين بالقتل أو التعذيب او الحرق. وتمتع المسيحيون بمقتضى هذا المرسوم بممارسة شعائرهم الدينية فى حرية تامة، وفى اختيار المسيحية ديناً لهم دون عقاب، كذلك استعاد المسيحيون بمقتضى هذا المرسوم ممتلكاتهم، التى فقدوها اثناء فترة الاضطهاد وذلك دون طلب تعويض او دفع أى شئ، كذلك تم اعفاء رجال الدين المسيحي وفقاً لهذا المرسوم من الالتزامات الاجبارية مع الاعتراف بالكنيسة وممتلكاتها. ومن ثم يعد هذا المرسوم اعترافاً حكومياً، غدت المسيحية بمقتضاه على قدم المساواة مع الديانات الاخرى داخل الامبراطورية، ووضحت ديناً شرعياً بعد ثلاثة قرون من الاضطهاد، وساد الكنيسة سلاماً ظالمًا تاقت اليه.

اختلف الباحثون حول (الدوافع) التى ادت الى اصدار هذا المرسوم، فمنهم من يعتبرها دوافع دينية، ومنهم من ارجعه الى اسباب سياسية.

اما عن الدوافع الدينية فيروى لنا المؤرخ الكنسى يوسيبوس القيصرى وصديق الامبراطور قسطنطين أن قسطنطين قص عليه انه رأى فى سنة ٣١٢م قبيل خوضه معركة جسر ملفيان ضد خصمه ماكسنطيوس صليباً نورانياً على قرص الشمس يحيط بالأفق عند الغروب، مكتوباً عليه بهذا ستتصر En hoc vinces، وفى الليلة التالية واثنا نوم قسطنطين شاهد فى رؤياه السيد المسيح حاملاً معه نفس الشارة، ومخبراً الامبراطور بأن يتقدم الى المعركة ومعه الصليب. ويقال ان قسطنطين استطاع أن ينتصر بالفعل فى معركة جسر ملفيان، التى اتاحت له السيادة على الغرب بفضل هذه الشارة، ولذلك اعتقد قسطنطين بأن الهه المسيحيين كان عوناً له فى قتاله مع خصمه.



ويقال أيضا أن قسطنطين تأثر بأمه القديسة هيلانة التي اعتنقت المسيحية وزارت بيت المقدس، حيث وزعت الهبات بسخاء، وساهمت في تشييد الكنائس. ويقال أيضا انها اكتشفت صليب الصلبوت، الذي يقال أن السيد المسيح صلب عليه أثناء زيارتها لبيت المقدس، وعادت به إلى بلادها. غير أن المعاصرين لم يذكروا شيئا عن دور هيلانة في مسألة العثور على خشبة الصليب، كما يرجح بعض الباحثين انها توفيت قبل اكتشافه، على أي حال كان لهذا الخبر تأثير كبير على المسيحيين، ومن ثم رفعتها كنيسة الروم الارثوذكس إلى مصاف القديسات وأصبحت تسمى باسم القديسة هيلانة.

أما عن الدوافع السياسية فيرى البعض أن قسطنطين وجد أن الامبراطورية سوف تعتمد بشكل رئيسي في مواردها المالية على ولاياتها في اسيا الصغرى والشام ومصر حيث انتشرت المسيحية، ولذلك رأى قسطنطين أن من الضروري كسب ولاء سكان الولايات الشرقية حفاظا على وحدة الامبراطورية.

كذلك شعر قسطنطين بالخطر الذي يهدد الامبراطورية نتيجة للانقسام الذي شهدته وأحس أنه يمكن توحيدها عن طريق الدين، وذلك في حالة اذا ما اعتنق شعبها دين واحد له نظام واحد، وقد وجد قسطنطين في المسيحية هدفه المنشود، ووجد في المسيحية خير عون له في كفاحه المقبل ضد منافسيه على السلطة وكفاحه من أجل توحيد الامبراطورية، وقد استعان قسطنطين بالفعل برجال الكنيسة في تسكين خواطر رعايا الامبراطورية، كما ساعدوه في تحقيق الامن والاستقرار.

كان قسطنطين يسعى للخلاص من شريكه ليكينيوس لينفرد بحكم الإمبراطورية، وكان في حاجة ماسة إلى أنصار وأعوان يناصروه ويؤازروه، فوجد في المسيحيين قوة كبيرة ومؤثرة في ساحة الصراع، كما كان معجبا بغيره

المسيحيين الشديدة على دينهم بدرجة تفوق الأديان الأخرى التى كانت سائدة فى ذلك الحين فى الإمبراطورية، ورأى قسطنطين أن هذه الغيرة هى التى ستربط الإمبراطورية برباط قوى، لأنه كان يسعى إلى ربط الإمبراطورية واشلائها المتداعية برباط قوى ومتمين مهما كان الثمن، حتى ولو كان هذا الرباط هو المسيحية، لذلك شرع فى إصدار مرسوم ميلان.

كذلك أدرك قسطنطين بذكائه أن المسيحية سوف تصبح قوة عالمية بدليل أن اضطهاد المسيحيين لم يعق انتشارها بل زاد انتشارها وزاد المسيحيين تمسكا بها. كما ادرك أن المسيحية أكثر انتشارا بالشرق أى فى ولايات آسيا الصغرى ومصر والشام، وهذه الولايات هى عصب الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية، إذ تمدها بالموارد المالية وخاصة القمح والنقود، لذلك رأى من الضرورى كسب ولاء سكان هذه الولايات وذلك بتأييد المسيحية والاعتراف بها.

كما أن ماتدعو إليه المسيحية من مبادئ عظيمة كالمساواة والمحبة والايثار تستطيع بهذه المبادئ أن تشبع حاجات الناس النفسية مع قصور الوثنية فى ذلك الوقت.

أما عن (النتائج) التى ترتبت على الاعتراف بالمسيحية ديانة مرخص بها فى الامبراطورية فهى تثبيت دعائم المسيحية وتمهيد الارض لازدهارها وانتشارها، ازدادت الكنائس غنى نتيجة ما كان يصل اليها من هدايا واموال وهبات وارض واملاك من الدولة ومن سكان الامبراطورية، واعفى المسيحيون من حضور حفلات الوثنية، بل ويقال أن قسطنطين امر بتشييد عدد كبير من الكنائس فى كافة انحاء الامبراطورية مثل كنيسة القديس بطرس فى روما، وكنيسة الصعود وشيدت على جبل الزيتون، وكنيسة المهد فى بيت لحم وغيرها من الكنائس، التى تم تشييدها فى انطاكية ونيقوميديا وغيرها، فضلا عن ذلك تمتع رجال الدين من المسيحيين بنفس الامتيازات التى تمتع بها الكهنة الوثنيون .



## كنيسة الاسكندرية والجدل حول طبيعة السيد المسيح:

صحب ظهور المسيحية في مصر وانتشارها ظهور عدد من المذاهب حول طبيعة السيد المسيح، ولم ترتبط هذه المذاهب بكنيسة الاسكندرية فحسب بل ما لبثت أن انتشرت في جميع انحاء القطر المصري بل وفي الامبراطورية الرومانية كلها.

شهدت كنيسة الاسكندرية خلافا دار حول العلاقة بين الاب والابن خلافا دار بين مذهبين هما مذهب أريوس (٢٥٦-٣٣٦م) ومذهب اثناسيوس (٢٩٦-٣٧٣م).

### أولاً: مذهب اريوس (الاريسوية) Ariusism

اريوس هو احد قساوسة الاسكندرية وكان من اصل ليبي اذ ولد في ليبيا سنة ٢٥٦م وتعلم في انطاكية على يد معلمه لوقيانوس Lucianus،<sup>(\*)</sup> ثم ام الاسكندرية حيث انخرط في سلك الكهنوت، وكان واسع الاطلاع والعلم، حتى قيل أنه لم يغادر من المعرفة صغيرة ولاكبيرة الاحصاها، كما كان واعظاً مؤثراً يجيد الاقناع والوعظ والارشاد وكان عالماً زهداً متقشفاً، ولذلك التف حوله عدد من المؤمنين، لاسيما عذارى الاسكندرية اللواتي نذرن أنفسهن للعمل الصالح، الى جانب عدد من رجال الاكليروس الذين فضلوا الاصغاء اليه والعمل بنصائحه. ويبدو انه كان على جانب كبير من الطموح وقوة الشخصية وحدة

(\*) لوقيانوس Lucianus كان كاهناً لكنيسة انطاكية (ت٣١٢م) يتحدث عنه جيروم فيذكر "أنه كان رجلاً صاحب عقلية متقدمة الذكاء، متمقماً في دراسة الكتاب المقدس وتفسيره بل لازالت بعض نسخه حتى الآن تحمل اسم لوقيانوس. ترك العديد من المؤلفات من أهمها كتابه (عن الإيمان) ووصفه يوسيبوس بأنه كان "أعظم من عرفهم معرفة بالعلوم الإنسانية، معتدلاً في حياته" وقام لوقيانوس بتحقيق وتنقيح نص التوراة، كما لعب دوراً كبيراً في تقدم دراسة اللاهوت في مدرسة انطاكية.

العقل. ورسم أريوس فى عام ٣١٠م شماساً<sup>(\*)</sup> على يد بطرس بطريرك الاسكندرية. ورقى عام ٣١٣م الى مرتبة القسيس بعد وفاة بطرس بطريرك الاسكندرية.

ونظرا لتعلم أريوس فى مدرسة انطاكية، فقد ظل محافظا على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها ويمارسها فى الاسكندرية، وسرعان ما صاغ آراء مستقلة فى العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة. فاعتقد أريوس فى المذهب القائل بأن المسيح ليس الا مخلوقا جاء من العدم، وليس من نفس المادة الالهية، وأنه ليس من المعقول أن يكون المسيح الابن من نفس طبيعة الاله لأنه من صنيعته وبالتالي فهو اقل مرتبة منه. أى أن الابن لا يساوى الأب فى الجوهر. وينكر أريوس بذلك لاهوت المسيح أى أنه ليس الها حقا، وانه كان يريد بتعاليمه وآرائه هذه أن يؤكد وحدانية الله.

على أن افكار أريوس وآرائه هذه كانت تتعارض مع بعض العقائد السائدة التى كانت تؤكد الوهية السيد المسيح وأنه (الكلمة) وأنه مظهر من مظاهر اللاهوت شأنه فى ذلك شأن الأب والروح القدس، ومن هنا حدث انقسام فى كنيسة الاسكندرية، فراح فريق يؤكد آراء أريوس وفريق آخر يعارضها وكان على اسكندر بطريرك الاسكندرية ان يتدخل لحسم الخلاف بين اتباع مذهب أريوس وخصومه، وعقد بالفعل فى عام ٣١٩ - ٣٢٠م مجمعا فى الاسكندرية، شهده قساوسة مصر وليبيا، وكان برئاسة اسكندر ومستشاره اثناسيوس، وناقش هذا المجمع آراء أريوس وفى النهاية أدان هذا المجمع أريوس، وقرر حرمانه من الكنيسة بل وطرده من مصر، كما قرر حرمان جميع القساوسة الذين أيدوا آراء أريوس وأفكاره.

(\*) من مهامه خدمة الفقراء والمحتاجين، والقيام بالوعظ والتبشير، فهو خادم فى الكنيسة.



وعلى الرغم من ادانة تعاليم اريوس الا أن افكاره لاقت رواجاً بين عدد ليس باليسير من رجال الدين في كنيسة الاسكندرية، هذا بالإضافة الى أن كثير من المثقفين قد اتخذوا جانب اريوس ايماناً منهم بأن عقيدته هي الحق، بينما تعاطف معه فريق آخر وضع في اعتباره أن اتباع اريوس إنما أُسيئت معاملتهم، وأن حرمانهم ليس من العدالة في شيء . كذلك سعى انصار اريوس الى نشر تعاليم الأريوسية خارج مصر، أي في مدن الامبراطورية الاخرى، فإرسلوا مندوبين الى تلك المدن، وزودوهم بمكاتيب بمغزى وفحوى عقيدتهم . ونتيجة لذلك انتشرت الأريوسية في فلسطين وليبيا وآسيا الصغرى انتشاراً واسعاً، وبدأ بطريك الاسكندرية يشعر بالقلق من انتشار تعاليم اريوس، ولذلك راح يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس في الولايات الشرقية، وحثهم على مقاومة دعوة اريوس في مناطقهم بكل ما اوتوا من قوة . كذلك عقد مجمعا آخر في عام ٣٢١م في مدينة الاسكندرية، حضره أكثر من مائة اسقف، وتقرر في هذه المجمع لعن اريوس واتباعه.

ولم ييأس اريوس، ورحل من الاسكندرية واتجه نحو فلسطين، ومنها الى نيقوميديا حيث يوجد صديقه يوسيبوس الذي كان يحتل مركزاً مرموقاً في القصر الامبراطوري، وراح يشكو اليه ما نزل به وبرفاقه من اضطهاد على يد اسكندر بطريك الاسكندرية . ولذلك قرر يوسيبوس عقد مجمع في عام ٣٢٢م ضم اساقفة بيشنيا، وقرر هذا المجمع اتخاذ جانب اريوس، ودعا الاساقفة الى نصرته والى أن يسعوا جاهدين لدى اسكندر لاعادة اريوس ثانية الى الكنيسة . على أن اسكندر عارض عودة اريوس الى الكنيسة، وارسل الى الاساقفة يوضح لهم نواحي الخطيئة في عقيدته . فعد الأريوسيون رفض اسكندر هذا اهانة بالغة لهم وازدادوا تمسكاً بعقيدتهم وتأييداً لها، ومالبت اريوس أن عاد الى الاسكندرية ثانية، فعم المدينة السخط والاضطراب، وعقد أنصار الفريقين العديد من المجمع لاصلاح ذات البين، على أن هذه المجمع اسفرت في النهاية عن تعميق

هوة الخلاف والنزاع بين الفريقين .

ورأى الامبراطور قسطنطين أن يتدخل - وكان في ذلك الوقت قد فرغ من مشاكله السياسية بالانتصار على آخر منافسيه وهو ليكينيوس (٣٢٣م) - من أجل حل المشكلة الدينية التي تهدد وحدة الامبراطورية. فارسل اولاً هوسيويس<sup>(١)</sup> مستشاره في الدين مبعوثاً الى كل من اسكندر وأريوس في الاسكندرية بعد أن قرأ سويلاً الكتابة لكل من أريوس واسكندر، وأن يذهب هوسيويس بنفسه الى الاسكندرية للتحقيق من القضية الماثلة وتوجيه النصح للفريقين، وقد حمل الامبراطور هوسيويس رسالة الى كل منهما، تتضمن رغبة الامبراطور وحرصه على احلال السلام في ربوع الامبراطورية، وأوضح فيها مدى ما شعر به من الم وحزن لما حل بالكنيسة من انقسام، وان الواجب يقضى بتساهل الفريقين للوصول الى حل مرض . غير أن هوسيويس اخفق في مسعاه وهو محاولة التوفيق بين اسكندر واريوس، اذ عقد في الاسكندرية مجمعا في عام ٣٢٤م، قرر حرمان أريوس واتباعه، وعاد هوسيويس بخفي حنين.

ثم رأى قسطنطين بعد ذلك ضرورة عقد مجمع مسكونى لوضع حد لهذه النزاعات . ويذهب البعض الى القول بأن أنقرة حددت اولاً كمكان لعقد المجمع، ولكنها ما لبثت أن عدلت الى نيقية لأن مناخها الطيف من أنقرة، كما انها اقرب الى نيقوميديا مقر حكم الامبراطور . وكذلك حتى يتمكن اساقفة ايطاليا وباقي كنائس اوربا من حضور هذا المجمع . وبالفعل عقد هذا المجمع في نيقية عام ٣٢٥م بناء على دعوة وجهها قسطنطين الى مختلف كنائس الامبراطورية، في محاولة جديدة وجريئة منه لحل الخلاف والشقاق الذي حدث في الكنيسة، ولحسم الامر دفعة واحدة بهذا المجمع الذي يضم ذلك العدد من رجال الكنيسة في

(١) هو اسقف قرطبة الاسبانية وكان صديقا قديما للامبراطور، والاسقف هو المشرف على الكنيسة والمسئول عن الإدارة داخلها.



الشرق والغرب، و اراد قسطنطين من ناحية ثالثة أن يثبت أن سلطانه فوق الكنيسة، وان يظهر بمظهر الحريص على العقيدة، وتخليصها من أية شائبة.

اختلف المؤرخون حول تقدير عدد الاساقفة الذين حضروا هذا المجمع، فقدره بعضهم ٢٥٠ اسقفا وقيل ٢٧٠ اسقفا فى حين قدره البعض الاخر ٣٢٠ اسقفا، وفريق رابع بـ ٣١٨ اسقفا والاجماع على العدد الاخير . وكان هؤلاء الاساقفة من سوريا وقيليقيا، وبلاد العرب وفلسطين ومصر وطيبة وليبيا وميسبوتاميا (مابين النهرين) وآسيا فريجيا وكبادوكيا ومقدونيا وأخايا ابيروس و تراقيا واسبانيا، كما حضره مندوبون من فارس وبونطس .

وافتح المجمع جلساته يوم ٢٠ مايو بعد أن حضر جميع الاساقفة ووقع اختيار الاساقفة على هوسوس اسقف قرطبة والاب الروحي للامبراطور واكبر الأساقفة سنا ليرأس هذا المجمع، فجلس هوسوس عن يمين الامبراطور ورجال الدولة الذين حضروا المجمع.

ودار النقاش فى هذا المجمع حول نقطتى الخلاف بين الفريقين اولهما: مساواة الابن بالاب فى الجوهر والازلية، وبينما رأى اتباع اريوس أن الابن غير مشابه فى الجوهر وليس مساويا له فى الازلية، تمسك مناھضو الاريوسية بمساواة الاب بالابن فى الجوهر والازلية معا. وثانيهما: القول بالخلق أو الولادة، ولم يفرق اتباع اريوس بين كلمتى مولود أو مخلوق وهم يستخدمون اللفظين للتعبير عن معنى واحد . أما مناھضو الاريوسية فيرون استخدام كلمة مولود بدلا من كلمة مخلوق لأن الاخيرة تتسحب على سائر الاشياء، التى خلقت بالابن ولايصح أن يكون الابن شبيها بها . وعلى هذا فهو ليس بشئ مخلوق شأن ماخلقه بيده، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق . وفى هذا المجمع شرح اثناسيوس-الذى حضر المجمع برفقة اسكندر بطريرك الاسكندرية، الذى رسمه قسا أثناء المجمع ليعطيه الكلمة أمام الحاضرين- شرح معنى الايمان،

وفند آراء أريوس في براءة واقناع، اندهش لهما الحاضرون، حتى أنهم أخذوا بآرائه، ومنذ ذلك الحين اكتسب الشاب اثناسيوس الذي كان في التاسعة والعشرين من عمره شهرة عالمية ومكانا عليا .

وبعد نقاش طويل، قرر المجمع في النهاية أن الابن مساو للاب في الجوهر والازلية، وحرّم كل من يقول بغير ذلك، وقرر كذلك حرمان أريوس واتباعه، ومنعهم من دخول الاسكندرية، وتمسك المجمع بأن المسيح مولود غير مخلوق قبل كل الدهور، وهو اله حق من اله حق . وبعد أن أقر المجمع هذه الصفة اقترح قسطنطين اضافة لفظة واحدة، تصف العلاقة بين الاب والابن وهي أنهما من طبيعة واحدة.

بدأ الامبراطور في تنفيذ قرارات مجمع نيقية بالفعل فأمر بنفى أريوس واتباعه خارج الاسكندرية، كما أرسل الى الاساقفة والاهالي في كل مكان من الامبراطورية، يخبرهم بأن أريوس واتباعه مبتدعون مضللون، وأن عليهم لعنة الامبراطور والاساقفة اجمعين، وأن كتابات الاريوسيين ومقالات أريوس يجب أن تحرق، وأن من يضبط وهو يخفي أى منها سوف يموت جزاء الخطيئة. وظن الامبراطور قسطنطين أنه نجح بذلك في اعادة السلام الى الكنيسة والامبراطورية ولكن ما حدث هو العكس فقد ازداد السخط، واستمر الخلاف والنزاع الديني، نحو نصف قرن.

وفي ابريل من عام ٣٢٨م مات اسكندر بطريك الاسكندرية وتم انتخاب مستشاره اثناسيوس بطريكا وخليفة له على بطريكية الاسكندرية.

### ثانيا: مذهب اثناسيوس

ولد اثناسيوس في عام ٢٩٦م وينتمي الى أسرة مسيحية، وكان أبوه يعمل في احدى الكنائس، وقضى اثناسيوس طفولته في احدى الكور المجاورة



لاخميم (بانوبوليس) بصعيد مصر، وكثيراً ما كان يتردد على أخميم مع رفاقه من الأطفال. وقد تعلم في صباه صنعته حسب تقليد أهل مصر وهي فن البناء، ثم نزع في صباه مع أسرته إلى ضواحي الإسكندرية. وعكف اثناسيوس على تعلم اللغة اليونانية، ودراسة اللاهوت والأدب والفلسفة اليونانية السائدة آنذاك ويبدو أنه درس هذه العلوم في مدرسة الاسكندرية، منارة اللاهوت والفلسفة في ذلك الوقت، وعندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره الف اول كتابين له وهما : الأول بعنوان " ضد الوثنيين " ودعا فيه الوثنيين إلى ترك الوثنية والثاني بعنوان " تجسد الكلمة " وعرض فيه فكري لاهوتيا بأسلوب علمي عن التجسد الإلهي، ثم تعرف اثناسيوس على اسكندر بطريك الاسكندرية، ودخل في خدمته كأبن له وكسكرتير، وكان اسكندر أستاذه، وراعيه في آن واحد اذ تلقى منه الرعاية كاملة فكرا وحياة . هذا فضلا عن أن اثناسيوس مارس حياة النسك والرهبانية وكانت تربطه بالرهبان في مصر علاقات مودة وصداقة وخاصة القديس انطونيوس. وبعد وفاة اسكندر سنة ٣٢٨م ارتقى اثناسيوس عرش بطريكية الاسكندرية.

أما عن مذهبه فقد كان اثناسيوس يؤمن بما جاء في مجمع نيقية ٣٢٥م من أن للمسيح طبيعة الهية، وانه مساو للأب في الجوهر والازلية، وانه مولود وليس مخلوق، وقد أخذت عقيدته هذه اسم الاثناسيوسية نسبة الى اسمه. وكانت هذه العقيدة تتناقض آراء أريوس، لذلك ما ان اعتلى اثناسيوس عرش بطريكية الاسكندرية في يونيه ٣٢٨م حتى اشتد في معاملة الأريوسيين، وأنزل بهم الوان الاضطهاد، وطرده البقية الباقية منهم من كنائسهم.

وأحس الامبراطور قسطنطين أن مجمع نيقية ٣٢٥م لم ينجح في القضاء على الاربوسية، وأن الاربوسية لم تمت بنفي زعيمها وأن خطرها لازال باقيا، ورأى ضرورة ايجاد نوع من التوازن، وهذا ربما يتحقق باعادة أريوس الى

الكنيسة واصدار العفو عنه، فبدأ يكتب له يدعو للعودة الى حظيرة الايمان القويم. وتحت ضغط والاح الامبراطور جاء أريوس الى القسطنطينية، فاستقبله الامبراطور وسأله عما اذا كان موافقا على قانون الايمان النيقى، فاعطاه اريوس موافقته. على أن صيغة الايمان، التي قدمها أريوس كانت في " جملتها مختصرة وماكرة " على حد تعبير أحد المؤرخين لانها كانت خالية من عبارة " من نفس الجوهر " وعبارة " مولود غير مخلوق " وهما العبارتان اللتان دار حولهما الجدل في مجمع نيقية.

ورفض اثناسيوس بطريك الاسكندرية الانصياع لأوامر الامبراطور باعادة اريوس واتباعه الى الكنيسة والى وظائفهم الدينية، مما اثار صدر الامبراطور عليه، ومما دفع الاخير الى أن يكتب رسالة ويبعث بها الى الاسكندرية وبتطريكها اثناسيوس، يهدده بالعزل والنفى اذا رفض الامتثال لأوامره في قبول أولئك الذين يرغبون في العودة الى الكنيسة من الاريوسيين. غير أن اثناسيوس أصر على موقفه متحديا رغبة الامبراطور قسطنطين، وكتب اليه في محاولة منه لاقتناعه بأنهم هراطقة<sup>(\*)</sup> ولا يمكن قبولهم في الكنيسة الكاثوليكية.

أنتهز الاريوسيون هذه الفرصة، ووضعوا خطة لايقار صدر قسطنطين على اثناسيوس . تتمثل هذه الخطة في اثاره غضب الامبراطور على اثناسيوس بطريك الاسكندرية، ومحاولة اشاعة السخط والتذمر بين الاساقفة جميعا على اثناسيوس .

ولما كان من العسير تنفيذ هذه الخطة عن طريق اتهام اثناسيوس بالهرطقة لذلك لجأ الاريوسيون الى طريق آخر غير العقيدة، وتمثل ذلك في

(\*) من الهرطقة وهي كلمة يونانية الأصل (Airesis) ومعناها الرأي الفردي الخاص الذي لا يتفق مع آراء آباء الكنيسة، ومن ينحرف عنها فهو (مهرطق) أو (أخ قد فسد).



اتهامه بتهم اخرى من بينها : أنه فرض ضريبة على المصريين يؤدونها من الكتان لاستخدامه فى الرداء الكهنوتى، وأنه تم جباية هذه الضريبة عنوة، وعد الامبراطور هذا الاتهام اعتداء على سلطانه، وارسل يستدعى اثناسيوس على الفور ليبراً نفسه من هذا الاتهام . وانتهز الاريوسيون مجئ اثناسيوس الى البلاط الامبراطورى، واعدوا له اتهاماً جديداً يتعلق بحياة الامبراطور نفسه، اذ اداعوا أن اثناسيوس يتآمر ضد الامبراطور، وانه ارسل صندوقاً مليئاً بالذهب الى رئيس الحرس لتنفيذ مخططه. غير أنه مالبث أن اتضح للامبراطور أن اثناسيوس برئ من هذه التهمة، لذلك سمح له بالعودة الى الكنيسة معزواً مكرماً. ومع ذلك فقد كان الامبراطور يدرك تماماً أن وجود اثناسيوس بعدائه للفريق الأريوسى يعد مصدر خطر حقيقى، وكان يدرك أيضاً أن الوقت لم يحن للتخلص منه.

تابع الفريق الأريوسى تنفيذ خطته ضد اثناسيوس باثارة الأساقفة عليه، وذلك باظهاره فى صورة رجل الدين الذى لا يحترم زملاؤه، ويحتقر نوى المرتبة الثانية منهم وذلك بأن زينوا للامبراطور بأن اثناسيوس يجب أن يبرئ ساحته أمام مجمع من الاساقفة يدعى لهذا الغرض . وصادفت هذه الفكرة هوى فى نفس الامبراطور اذ كان يظن أن فى ذلك قضاء تاماً على الاضطراب، وعلى هذا الاساس دعا فى عام ٣٣٣م الاساقفة للاجتماع فى قيسارية فى فلسطين لفحص الاتهامات الموجهة ضد اثناسيوس، وطلب من اثناسيوس حضور هذا الاجتماع.

رفض اثناسيوس دعوة الامبراطور لحضور مجمع قيسارية وبرفضه هذا اضاع من يده فرصة كسب الامبراطور الى صفه ثانية، اذ جاء رفض اثناسيوس هذا تحدياً لسلطان الامبراطور، أما الاساقفة فايقنوا أن اثناسيوس يسخر منهم ولا يعيرهم اهتماماً، وبذلك أثار اثناسيوس كل من الامبراطور والاساقفة فى آن واحد. وعندئذ قرر الامبراطور عقد مجمع للاساقفة فى صور

(٣٣٥م) وكتب الى اثناسيوس يأمره بالذهاب الى صور، وامتلثل اثناسيوس للامر على مضض منه وكره، اذ توعدده الامبراطور بأنه اذا لم يحضر طواعية فسوف يحضره للمجمع عنوة وكرها.

وعقد مجمع صور فى عام ٣٣٥م، وحضره ستين اسقفا، وفيه وجهت العديد من الاتهامات الى اثناسيوس من بينها أنه عزل اسقف بلوزيوم من منصبه، وعين بدلا منه شخصا آخر ووضعه تحت حراسة عسكرية، وراح يذيقه الوان العذاب . واتهم اثناسيوس ايضا بتعطيل ابشار القمح المصرى الذى كان يرسل الى القسطنطينية كل عام، ثم تأييده لثورة قامت ضد الامبراطور فى مصر قادها شخص يدعى فيلومينوس سنة ٣٣٥م هذا فضلا عن أن اثناسيوس رفض الانصياع لأوامر الامبراطور بحضور مجمع قيسارية متحديا له ومستخفا بالاساقفة، كما أنه حضر مجمع صور وبصحبه عدد كبير من الاتباع، من أجل اثارة الشغب والفوضى والاضطراب فى المجمع.

ومع أن اثناسيوس استطاع أن ينفى عن نفسه كثيرا من هذه الاتهامات الا أن مجمع صور قرر فى جلسته الختامية ادانة اثناسيوس وعزله، بل وطلب نفيه من مصر، وأن يذهب الى بلاد غاللا أى الى القسم الغربى من الامبراطورية، على أن هذا المجمع لم يناقش المشكلة الاساسية وهى اعادة أريوس الى الكنيسة.

انتهاز الامبراطور فرصة عقد الاساقفة مجمع فى اورشليم عام ٣٣٥م، وارسل أريوس الى هذا المجمع بعد أن اطع على وثيقة ايمانه التى قدمها اليه، وانه مقتنع بما جاء فيها، وطلب الامبراطور من الاساقفة اعادة قبول أريوس فى الكنيسة، واعادته الى الاسكندرية، وكان أن أصدر المجمع قراره بقبول أريوس ورفاقه فى الكنيسة، واعادتهم ثانية الى كنيسة الاسكندرية . غير أن أتباع اثناسيوس بطريك الاسكندرية، رفضوا الامتثال لقرارت المجمع، مما أدى الى حدوث الاضطراب من جديد فى الاسكندرية.



ارسل الامبراطور يستدعى اريوس على الفور الى القسطنطينية وما أن وصل أريوس اليها حتى دخل في صراع مع بطريكها اسكندر، الذي نمي الى علمه أن الفريق الاريوسى يرغب فى أن يقوم بطريك القسطنطينية بقبول أريوس فى الكنيسة، حتى يكون نموذجاً تحتذيهِ بقية كنائس الامبراطورية . وترتب على ذلك أن عمت الفوضى مدينة القسطنطينية، التى انقسمت الى فريقين أحدهما يتمسك بقانون الايمان النيقى، والآخر يناضل من اجل أريوس . وادرك الامبراطور خطورة هذا الموقف، فدعا كل من أريوس واسكندر، وطلب من الاول أن يعترف بقرارت مجمع نيقية ٣٢٥م، وأن يقسم على صحة ايمانه، ففعل أريوس، وقبل الامبراطور صيغة ايمانه، وطلب الامبراطور من اسكندر بطريك القسطنطينية أن يقبله فى الكنيسة، ولم يكن اسكندر يرغب فى ذلك الا انه اخرج من الامبراطور . وتعقدت المشكلة ولكن حلها القدر بوفاة أريوس فى نفس اليوم الذى حدد ليتم فيه قبول اسكندر لأريوس فى الكنيسة، ففى أحد أيام من عام ٣٣٦، احتشد الناس حتى ملأوا فناء الكنيسة بالمدينة (القسطنطينية) ورجال الاكليروس يقدمون للرب الابتهالات والضراعة.. أما إسكندر بطريك القسطنطينية فقد بدا الشحوب على محياه، بعد ليلة طويلة قضاها يقيم بينه وبين نفسه الصلوات التماساً لعون الإله فى الغد .

وبينما تجرى الإجراءات على قدم وساق لمقدم الإمبراطور لحضور هذه اللحظات الحاسمة التى سوف يعلن فيها أسقف القسطنطينية سقوط قرار الحرمان عن اريوس وعودته إلى الكنيسة، وقبل أن تحين اللحظة الحاسمة دخل قس الإسكندرية إلى أحد الأماكن ليقضى فيها حاجته وطال انتظار الجمع له .. ولكن الرجل لم يعد، فلما طلبوه، وجدوه ملقى على الأرض صريعاً، وهكذا مات اريوس وانتهت حياة قس الإسكندرية الشهير بلغز محير وسر دفين. ولكن ماهو السر وراء تحول تأييد الامبراطور من اثناسيوس لأريوس ؟

أدان قسطنطين أراء أريوس فى البداية، وأيد مجمع نيقية، وذلك رغبة فى

كسب ود الغرب وتأييده، لأنه كان لازال يقيم فى الغرب، وكانت روما بايطاليا هى عاصمة الامبراطورية حتى ذلك الحين . ومن المعروف أن مذهب اريوس لم يكن سائدا فى الغرب، فإذا أيد الامبراطور قسطنطين مذهب أريوس فى مجمع نيقية، كان هذا يعنى أن السخط سوف يعم معظم أنحاء الغرب الاوربى . ولذلك فضل قسطنطين أدانة مذهب أريوس، ونفيه بدلا من معارضة أهالى الغرب الاوربى.

وعندما تغير الوضع فى الامبراطورية الرومانية، وتم نقل عاصمتها من روما الى القسطنطينية على شواطئ البوسفور، كان هذا يعنى أن الامبراطور أصبح فى حاجة الى تأييد الشرق، ولذلك كان من الضرورى أن يسعى قسطنطين لارضاء القسم الشرقى من الامبراطورية وذلك بالعفو عن أريوس واعادته الى الكنيسة هو واتباعه . وبذلك يتضح الدافع وراء تحول قسطنطين من تأييد اثناسيوس الى تأييد أريوس.

على أية حال اذا كانت الاحوال قد هدأت فى مدينة الاسكندرية بعد مجمع صور ومجمع اورشليم فى عام ٣٣٥م كذلك فى القسطنطينية بوفاة أريوس فى العام التالى ٣٣٦م، الا فى هذه الاحوال ما لبثت أن اضطربت بعد وفاة الامبراطور قسطنطين ٣٣٧م، واستمر النزاع فى الاسكندرية بين أتباع مذهب أريوس واتباع مذهب اثناسيوس لمدة طويلة، واستمرت حتى وفاة اثناسيوس فى عام ٣٧٣م.

### الرهبانية والديرانية :

ارتبط بانتشار المسيحية ظهور حركات دينية جديدة عرفت باسم الرهبانية أو الديرية، وظهرت هذه الحركات الدينية أول ما ظهرت على أرض مصر فى القرن الثالث الميلادى.



## تعريف الرهبانية

وكلمة الرهبانية أو الرهبة في اللغة العربية، قيل أن أصلها من الرهبة أو الخوف، وترهب الرجل إذا صار راهباً يخشى الله، كما ذكر ابن منظور في لسان العرب. وجاء في القرآن الكريم : قال تعالى : "وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رآفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله" (\*) ولفظة راهب باللغة القبطية هي "موناخوس" وقد نقلتها اللغات الأوروبية الحديثة كما هي عن القبطية.

والرهبانية عبارة عن أن فرد أو جماعة تترك مجتمعها، وتهجر الحياة الدنيا بمتاعها ومباهجها، وتتقطع عن العالم، وتعيش في عزلة، عيشة تقشف وزهد وصلاة وتعبد تقرباً إلى الله.

## جذور نظام الرهبانية

والواقع أن فكرة العزلة أو الانقطاع عن العالم لتحقيق رغبة دينية فكرة مصرية قديمة، عرفها المصريون قبل ظهور المسيحية، ففي القرن الثاني قبل الميلاد، كان معبد السيرابيوم في ممفيس ملئاً بالخلوات والزوايا، التي خصصت لعدد كبير من الاتقياء، الذين فضلوا العزلة عن المجتمع الصاخب ووهبوا أنفسهم لخدمة الإله سراپيس وأطلق على هؤلاء طائفة (المنقطعين Katachoi)، وقد استخدموا مصطلح الأب والأخ مثلما فعل الرهبان فيما بعد. ولكن هؤلاء لم يهجروا العالم تماماً بل كانوا على صلة به إذ كانوا يرجعون إليه بعد قضاء عدة سنوات في السيرابيوم. وكان هذا الانقطاع ذا صبغة دينية لأنهم أنقطعوا لتأدية فروض عبادة هذا الإله.

كذلك مارس اليهود هذه العزلة وذلك الانقطاع، إذ وجد في ضواحي

(\*) سورة الحديد آية ٢٧.

الاسكندرية جماعة من اليهود، عرفوا باسم المتأملين فى الالهيات، تركوا كل ما يملكون من متاع الدنيا، وكانوا يعيشون فى شكل مستعمرة تنسكية بالقرب من الاسكندرية. ونظام حياتهم شديد الشبه بحركات الرهبانية الاولى، فكانوا رجال ونساء يهجرون المجتمع وما فيه من روابط اجتماعية، ويمتنعون عن شرب الخمر واكل اللحوم، وينقطعون للعبادة والتأمل والصلاة، وكانوا يعيشون فى أماكن متفرقة، ولهم دار عامة يجتمعون بها للصلاة عامة.

وظهرت الرهبانية فى مصر كذلك عند دخول الديانة المسيحية بها، وقيل أن الرسول مرقس هو الذى علمها لمسيحي مصر، اذ انه بث روح الفضيلة بطهره وعفاهه فى قلوب كثير من المصريين، لذلك اعتزلوا العالم ولجأوا الى الكهوف والمغاور، يسبحون الخالق ويتغنون بذكره. هذا فضلا عن ان بذور حياة الزهد والتشف والاعراض عن متاع الدنيا، كانت موجودة فى اصول المسيحية الاولى، ويظهر ذلك من خلال أقوال القديس بولس من حث على حياة العذوبة، التى تعتبر ركنا من أركان حياة الزهد والرهبانية ومن هذه الاقوال: "من يتزوج يفعل حسن ومن لا يتزوج يفعل أحسن". وجاء فى انجيل مرقص : ١٠ (٢٨-٣٠) على لسان السيد المسيح عليه السلام "الحق أقول لكم ليس أحد يترك بيتا، أو أخوة، أو أخوات، أو أباً أو أما أو أولادا أو حقولاً لأجلى، ولأجل الإنجيل، إلا ويأخذ مائة ضعف".

أما عن الدوافع والأسباب التى ساعدت على ممارسة حياة العزلة والانقطاع عن العالم والمجتمع فى مصر فهى:

رغبة بعض الافراد فى البعد بأنفسهم عن المجتمع المليء بالمفاسد، والنجاة من الوقوع فى مفسد هذا المجتمع. فيذكر جونز Jones أن قانون الأخلاق المسيحي كان صعباً جداً إذ يحتوى على قائمة من المحرمات مثل : تحريم الزنا واللواط، وتحريم الطلاق، تحريم اتخاذ عشيقة أو محظية، هذا إلى



جانب تحريم حفلات المسرح وعروض المصارعة وسباق الخيل، وحتى ارتياد الحمامات العامة اعتبر من الأمور المثيرة للغرائز وغيرها لذا كان من الصعب على الإنسان العادى أن يعيش فى تلك الظروف، بل من المستحيل على الرجل أن يحافظ على أخلاقه الفاضلة وهو يعيش فى المدينة لذلك كان من الأفضل الانسحاب والعيش فى الجبال والكهوف والمغاور.

ومن الأسباب الأخرى التى أضافها جونز تأخير سن التعميد إلى ما قبل الوفاة حتى لا يركب الإنسان أخطاء أو آثام، وكان رد فعل ذلك هو لجوء بعض الناس إلى الصحراء لقمع الشهوات، من خلال الصلاة والعبادة والتأمل وممارسة حياة التمسك. كما أن الانقطاع عن المجتمع يجنب أفراد الانغماس فى الحروب، فى عصر كثرت فيه الحروب الأهلية، كما يجنبهم أيضاً العمل الشاق وبالتالى عدم الالتزام بدفع الضرائب والخدمة فى الجيش. ومن ثم كان الانقطاع يعنى الهروب من مسئوليات المجتمع. كما أن الاضطهاد الدينى الذى تعرض له المسيحيون والذى بلغ ذروته فى أواخر عهد دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) جعل عدد كبير من المسيحيين يفرون بدينهم، حتى لا يتعرضوا للتعذيب على يد السلطات الرومانية، أو تجبرهم هذه السلطات على العودة الى الوثنية. ويؤكد البعض ذلك بقولهم : لقد جاء عصر الرهبانية فى الكنيسة القبطية تاليا لعصر التبشير والاستشهاد وذلك بالصمود أمام الوثنية التى حاولت وأد المسيحية، ولكن انتشار المسيحية غلبها وانتصر عليها. ثم انتهى عصر المستشهدين وجاء عصر العابدين والنسك فنشأت الرهبانية. هذا الى جانب سوء الأحوال الاقتصادية وما ترتب عليه من زيادة الأعباء وكثرتها والتهرب من الاعباء المفروضة عليهم كالضرائب وغيرها وقسوة جامعيها، كما أن الخلافات المذهبية بين اتباع اريوس واثاناسيوس دفعت أنصار الأخير إلى اللجوء إلى الأديرة فرارا من اضطهاد اتباع اريوس، علاوة على أن القانون الذى أصدره قسطنطين العظيم الخاص بإعفاء الأعزب ومن لا أولاد له من الضرائب مع إعفاء الرهبان من



الخدمة العسكرية شجع الكثيرين على ممارسة حياة الرهبانية.

كذلك كانت مصر بأرضها ومناخها صالحة للرهبانية، فهي تتمتع بصحراء واسعة، وكانت تلك الصحراء مأوى يلجأ اليه الرهبان والمتعبدون، هذا فضلا عن مناخها المعتدل، الذي شجع الرهبان على الخروج من مدنهم وقراهم والذهاب الى الصحارى. يضاف الى ما سبق أن المصرى بطبيعته وبما له من خلفية تاريخية يميل الى التدين منذ أقدم الازمان، فهذا هو اخناتون<sup>(\*)</sup> صاحب ثورة دينية عارمة الا وهي ثورة (التوحيد). وكل هذه العوامل ساعدت على ظهور الرهبانية وانتشارها فى مصر.

وهناك نوعان من الرهبانية، رهبانية انفرادية وأخرى جماعية ديرانية.

### أولا : الرهبانية الانفرادية (توحيدية وتوحيدية جماعية) :

وهي تسير على نظام التوحد والانفراد، حيث ينفرد الراهب فى مغارة يقضى فيها حياته منعزلا عن البشر. وكان الراهب لا يأكل الا مرة واحدة فى اليوم، وطعامه عبارة عن خبز جاف وقليل من الملح. واتسم هذا النوع من الرهبنة بإغراق الجسد فى ضروب الزهد والمبالغة فى التقشف والصوم وتعذيب الجسد لخلص الروح. والرهبانية الانفرادية نوعان (١) توحيدية. (٢) توحيدية جماعية.

#### (١) الرهبانية التوحيدية ورائدها "الابا"<sup>(\*\*)</sup> بولا

وعرف باسم بولس الطيبى وقد كتب القديس

(\*) اخناتون هو احد فراغة الاسره الحديثه، وهو امنحتب الرابع، تولى بعد وفاة والده امنحتب الثالث، ولم يهتم بامور السياسة والحرب قدر اهتمامه بامور العبادة والدين، ونادى بفكرة الوجدانيه حيث كان يرى أن جميع الالهه ما هي الا صورة متعددة لاله واحد هو (أتون).

(\*\*) تعنى فى القبطية (الأب) وكلمة متوحد فى القبطية "الكورايث" أى الشخص الذى يعتزل أمور الدنيا.



جيروم<sup>(٥)</sup> سيرته باللاتينية فى القرن الرابع الميلادى. ولد الانبا بولا فى عام ٢٢٨م واختلفت الآراء حول مكان ميلاده فذكر البعض أنه ولد بالاسكندرية وذكر البعض الآخر انه ولد فى طيبة (الاقصر) وذهب فريق ثالث الى أنه ولد فى (سفر و أوئل الكفور ) بين المنيا وبنى سويف ولد من ابوين (موسرين)، وتتقف بتقافة عصره المزدوجة وهى الثقافة الاغريقية والمصرية، ودرس أصول الدين المسيحى الذى تعلق به. ومات أبوه وهو فى السادسة عشر من عمره، وتولى الرعاية عليه زوج أخته الذى كان رجلاً انتهازياً يحب المال فتحين الفرص للتكيل به، بل وعزم على تسليمه للسلطات الرومانية فى احدى موجات الاضطهاد، التى تعرض لها المسيحيون فى العصر الرومانى، وذلك ليأخذ ميراثه . وقيل أيضاً أن الخلاف على الميراث كان بينه وبين أخيه الذى يكبره. ورفعاً قضاياهما أمام المحاكم ليثبت كل منهما أحقيته فى الميراث . وفى اليوم المحدد لنظر الحكم خرج بولا وبينما يسير فى الطريق اذا به يجد قوما يشيعون جنازة فسأل عن هوية المتوفى، فعرف أنه كان من الاثرياء، وأنه لم

<sup>(٥)</sup> ولد فى عام ٣٤٠م، وأغلب الظن أنه من دالماشيا، نال قسطاً كبيراً من التعليم فى روما وترير، ودرس الكتب اللاتينية القديمة دراسة جيدة، وكان مسيحياً شديداً التمسك بدينه مارس حياة الزهد والتشف، ورحل إلى الشرق، واتجه نحو انطاكية عام ٣٧٩م، ورسم فيها قساً، ثم عاد إلى روما أمينا للبابا دماسوس الذى عهد إليه بترجمة العهد الجديد إلى اللاتينية. ورغم منصبه إلا أنه ظل يحيى حياة الزهد، لأن فى نظره أن الرهبان هم وحدهم المسيحيون الحقيقيون المبرعون من الملك والشهوات والكبرياء. وعندما توفى البابا دماسوس خرج جيروم من روما ولم يعد إليها أبداً (٣٨٥م) واتجه نحو (بيت لحم) وأنشأ فيها ديراً للرهبان صار هو رئيسه وآخر للراهبات، وكان يقضى وقته كله فى الدرس والكتابة وأنشأ بها مدرسة كان يعلم فيها الأطفال بدون أجر. كتب حوالى خمسين كتاباً فى المشكلات الدينية وفى تفسير الكتاب المقدس. ودرس العبرية، وأخرج ترجمة للكتاب المقدس باللاتينية عن العبرية أو اليونانية، التى تعد من أهم الأعمال الأدبية التى ترجع إلى القرن الرابع الميلادى.



يأخذ معه شيئاً وهو فى طريقه الى القبر، وعندئذ أدرك بولا أن أموال العالم كلها لاتفيد الانسان بعد موته، وأن ما ينفعه هو العمل الصالح. لذلك قرر بولا أن يترك كل متاع الدنيا، وتوغل فى صحراء مصر الشرقية، حيث اقام فى كهف على ساحل البحر الاحمر، طيلة تسعين عاما يتعبد ويصلى ويتأمل، وعاش عيشة زهد وتقشف، معتمدا على شجر النخيل فى غذائه ولباسه.

ويروى الرحالة الكبير (بلادىوس ٣٦٣ - ٤٢٥م)<sup>(١)</sup> صاحب كتاب بستان الرهبان والذى زار مصر فى أواخر القرن الرابع الميلادى، ومكث بها لدراسة احوال الرهبان، ثم عاد الى بيت لحم ومنها الى اورشليم، ثم زارها ثانية اوائل القرن الخامس الميلادى - يروى الرحالة أن انطونيوس التقى بالأنبا بولا فى أيامه الاخيرة، ويذكر أنه بينما كان أنطونيوس يمارس رهبانيته ويظن أنه لا يوجد فى العالم من هو افضل منه زهدا وتنسكا، اذ به يسمع صوتا من السماء يقول له : " يا انطونيوس هناك من هو افضل منك، هناك شيخ فى الصحراء بالقرب من البحر الاحمر، زهد العالم منذ تسعين عاما". وافاق انطونيوس من الحلم ومضى الى البحر الاحمر للبحث عن الشيخ، وما لبث أن وصل الى مكانه والتقى به، ومكث معه حتى مات فى عام ٣٤١م، ولولا هذا اللقاء بين انطونيوس والانبا بولا لظل أمر بولا مجهولا.

<sup>(١)</sup> هو فى الأصل من مدينة غلاطة احدى المدن التابعة للامبرطورية البيزنطية، ونفى من القسطنطينية بسبب مناصرته للقديس يوحنا فم الذهب، وشغل منصب أسقف بعلبك وتحدث فى كتابه عن رهبان وادى النظرون، وقد عاش بينهم كراهب ١٢ عام وقضى بينهم ست سنوات برتبة اسقف . ويعد بلادىوس Palladius اسقف هليوبوليس Henelopolis فى بيتنيا بأسيا الصغرى أشهر الرحالة الذين قدموا إلى مصر وزاروا اديرتها، وقد قدم إلى مصر مرتين الأولى فى عام ٣٨٨ والثانية استمرت ست سنوات ٤٠٦-٤١٢م وقد وقف خلالها على تنظيمات الأديرة المصرية، وتحدث عن مشاهداته فى مصر فى كتاب اسماء بستان الرهبان أو "الفردوس" معتبرا هذه الفقار التى يقيم فيها المتوحدون وساكنو الأديرة جنانا تستضى بنور إيمانهم.



## (٢) الرهبانية التوحيدية الجماعية

وارتبط هذا النوع من الرهبانية (بالقديس انطونيوس) الذى يعد المؤسس الحقيقى لهذه الحركة، ورائد نظام الرهبانية، ولذلك يلقب (أب جميع الرهبان) و (كوكب البرية).

فعلى الرغم من أن الانبا بولا وغيره مارس الرهبانية الانفرادية التوحيدية، إلا أن الرهبانية الانفرادية كتوحيدية جماعية أخذت وضعها الثابت وصفتها العالمية الواسعة النطاق على يد القديس انطونيوس، لذلك نسبت اليه، واطلق عليها اسم الرهبانية الانطونية، كذلك تعتبر رهبانية انطونيوس الخطوة البارزة فى تاريخ الرهبانية المصرية، وأما ماسبقها فهو عبارة عن مقدمات ارتجالية مهدت لهذا النظام الجديد فقد حولها انطونيوس من انفرادية توحيدية إلى توحيدية جماعية.

ولد القديس انطونيوس فى عام ٢٥١م وقيل فى عام ٢٥٤م فى مدينة بمصر الوسطى تدعى كوما أو (هرقليوبوليس) وهى قمن العروس الآن<sup>(\*)</sup>، بالقرب من بنى سويف - من ابوين مسيحيين على درجة واسعة من الثراء والغنى . إذ كان والده يمتلك مزرعة مساحتها ثلاثمائة فدان، لذلك عاش انطونيوس فى بيت أبويه عيشة منعمة مترفة، وتعلم منهما قواعد الدين المسيحى مع الفضيلة والتقوى، غير أنه لم يأخذ قسطا من التعليم، فقد ظل أميا لايعرف الكتابة حتى أواخر أيامه. وقد ارجع القديس أنثاسيوس صاحب كتاب سيرة حياة انطونيوس " ذلك الى استيائه من سلوك التلاميذ اللفظ فى المدرسة". وتوفى أبوه وهو لم يبلغ الثامنة عشر وقيل العشرين من عمره، وترك له مع تلك الثروة العريضة اختا صغيرة يقوم على رعايتها وتربيتها . وكان انطونيوس كثير

(\*) قرية تقع جنوب القاهرة على بعد ٧٥ كم.

التردد على الكنيسة، وذات يوم بينما هو فى الكنيسة مع اخته استمع الى آية وارده فى الانجيل تقول على لسان السيد المسيح - عليه السلام - للرجل الغنى : " أن اردت أن تكون كاملاً، فاذهب وبع املاكك، واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال أتبعنى " وما ان سمع انطونيوس هذه الآية حتى شرع فى تنفيذها، وخاصة بعد أن سمع آية أخرى تقول على لسان السيد المسيح لتلاميذه : "لا تهتموا للغد، لأن الغد يهتم بما لنفسه، يكفى اليوم شره".

باع انطونيوس املاكه ووزعها على الفقراء، كما خصص جزء منها للكنيسة وبعد ان اعطى اخته نصيبها توجه بها الى احدى دور العذارى اللواتى دائبن على الاجتماع بحجر الكنيسة للتعبد وتدريب النفس على القداسة واوصى بها رئيستهن لكى ترعاها كابنة لها. وبعد أن اطمئن انطونيوس على اخته، ذهب يتعبد فى البرية، ومر انطونيوس فى ممارسته لحياة الرهبانية والزهد والتسك بثلاث مراحل :

(١) الأولى : هى مرحلة "التلمذة على يد الشيوخ والنسك" وأقام خلالها فى مكان قريب من بلدته قمن العروس فى كوخ صغير إلى جوار شاطئ النيل. وتتسم هذه المرحلة بالتلميذة على يد الشيوخ والنسك، الذين كانوا يعيشون على حافة قريته قريب من النهر. فقام بزيارتهم والمرور عليهم، ليتعلم منهم الفضائل، فكان كما وصفه اتناسيوس "كالحلة النشطة التى تؤلف شهدها من متنوع الزهر". فتعلم من واحد من النسك فضيلة الصبر، ومن آخر التواضع وقهر الذات، ومن ثالث الصمت، ومن رابع الطاعة والمثابرة على الصلوات، ومن خامس الصوم والزهد وهكذا.

وخلال هذه المرحلة واصل الليل بالنهار مثابراً على الصلاة فقد جاء فى الأنجيل "صلوا بلا انقطاع"، وحرص على تلاوة الكتاب المقدس باستمرار حتى يحفظه فى ذاكرته جيداً، وعاش حياة تقشف فكان ينام على حصير خشن،



ولباسه من الشعر فوق قميص من جلد، وكان بذلك "أول راهب لبس الصوف، وأظهر شكل الرهبانية" كما يذكر أحد الباحثين. ولما لا "فالفنس تقوى حينما تضعف من ملذات الجسد". وعكف انطونيوس في هذه المرحلة على العمل إلى جانب العبادة، فكان يصنع القفف والحصر ويقتات بثمنها، وكانت مدة هذه المرحلة خمسة عشر عاماً، وانتهت بدخوله زمرة النساك والصالحين.

### المرحلة الثانية :

وفي هذه المرحلة ترك القديس انطونيوس المكان القريب من بلدته قمن العروس وعبر النهر شرقاً، واستقر في منطقة (بسبير) وهي دير الميمون ببنى سويف الحالية، وكان عمره ساعتها خمسة وثلاثين عاماً. وانصرف خلال هذه المرحلة إلى العزلة التامة، استغرقت عشرين عاماً، وقضاها في الصلاة والعبادة والزهد والتأمل والتسك، وعاش على ثمار النخيل الموجود بالمكان مع بعض الخبز الجاف. وكان يتردد عليه خلال هذه المرحلة في بعض الأحيان عدد من الزائرين الذين جاءوا من أجل الاستماع إلى عظاته ونصحه وارشاده، والتلمذة على يديه، وكان يحملون إليه بعضاً من الطعام والشراب.

والتف حوله بذلك عدد كبير من الاتباع والمريدين الراغبين في حياة التسك والرهبانية وفي عيشة العزلة، منهم الاغنياء والفقراء، وبمرور الوقت ظهرت جماعة من الرهبان لاعمل لهم سوى تلاوة الايات الدينية وتأدية الصلوات وقراءة التعاليم الدينية وبذل الاحسان، يعيشون حياة هادئة ليس بها مشاكل ولاشر، وكل راهب منهم مستقل قائم بذاته، لا يدين بالطاعة لأحد سوى معلمه انطونيوس، الذي تتلمذ على يديه وتلقن منه مبادئ الرهبانية.

### أما عن نظام حياة الرهبان الذي وضعه انطونيوس

فقد خصص انطونيوس لكل واحد منهم قلاية Cell "بيت الراهب" أو

خلوة يعيش فيها بمفرده ليعتبد ويصلى، هي من حجرتين داخلية (المحبسة) للعبادة، وخارجية وبها المطبخ، ومخصصة لاستقبال زملائه أو رفاقه وكان الراهب يشترك مع الرهبان فى انتاج ما يلزمهم من طعام وملبس . وكانت كل قلاية تبعد عن الاخرى بما يتجاوز السمع والبصر. وقد اتخذ انطونيوس له ولرهبانه لباسا من الكتان الابيض شبيهه بالباس الفرعونى الكهنوتى.

وكانت حياة الرهبان اليومية تتسم بالعمل من الصباح حتى الظهر، كل راهب حسب حرفته وكل الرهبان يعملون اساسا فى صناعة السلال ونسخ الكتاب المقدس، ويجوز للراهب أن يؤدي هذه الاعمال فى قلايته، وكان من الرهبان من يعمل فى المطبخ أو المخبز، ومنهم الاطباء والصناع. وفى المساء يشغل الجميع بالصلاة والتأمل وقراءة الانجيل أو ترديد التراتيل الدينية، بحيث اذا وقف الانسان فى المساء فى تلك المنطقة سمع المزامير والتسابيح صاعدة من الصوامع والقلايات حوله، فيظن أنه فى الفردوس، ولا يجتمع الرهبان الا فى يومى السبت والاحد من كل اسبوع فى الكنيسة لاداء صلاة القداس . وما عدا ذلك من الايام ينصرفون الى العزلة التامة، فلا يزور احدهم الاخر الا فى حالة المرض أو لبعض الدواعى الروحية . ولهذا يرى البعض أن الرهبانية الانفرادية تعتبر نوعا من التطرف البعيد عن الحكمة وطبيعة الانسان الاجتماعية. على أية حال انتهت المرحلة الثانية بنجاح انطونيوس فى وضع أول نموذج للنظام الرهبانى فى مصر وهو (التوحيدية الجماعية).

أما عن المرحلة الثالثة فقد ترك القديس انطونيوس خلالها رهبانه فى بسبير وتوغل فى الصحراء، حتى وصل إلى جبل عال بوادى عربية على مقربة من جبال البحر الأحمر، وأقام فيه بقية حياته فى مغارة أو كهف، واعتمد فى طعامه على النخيل وماء النهر، ثم أمر تلاميذه الذين اعتادوا على زيارته فى مكانه الجديد بأن يحضروا له فأساً وبعض القمح، فقام بزراعة المكان ليسد



حاجته من الطعام. وظل في هذه المغارة ولم يغادرها في حياته وحتى وفاته عن عمر يناهز مائة وخمسة أعوام الا مرتين.

**الأولى :** خلال اضطهاد ماكسيمينوس للمسيحية والمسيحيين في عام ٣١١م وكان يقوم بزيارة السجون، ويتنقل بين المدن معرضا حياته للخطر. وبذلك يعتبر انطونيوس أول راهب وقف يحرك أحداث الكنيسة ويقف خلفها مؤيدا.

**والثانية:** عندما استفحل مذهب أريوس في عهد قسطنطين العظيم حيث نزل إلى المدن المصرية عام ٣٣٥م بعد مجمع صور، ليساعد القديس أثناسيوس في كفاحه ضد اتباع أريوس.

وعلى الرغم من وفاة انطونيوس في عام ٣٥٦ أو ٣٥٩م إلا أن الرهبانية الانفرادية التوحيدية والتوحيدية الجماعية أخذت تنتشر في سائر أنحاء مصر سواء في الوجه البحري أم في الوجه القبلي فوصلت إلى وادي النطرون على يد تلاميذه ومنهم أمون ومكاريوس ولعل ما ساعد على انتشار رهبانية القديس انطونيوس أن مراسم لدخول فيها كانت سهلة وبسيطة، فلا يطلب من الشخص عند قبوله في جماعة الرهبان سوى أن يقسم اليمين على أن يظل مطيعا طاهرا متقشفا، كذلك لايجوز أن يكون الراهب أو الراهبة من المنقطعين، فيصح أن يمارس حياة الزهد والتسك في داره أو مع جماعة صغيرة من رفقائه.

**رهبانية النساء الانفرادية (توحيدية وتوحيدية جماعية) :**

ومن الجدير بالذكر أن الرهبانية توحيدية كانت أم توحيدية جماعية لم تقتصر على الرجال فحسب، بل شملت النساء ايضا اللاتي لم تكن حياة الاعتزال لزاما عليهن، بل كان في استطاعتهن أن يقمن بحياة الطهر والتسك في بيوتهن أو في جماعات صغيرة من المسيحيات العذارى . وتجدر الاشارة الى أن حياة التسك كانت معروفة في العصور التي سبقت المسيحية في مصر،

وليس أدل على ذلك من وجود عدد من النساء لجأن الى معبد سيرابيس ومعبد آمون فى طيبة لممارسة حياة العزلة والتقشف والعبادة ومن امثلة هؤلاء " بى آمون " التى اكتسبت شهرة فى عصرها بفضل الدور، الذى قامت به لمنع احدى المعارك المألوفة فى مصر قديما بين قريتين بسبب تقسيم مياه الرى. وكانت تكسب ما يسد حاجتها وحاجة امها عن طريق الغزل والنسيج ومارست النسك والعبادة .

وانتشرت بيوت العذارى فى مصر خلال القرن الثالث الميلادى وكانت تحت اشراف الكنيسة، وتضم عددا من العذارى اللواتى فضلن حياة العذوبة ودربن أنفسهن على القداسة، وكرسن حياتهن للعبادة وخدمة الارامل والايتام والمرضى والمسنين. وفى احدى هذه البيوت وضع انطونيوس اخته قبل ممارسته حياة الرهبانية، ومن هؤلاء العذارى من تعرضن للاضطهاد والتعذيب على يد السلطات الرومانية ومن أمثلتهن القديسة دميانة الابنة الوحيدة لمقرس والى البرلس والزعفرانة بإقليم الغربية الذى كرس حياته، هو وأمها من أجل تربيتها، وتعليمها، وتنقيفها، وكانت جميلة الطلعة حتى أجمع المؤرخون على تسميتها (ربة الجمال والكمال). وعندما بلغت دميانة مبلغ الشباب أراد أبويها تزويجها، ولكنها رفضت وأرادت أن تكرر حياتها للعزلة والعبادة، وطلبت من ابياها أن يبني لها منزلا تقيم فيه وتتعبد بعيدا عن الناس، فبنى لها ابوها بيتا جهة الزعفرانة، واقامت فيه معها اربعون من العذارى، من بنات أكابر الولاية.

وعاصرت دميانة الامبراطور دقلديانوس، وحدث أن اضطر والد دميانة الى الخروج بصحبة الامبراطور دقلديانوس لتقديم القرابين للالهة الوثنية، خوفا على مركزه، وعندما علمت دميانة بذلك خرجت من عزلتها، وذهبت لمقابلة والدها، وأعربت له عن حزنها لما أبداه من خوف وتراجع، وقالت له "خير لك يا أبى أن تموت شهيدا فتحي مع المسيح، من أن تحيا وثنيا فتتموت مع الشيطان"،



فما كان من الأب ويدعى مرقس الا أن ذهب الى الامبراطور، وأعلن أمامه أنه مسيحي وأنه نادم على امتثاله لامر الامبراطور وتقديمه القرابين للالهة الوثنية، عندئذ أمر الامبراطور على الفور بقطع رأسه بالسيف، ولما علم الإمبراطور أن أبنته هي التي حرضته على عدم الأمتثال لأوامره، أرسل جنوده الى قصر الزعفرانة الذي تعيش فيه دميانة وصديقاتها من العذارى، وصب عليهن الامبراطور العذاب صبا، وتحملت دميانة ورفيقاتها العذاب في صبر وجلد شجع الكثيرين من أهل القرية على اعتناق المسيحية، مما دفع القائد الروماني الى أن يصدر أمرا بقتل دميانة والعذارى الاربعين.

وتجدر الإشارة الى أن القديسة هيلانة والدة الامبراطور قسطنطين العظيم مرت عند عودتها من بيت المقدس بمصر وذهبت لزيارة المكان الذي دفنت فيه القديسة دميانة وزميلاتها وأمرت بتشييد كنيسة فوق ذلك المكان، وأطلقت عليه اسم "كنيسة العذراء دميانة وزميلاتها"، ولا تزال هذه الكنيسة موجودة حتى اليوم على أرض مصر شاهد ودليلا واضحا على بطولة المسيحيات وما تحملنه من اضطهاد وتعذيب في سبيل نصره دينهن .

وإذا كان القديس اثناسيوس قد سجل سيرة حياة القديس انطونيوس بوصفه أب الرهبان وكوكب البرية فلم يمنعه ذلك من أن يسجل سيرة حياة "الراهبة سينكليتيكي التي يعتبرها بعض المؤرخين نداً للقديس انطونيوس ويعتبرونها بحق (أم الراهبات) وجماعات العذارى اللواتي أدهشن العالم. وذلك اعترافاً بدور الراهبات الذي لا يقل عن دور الرهبان فقد أوجدت سينكليتيكي أول جماعة رهبانية نسائية في العالم في مدينة الاسكندرية.

ولدت سينكليتيكي في اسرة غنية، وعاشت السنوات الأولى من عمرها في مقدونيا ثم استقر أبواها في الإسكندرية على مقربة من مدرستها الشهيرة ليسهل عليهما تعليم أبناءهما فيها، وقد تمتعت بجمال نادر إلى جانب الثراء الكبير،

لذلك جذبت أنظار الخطاب الأثرياء من كل صوب إلا أنها نبذت العالم بكل مغربياته، فقد كان لابوايها من الأبناء ولدان وبنتان، ولكن ما لبث أن توفي الولدان أحدهما في صغره والآخر يوم زفافه لذلك عزفت سينكليتيكى عن مباحج الحياة ومتاعها ومفانيتها، وقررت ان تكرر حياتها للعبادة والنسك والصوم والصلاة فى بيت والديها حتى فارقا الحياة، فقامت بتوزيع أموالهما على الفقراء والمحتاجين وأخذت أختها، وذهبت لتقيم فى مقبرة مهجورة ، محفورة فى الصخر، وظلت على ذلك بضع سنين جاء عدد من الشابات خلالها إليها للتبرك بها، ولمشاركتها حياة التنسك والتأمل، والعيش معها تحت ارشادها ونصحها وتوجيهها.

ثم تركت سينكليتيكى الإسكندرية لتعيش خارجها وكرست حياتها لخدمة زميلاتها فكانت قدوة لهن فأحببنها وأخلصن لها وأطعنها، وبمرور الوقت تكاثر عدد الراهبات حولها، وعاشت تمارس حياة الرهبانية حتى تعرضت لمرض شديد (السرطان) وتحملته بكل رضى وشكر رغم دوامه فترة طويلة، ثم تتيحت (أى توفيت). وقد كرمها القديس أثناسيوس بطريرك الإسكندرية فى ذلك الوقت، وأقام لها جنازة مهيبه وهو الذى كتب سيرتها ممثلاً أياها بأيوب الصديق، لتحملها آلام المرض الذى لا يحتمل، بصبر وإيمان.

ومن الأسباب التى دعت النساء للرهبانية : -

ترك الرجال الحياة واعتزلها بالرهبانية، مما ترتب عليه ترك النساء بدون زواج وبدون أزواج مما دفع رجال الكنيسة على تشجيع النساء على ممارسة الرهبانية. ومما ساعد على انتشار حياة الزهد والتنسك بين النساء ما لجأ اليه المسئولون عن الكنيسة من تشجيع النساء على حياة التبتل العذرى بالخطب والنصائح وتأليف الكتب التى ترشدهن الى كيفية ممارسة هذه الحياة . ومن اهم هذه الكتب " رسالة التبتل العذرى" التى كتبت فى القرن الرابع



الميلادي وتنسب الى القديس اثناسيوس . و تتضمن هذه الرسالة بعض النصائح للعلماء من بينها:

المواظبة على قراءة الكتاب المقدس فى المنزل، واداء الصلوات فى مواعيدها، وان ترتدى الراهبة ملابس متميزة حين تذهب الى الكنيسة أو للعمل، وأنه يجب عليها أن تتناول عشاءا خفيفا بعد التاسعة، وان تمسك عن شرب الخمر الى آخره . وبالرسالة نصائح اخرى عامة منها مساعدة الفقراء والمحتاجين، واذا لقيها رجل فاضل أى راهب فعليها أن تحسن لقاءه والاستماع الى نصائحه، وعدم التكبر على قريناتها، وأن تكون قدوة حسنة لهن .

وقد ترتب على ذلك ان كثر عدد العذارى اللاتى مارسن حياة الرهبانية خاصة وان القديس اثناسيوس اعتبر رهبانية العذارى طقس ملائكى كما اعتبرهن عرائس المسيح، وانهن ختمن عقدا مع المسيح الى الابد .

### موسى الاسود والرهبانية التوحيدية الجماعية :

وقد حمل لواء الرهبانية الانفرادية بعد وفاة انطونيوس اخرون منهم الراهب (موسى الاسود) الذى ولد فى عام ٣٤٠م، قيل أنه من إحدى قبائل البربر، وقيل أيضا أنه كان حبشيا، وكان فى أول عهده عبدا فى بيت مسئول مصرى، ولكنه طرده لسوء أخلاقه، وكان موسى الاسود ضخم الجثة، قوى العضلات، مفتول الساعدين، شرسا جدا، يميل الى أعمال اللصوصية وارتكاب الجرائم.

ولكنه مالبت ان ذهب الى دير وادى النطرون، والتقى برهبانه بعد أن سمع عن طهارتهم وحسن سيرتهم، واعلن توبته امامهم والندم على ما فعله بعد أن تلقى المعمودية، واعترف علنا فى الكنيسة بجميع اخطائه واقلاعه عنها . وقد احواله توبته هذه من كافر قاتل سارق إلى أب ومعلم وكاهن . وعاش موسى

الاسود في قلايته منفردا للصلاة والعبادة والتسك، لا يتناول سوى القليل من الخبز مرة واحدة فقط في اليوم . وصار أبا لخمسين من الرهبان، واستشهد في عام ٤٠٠ او ٤٥٥م كما يذهب البعض .ومن اقواله : (ابق في قلايتك وهي سوف تعلمك العمل والعبادة وهما خير لك). وأيضاً (السكون كنز الراهب).

ثانيا : الرهبانية الجماعية (الديرانية):

إذا كانت الرهبانية التي عاشها انطونيوس واتباعه رهبانية انفرادية (توحيدية جماعية) إذ عاشها كل راهب بمفرده، ودون ان يضمهم دير واحد، فانه لم يلبث أن ظهرت الرهبانية الجماعية أو المنظمة داخل دير واحد، والتي يطلق عليها اسم ديرانية جماعية. وقد ظهر هذا النوع من الرهبانية أول ما ظهر ايضا على ارض مصر.

تعتبر الرهبانية الجماعية الدور الثاني في تطور أنظمة الرهبانية المسيحية المصرية، ولا شك أن هذا التطور من رهبانية انفرادية الى جماعية أمرا طبيعيا انسانيا، وذلك لمواجهة الظروف القاسية والاطار والمخاوف، التي كثيرا ما تعرض لها اتباع الرهبانية الانفرادية خاصة وأنهم كانوا يعيشون في صحراء جرداء يصعب الحصول فيها على الغذاء والماء، فضلا عن قطاع الطرق من أهل البادية والحيوانات الضارية وغير ذلك. وهناك دافع اخر لتطور الرهبانية من انفرادية الى جماعية وهو الاضطهادات الدينية التي تعرض لها المسيحيون على يد الحكومة الامبراطورية وخاصة اضطهاد دقلديانوس، الذي دفع الرهبان الى توحيد صفوفهم واجتماعهم في مكان واحد ونظرا لكثرة اعدادهم فقد كانوا يشكلون جيشا لا يستهان به، وقوة يعتد بها.

والرهبانية الجماعية وهي التي يباشرها جماعة من الرهبان وليس فرد



واحد، وصاحب هذا النوع من الانقطاع هو (القديس باخوم)<sup>(١)</sup> الملقب "بأبي الشركة" لأنه أول من بدأ بالمعيشة المشتركة في الأديرة، تحت قانون واحد، ورئيس واحد، تعيش الرهبان تحت طاعته، وشعار واحد هو الزهد، التبخل، الطهارة. ولذلك إذا كان انطونيوس يعد رائد الرهبانية في مصر ومؤسسها الحقيقي، فإن باخوم (٢٩١-٣٤٨م) يعتبر واضع أسس النظام الديرى، الذى وضع لحياة الرهبانية نظمها وطرائقها، فحول الرهبانية التوحيدية الجماعة الى رهبانية جماعية ديرانية.

ولد القديس باخوم فى بلدة كينو بوسكيون Kenoboskion<sup>(٢)</sup> فى طيبة، ويقال أن مكانها الآن بلدة (قصر الصياد) الواقعة فى مديرية قنا بصعيد مصر ويختلف المؤرخون فى تحديد ميلاده، فيذهب البعض الى انه ولد عام ٢٧٥م فى حين يرى البعض الاخر أن ميلاده كان فى عام ٢٩٠/٢٩١م وهو من ابوين وثنيين ثريين، حاولا أن يربياه على المعتقدات الوثنية. ولما بلغ العشرين من عمره تطوع فى الجيش الرومانى، وحارب فى بلاد الحبشة تحت قيادة الامبراطور قسطنطين العظيم، وحضر مواقع عسكرية أظهر فيها مهارة فائقة، وكان لانخراطه فى سلك الجندية آثار من بينها: - أنها أخرجته من الجو الوثنى الذى كان يعيش فيه فى بلده، واتاحت له الفرصة للاختلاط والتعرف على المسيحيين وعاداتهم ودينهم فى مناطق اخرى، فحدث أن أقامت وحدته فى طيبة وقيل فى بلدة لاتوبوليس Latopolis (اسنا حالياً) فترة قصيرة، وجد خلالها معاملة طيبة من المسيحيين الذين خرجوا بالطعام والشراب إليهم دون مقابل، ولذلك ما كاد ينصرف عن الجندية حتى اعتنق المسيحية وهو فى الخامسة والعشرين من عمره، وتم تعميده فى قرية كينوبوسكون (فى نجع حمادى حالياً)

(١) باخوم كلمة من أصل قبضى معناها الباشق وهو نوع من أنواع النسور.

(٢) كلمه مأخوذة من اليونانية وتعنى الرهبانية أو مجموعة الأديرة.

ثم مال الى حياة الزهد والتسك، فتوجه الى أسوان، وتعلمذ على يد الانبا بلامون، الذي وضع له نظاما مبدئيا يعيش عليه، ويتمثل في أنه لا يتناول من الطعام الا كسرة واحدة من الخبز الجاف مع قليل من الملح مرة يوميا في اثناء الصيف، ومرة في كل يومين في فصل الشتاء، وأنه لا يستعمل الزيت ولا يشرب النبيذ، وأن يقضى الليل في ترديد المزامير والكتب المقدسة.

وكان دور التلمذة على يد بلامون عنيفا في مجمله، مليئا بتعذيب الجسد والصيام وسهر الليالي، وكان يعمل مع الانبا بلامون خلاله في غزل الصوف ونسج المسوح (لباس الرهبان). وقضى باخوم سبعة اعوام كاملة في رعاية أستاذه ومعلمه بلامون، ثم أخذ لنفسه معبدا مهجورا من معابد سرابيس، خاصة وان استاده بلامون نصحه بان يعتزل في صومعة لانه يتبع الحكمة القائلة (العزلة عبادة). ولم يلبث ان ضاق ذرعا بهذه الحياة الانفرادية التوحيدية، التي تبتعد عن طبيعة البشر، فالانسان اجتماعيا بطبعه .

ويروى (بلاديوس) في كتابه بستان الرهبان أن باخوم قد جاءه ملاك ليرشده إلى الطريق الذي يسلكه، وأخبره أن مدة تدريبه على حياة الرهبانية الانفرادية قد انتهت، وأن الساعة حانت ليجمع الرهبان في دير واحد لكي يعيشوا معيشة مشتركة، ثم سلمه الملاك لوحة نحاسية كتب عليها ست وصايا منها :

١- دع الراهب يتناول من المأكل والمشرب ما يشاء، والزمه بالعمل بقدر ما يأكل، ولا تنهه عن أكل . أما الضعفاء الذين يصومون يومهم فكلفهم بأعمال غير مضية .

٢- أقم لكل ثلاثة من الرهبان قلاية واحدة يأوون اليها .

٣- أن يتناول الطعام جميعا في قاعة واحدة .



٤- كلفهم ألا يفتروشوا الارض بل ينامون على مقاعد ذات مساند يستندون اليها في منامهم .

٥- يأمرهم أن يلبسوا في أثناء الليل -جلبابا بغير أكمام وأن يشدوا أوساطهم بحزام، وأن يغطى كل منهم رأسه بقلنسوة، وأن يزينوا مقدمتها بصليب أرجوانى .

٦- قسم الرهبان الى اربع وعشرين مرتبة او رتبة، وميز كل رتبة بحرف أبجدى من الالف حتى الياء، وكل حرف يميز صفة الراهب ونوع العمل الذى يؤديه، وسلوكه وتصرفه .

وسرعان ما شيد القديس باخوم أول دير عرفته المسيحية فى (طابنا)<sup>(\*)</sup> قرب اخميم فى عام ٣٢٣م ليجمع فيه الرهبان الملتفين من حوله، ولم يكن هذا الدير هو الوحيد الذى أنشأه باخوم، بل بنى اديرة كثيرة، بلغ عددها تسعة اديرة للرجال واثنان للنساء، وضمت هذه الاديرة آلاف الرهبان، وسرعان ما تزايد عدد الاديرة الباخومية حتى بلغ عدد الاديرة الباخومية فى عام ٥١٨م خمسة وثمانين ديورا - فيما بعد - ضمت كافة الاجناس، وكانت هذه الاديرة تتبع رئاسة باخوم الشخصية المباشرة، وكان يقوم بجولات تفتيشية عليها مرتين سنويا، احدهما فى أبريل والاخرى فى اغسطس تحديدا ليتأكد من حسن سير العمل فيها جميعا، والاطلاع على أعمال وتقارير الاديرة وخط سيرها.

وضع باخوم لديره تنظيمات شبه عسكرية، ولعله تأثر فى ذلك بما شهده

---

(\*) وهى دندرة حاليا شمال فاو الحالية بمحافظة قنا على بعد ٨٠ ك.م جنوب أسيوط وكلمة طابنا تعنى باللغة المصرية القديمة "نخل ايزيس". ويتكون الدير من مجموعة من المباني يحيط بها سور، وفى داخل هذا السور توجد القلايات التى يقيم فيها الرهبان، كما توجد كنيسة وقاعة للطعام ملحق بها المطبخ، وقاعة للاجتماعات ومكتبة وورش العمل. كذلك يوجد بداخل الدير دار للضيافة ومنزل لإقامة حراس مدخل الدير.

فى الجيش الرومانى من نظم، فجعل للدير رئيسا يشرف على اعضاء الدير وله السلطة المطلقة عليهم، وكان لكل رئيس نائب يساعده فى الاشراف على الاعمال اليومية العادية، التى يتطلبها الدير. وكان لكل دير أمين على خزائن الدير ومخازنه وهو المسئول عن ترتيب بيع الفائض من حاجات الدير، وعمل الحسابات الخاصة بذلك، كما كان للمكتبة خازن يكون من النساخ عادة.

وفرض باخوم على اعضاء الدير الطاعة والهدوء والنظام والعمل اليدوى، بل ونظم اوقات الطعام، فكان يقدم الطعام للرهبان فى قاعة المائدة مرتين كل يوم، ومواعيد تقديمه فى الظهر، وفى المساء، ويتكون الطعام عادة من الخبز والخضر والحساء والجبن والفاكهة، وهذا يعنى أن الرهبان الباخوميين كانوا نباتيين لا محل لأكل اللحوم عندهم، كما كانوا لا يشربون النبيذ الا عند الضرورة كحالات المرض مثلا .

وكان على الراهب أن يدخل قاعة الطعام حاف القدمين بعد أن يخلع نعليه عند باب القاعة أو المطعم، حتى لا يزجج غيره من الرهبان، ويتخذ مكانه فى سكون، ويأكل ما يوضع أمامه من طعام وهو ملتزم الصمت . وتوجد منضدة فى صدر قاعة الطعام، يقف أمامها أحد الرهبان، ويقرأ التراتيل والترانيم حتى ينتهى الرهبان من تناول الطعام .

كذلك نظم باخوم أوقات النوم، وكانت القاعدة هى سكنى الرهبان ثلاثة فى كل قلاية من قلايات الدير، اذ كان بكل قلاية ثلاث مصاطب لكل منها رأس مرتفعة، مصنوعة من الطين على شكل وسادة، وكان على الرهبان ان يستيقظوا فى منتصف الليل ليقوموا بالتسابيح والتراتيل والصلاة والتأمل.

وكان الدير الباخومى صورة للنشاط والحركة مع مثابرة وانتظام فى تأدية الفروض الدينية. اذ جرى تقسيم العمل اليومى بين تأدية الاعمال الضرورية والهامة للحياة، وبين تأدية الطقوس الدينية والصلوات بالكنيسة وتلاوة الانجيل.



وكان من الرهبان من يعمل فى الحدادة أو النجارة أو فى تنظيف الثياب أو فى صناعة السلاسل أو الدباغة. ومنهم من يقوم بحياكة الملابس أو نسخ الكتب الدينية والانجيل أو بتعليم الرهبان مبادئ الديانة وأصولها، كذلك كان من بين الرهبان من يعمل فى الحقل أو فى الحديقة.

وكان الرهبان يرتلون المزامير وغيرها أثناء العمل فى نظام، وكان العمل اليدوى يهدف الى أن يكسب الراهب عيشه بعرق جبينه، وأن يشغله العمل عن التعرض للتجارب والافكار الشريرة. ومن ثم كان الدير الباخومى مجتمعاً مهنياً يكفى نفسه بنفسه، بل ويقوم بتغطية احتياجات المناطق المجاورة له والى جانب تأدية الاعمال الضرورية للحياة، كان الرهبان يجتمعون بالكنيسة للصلاة ثلاث مرات فى اليوم فى الصباح الباكر، وعند الظهر، وفى المساء أما تأدية القداس فيومى السبت والاحد حيث يتناول الرهبان العشاء الربانى " العشاء الأخير للسيد المسيح مع تلاميذه".

والى جانب العمل اليدوى قضى باخوم على الامية فى أديرته قضاء مبرم وجعل معرفة القراءة والكتابة شرطاً من شروط الدخول فى الدير، ثم أنه نظم ثلاثة دروس يومية للمبتدئين، فى الساعة الواحدة والثالثة والسادسة، ودروساً أخرى يقوم بها رؤساء الأديرة لتفسير الكتب المقدسة والتعاليم المسيحية، وكان حضورها إجبارياً لجميع الرهبان فى يومى الصيام الاسبوعى اى يومى الاربعاء والجمعة، كما كانت مكتبة الدير مفتوحة على مصرعيها للقراءة والاطلاع .

أما بالنسبة للرهبان الجدد فكان عليهم أن يقضوا ثلاث سنوات تحت التمرين، ويقومون خلالها فى بيت على مقربة من بوابة الدير، وعليهم خلالها أن يتعلموا القراءة والكتابة إن كانوا يجهلونهما، وعندما تثبت أهليتهم للرهبانية يتركوا البيت الذى بجوار البوابة، ويقوموا فى قلايات الدير، ويتسلمون الزى الرهبانى المكون من قميص بدون أكمام ويشدوا الوسط بحزام، ورداء خارجى

فضفاض بدون أكامام كذلك، مصنوع من جلد الماعز، وعباءة وقلنسوة للرأس منقوش عليها علامة الدير.

وأُتسم باخوم بالشدّة والصرامة مع المخالفين، وكان للعقاب درجات من بينها التوبيخ العلني، والحرمان من وجبات الطعام أو العقاب البدني كالجلد بالسياط وحبس الراهب في قلايته، ومنها أيضا الحرمان والطرده من الدير .

ظل باخوم يعمل جاهدا في سبيل تدعيم أديرتة حتى توفي بمرض الطاعون، الذي تعرضت له مصر في عام ٣٤٨م، وذلك بعد أن وضع بذور الرهبانية الجماعية في مصر. على أن وفاة كل من انطونيوس وباخوم لم تعن أن الرهبانية والحركة الديرية قد توقفت في مصر بعد وفاتهما، وانما كان كل من انطونيوس وباخوم روادها ومؤسسيها، فلم تلبث الديرية الجماعية أن انتشرت بعد ذلك وظهرت في أرض مصر جماعة كبيرة من الرهبان، الذين حملوا راية الحركة الديرية، ومن هؤلاء: (شودة الادريبي) (\*).

### رهبانية النساء الجماعية الديرانية :

ولم تجتذب أديرة باخوم الرجال دون النساء، بل اجتذبت عددا كبيرا من العذارى والنسوة، وكانت أولى هؤلاء العذارى ( مريم شقيقة باخوم ) نفسه، فقد ذهبت الى الدير في أحد الايام لتسأل عن أخيها، فبعث اليها برسالة يقول فيها: "يكفى أن تعرفي أنني في صحة جيدة، وأنتى حى سالم وأن رغبتى فى أن تتشبهى بى، فأنتى ابنتى لك ديرا تقضين فيه حياة النساك، وأنتى لوائق من أن كثيرات من العذارى سيقتنن بك"، فأزرفت مريم الدموع، ولبت دعوة أخيها، وحدث حذوه، لذلك أمر باخوم بعض رهبانه أن يبنوا لها ديرا على مقربة من

(\* ) الأديبي نسبة الى جبل ادريب، الذى يقع الدير الابيض فى اسفله، وسمى بذلك نسبة الى مدينة فرعونية فى المنطقة تسمى ادريب Adrab وقد استخدم شودة بعض أحجار هذه المدينة فى بناء الدير الأبيض.



ديره، وعرف هذا الدير بأسم(دير العذارى)، وعين له باخوم شيخا من شيوخ رهبانه يدعى بطرس. وسرعان ما كثر عدد العذارى اللاتي التحقن بهذا الدير حيث بلغ اربعمائة من العذارى، ثم انشأ باخوم ديراً آخر للنساء ووضع لهن نفس النظام والقوانين التي وضعها للرهبان الرجال، وتبع ذلك انتشار اديرة النساء في أنحاء مصر، وكذلك انتقل هذا النظام الى خارجها.

ويذكر الرحالة بلاديوس الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الميلادي أنه زار ديراً للراهبات في اتريب (أديب) بجوار اخميم بناه أحد ملاك الارض الأغنياء، واشرف على ادارته أحد شيوخ الرهبان الذي أقام في حجرة عالية لاتصل بالراهبات في داخل الدير، ولكن يفتح بابها الى خارج الدير . ويبدو أن وظيفة هذا الشيخ لم تتعد مراقبة الراهبات في بعض الأوقات، وكذلك تزويدهن بالتعاليم والعظات من مكانه المرتفع .

ومن اديرة النساء كذلك عدة اديرة في انطينوس أو انطينوى Antinopolis (انصنا) — هي قرية الشيخ عبادة في ملوى بأسويط حالياً — زارها بلاديوس وكانت هذه الاديرة تحت اشراف الام (تاليدا)، وكان يعيش تحت رعايتها وفي كنفها ستون راهبة، وكن جميعا يحبونها ويطعن أوامرهما عن رضى، وليس أدل على ذلك من أن بوابة الدير، كانت تظل مفتوحة طول النهار، ولا تستطيع احدهن أن تخرج دون أن تحصل على تصريح منها، وظلت الام تاليدا تدير هذا الدير حتى بلغت الثمانين من عمرها، ويذكر بلاديوس أنه ذهب لزيارتها ونال بركتها.

ومن النساء اللواتي كرسن حياتهن للبروالقداسة في مصر أيضا (الأم ثيودورا) التي ولدت في الاسكندرية، ونشأت فيها، وكانت معاصرة للبطريرك أثناسيوس، وعندما بلغت مبلغ الشباب، أراد أبوها أن يزوجها، ولكنها أعلنت عن رغبتها في ممارسة حياة الرهبانية، وقامت ببيع كل ما تمتلكه من ثياب وحلى وشيدت بئمنها كنيسة غربي الاسكندرية، وبنيت داخل الكنيسة غرفة

لسكنها الخاص. وقضت ثيودرا حياتها من أجل مساعدة الفقراء والمحتاجين ممن جاعوا يطلبون مساعدتها، فلم ترد أحداً دون إجابة طلبه. وما لبثت أن رسمت راهبة على يد بطريك الاسكندرية، ثم أما لعدد من الراهبات عشن معها فى دير بالاسكندرية، وكانت تعلمهن وتسهر على رعايتهن بلا ملل أو كلل حتى وافتها المنية بعد أن بلغت المائة من عمرها.

### شئودة الادرىبى الابخمى ونظامه الديرى (٣٣٣-٤٥١م) :

ولد شئودة الادرىبى أو الأخمى فى عام ٣٣٣م وقيل ٣٣٤م، فى بلدة قرب أخمى (تدعى شندويل) بصعيد مصر، لذلك يعرف بالاخمى وكان والده ابجوس مزارعا من ذوى اليسار إذا كان يمتلك أرضاً واسعة وأغناما كثيرة، وتدعى أمه دوربا، واشتهر ابواه بالتقوى والفضيلة، وكان شئودة يميل منذ نعومة أظافره الى الصلاة والصوم والتقشف، وحب الصدق، وعمل الخير لذلك اصطحبه أبوه يوماً وهو فى التاسعة من عمره لزيارة خاله بيجول فى دير - على بعد خمسة كيلو متر غرب سوهاج - وكان من الرهبان ذائعى الصيت ذلك الحين وممن يمارسون رهبانية القديس باخوم.

ولم يقدر للفتى شئوده العودة إلى منزله ثانية بصحبة أبيه ابجوس، بل ظل ملازماً لخاله بيجول، الذى طلب من والده أن يدعه عنده لمدة أسبوع حتى يختبره - كما يذكر الانبا ويصا - كاتب سيرة حياة القديس شئودة، ونجح شئودة فى الاختبار بجدارة، فقد رأى خاله الأنبا بيجول مكبا على العبادة والصلاة، متقشفاً فى طعامه وشرابه، لذلك رسمه راهباً، والبسه الأسكيم<sup>(\*)</sup> وهو فى هذه السن الصغيرة، وبذلك دخل شئودة فى زمرة الرهبان والنسك، وعنى الانبا

(\*) كلمة قبطية معناها شكل وهى عبارة عن قطعة من الجلد المضفور تتخله الصلبان على ابعاد متساوية وهو يحيط بمن يرتديه من الأمام والخلف، وبه صليبان كبيران أحدهما للصدر والآخر للظهر ثم اثنى عشر صليباً صغيراً من الجلد المضفور . ويلبس الاسكيم النسك الذين بلغوا درجة عالية من النسك والتقشف .



بيجول بتتقيف شنودة، وعمل على تدريسه الكتاب المقدس دراسة عميقة، مما ترك أثراً واضحاً فيما بعد في قدرته على الخطابة، والبلاغة في الكتابة. كذلك اهتم الانبا بجيل بأن يتقن شنودة اللغتين القبطية واليونانية، فنبغ في الأولى نبوغاً عظيماً، ودرس الثانية دراسة جيدة، وعن طريق هذه اللغة امكنه التفاهم مع الحكام من البيزنطيين، ولذلك احتل شنودة مكانة مرموقة بين زملائه من الرهبان.

وبعد أن مات خاله بيجول أصبح شنودة رئيساً للدير في عام ٣٨٣م أو ٣٨٥م، وقام شنودة بعدة اصلاحات جديدة في هذا الدير وبصفة خاصة الكنيسة التي شيدها وهي كنيسة الدير العظمى (اي الدير الابيض)<sup>(١)</sup> وهي من اضخم ما شيده القديس شنودة في عهده، كما شيّد كنيسة اخرى بالواحات. وكان لديره تأثير كبير على الاقاليم المجاورة له، ولذلك جاءه الزائرون من مشارق الارض ومغاربها من سوريا والقسطنطينية، ومن اليونان وروما وبلاد الغال واسبانيا وغيرها.

ولما تزايد عدد الرهبان في عهد شنودة الدير في دير، سارع بانشاء عدة أديرة أخرى خاصة بعد أن بلغ عدد الرهبان في عهده ٢٢٠٠ راهباً، كما اقام ديراً للنساء بعد أن تزايدت اعداد الراهبات منهن في ممارسة حياة التمسك والرهبانية، وجعل هذا الدير الاخير تحت رئاسته، وبلغ عدد الراهبات فيه ألف وثمانمائة راهبة، لذلك شرع في بناء دير آخر للراهبات، واختار لهن رئيسة تدير شئونهن، وكتب رسائل عديدة للراهبات بغرض تعليمهن وارشادهن وتثبيتهن على الايمان القويم، شأنه في ذلك شأن القديس اثناسيوس.

(١) لدير الابيض يبعد عن سوهاج بحوالي ٨ كم.م، وسمى بهذا الاسم لأنه شيّد أغلبه من الحجر الجيري، على طراز معابد مصر القديمة، وهو ينفرد بهذه الخاصية عن سائر الاديرة الأخرى، وشيّد في عام ٣٨٣م.

أما عن شروط القبول في رهبانية شنودة، فهي ان يعيش الراهب عيشة الفقر الاختياري، العفة والطاعة، ودراسة الكتاب المقدس، والاهتمام بالعمل اليدوي.

### نظام الأنبا شنودة الرهباني الديراني :

قام الأنبا شنودة بوضع سلسلة من القوانين والتنظيمات الديرية، تشبه قوانين القديس باخوميوس، التي سار عليها خاله الأنبا بجول، ولكنه طورها حتى تتلائم مع عصره، ومع احتياجات الرهبان، ومع الدور الذي بدأت تلعبه الرهبانية في حياة الكنيسة. فيذكر ويصا " أن أبى الطاهر أنبا شنودة قد وضع تعاليم كثيرة ... ووضع قوانين لأولاده الرهبان ولغير أولاده من سائر الرهبان القديسين".

**فبالنسبة للرهبان الجدد :** كان على طالب الرهبانية أن يقضي فترة اختبار لبعض الوقت خارج الدير، وليس داخله، كما في نظام القديس باخوميوس حتى تتكشف استعداداته لممارسة حياة العبادة والزهد والتقشف، فإذا أثبتت صلاحية، أجزى، وسمح له بدخول الدير، والإقامة فيه ومساواته في الحقوق والواجبات مع بقية رهبان الدير على اختلاف مراتبهم، وهذا ما كان يحدث في أنظمة القديس باخوميوس والأنبا بجول، ولكن الجديد الذي أدخله الأنبا شنودة أنه على الراهب المستجد أن يقدم عن نفسه تعهدًا كتابيًا يحفظ في أرشيف الدير للدلالة على طاعته، وقد أشار إليه الأنبا ويصا، كما أوردت المخطوطات القبطية صورة هذا التعهد أو الميثاق على النحو التالي : " أتعهد أمام الله في هذا المكان المقدس، وتشهد عليّ الكلمات التي تخرج من فمي، أنني لن أذنب جسدي بأيّة وسيلة، ولن أسرق، ولن أشهد زورًا، ولن أكذب، ولن أباشر بأيّة طريقة أعمال الغش في الخفاء، فإذا نقضت هذا العهد فلأشاهد ملكوت السموات دون أن أدخلها، وليعذب الله نفسي وجسدي في نار جهنم إذا نقضت هذا العهد الذي



أخذته على نفسي في حضرته ."

ويلاحظ أن صورة هذا التعهد تختلف عن صورة التعهد الذي سبق وأخذه الأنبا بجول على رهبانه، إن كان كلاهما يستهدف تقوية مركز رئيس الدير ومقدمه، خاصة في حالات الجدل والمناقشة، مع عدم التفريط في حقوق الرئاسة التي اكتسبها الأنبا بجول والأب شنودة من الدير الباخومي.

أما عن نوعية رهبان أديرة الأنبا شنودة، فقد كانوا مصريين خلص على عكس أديرة القديس باخوميوس، التي كانت أديرة دولية عالمية الطابع، تضم بين جنباتها الرهبان المصريين والأجانب، فترى فيها الراهب المصري والبيزنطي واليوناني والأفريقي واللاتيني على السواء، أما أديرة شنودة فكانت مصرية الطابع لا يدخلها إلا الرهبان المصريون. ولعل هذا كان واحداً من الأسباب التي جعلت الكثير من الرحالة الأجانب، الذين زاروا مصر وأديرتها يؤثرون انصمت. ولا يذكرون شيئاً البتة عن شنودة وأديرته، ومن أبرز هؤلاء: روفينوس الذي قضى بمصر ستة أشهر خلال عام ٣٧٣م، وجيروم الذي جاء إلى مصر عام ٣٨٦م لزيارة أديرتها، وكذلك الرحالة الشهير بلاديوس أسقف هيلينوبوليس Helenopolis الذي قضى السنوات من ٣٨٨-٣٩٩م في طيبة، ومن ٤٠٦-٤١٢م في وادي النطرون، والرحالة كاسيان الذي جاء إلى مصر بين عامي ٣٩٠، ٤٠٠م وزار أديرتها حتى طيبة. وليس من المعقول أن هؤلاء الرحالة الذين أقاموا في مصر كانوا يجهلون أديرة الأنبا شنودة، ولكن أغلب الظن إنهم سمعوا قسوة قوانينها، وصعوبة الحياة في ظلها لذلك لم يستسيغوا مبادئها، وآثروا عدم التحدث عنها وعن مؤسسها. كما أن البعض أرجع السبب في ذلك إلى وجود حاجزي اللغة والثقافة بين العناصر الإغريقية اليونانية وبين المصريين.

وإذا كانت أديرة شنودة قد أغلقت أبوابها أمام الأجانب فقد فتحتها على



مساريعها أمام المصريين من أفراد الشعب، الذين كانوا يأتون إليها أيام الأحاد والأعياد لمشاركة الرهبان صلاة القداس، وطلب المشورة، والاستماع إلى خطب القديس ومواعظه، والارتشاف من تعاليمه، مما قوى روابط الاتصال بينه وبين شعبه. ومن ثم فإن أديرة شنودة كانت أديرة مفتوحة، أما أديرة باخوميوس فكانت أديرة مغلقة قاصرة على الرهبان دون غيرهم.

ولم تجتذب أديرة الأنبا شنودة أفراد الشعب فحسب، بل اجتذبت كثير من الرهبان والراهبات، فيذكر الأنبا ويصا أنه كان تحت يده " ألفان ومائتين راهب، وألف وثمانمائة راهبة ... سوى الصغار والمهتمين بهم "، وسرعان ما تزايدت أعداد هؤلاء الرهبان والراهبات بدليل ما يذكره المقريري من أنه " كان تحت يده ستة آلاف راهب " وأخذ الأنبا شنودة على عاتقه تهذيب هؤلاء الرهبان وتعليمهم وإرشادهم إلى الحياة الديرية الصحيحة. ولم يعتن الأنبا شنودة بالرهبان فحسب، بل اعتنى كذلك بالراهبات، فعندما تزايدت أعدادهن ابتنى لهن ديرًا خاصاً بهن، ووضع لهن نظامًا يتناسب مع طبيعتهن، كأن يقمن بحياكة ثياب الرهبان، على أن يمدنهم بما يحتجن إليه من منتجات أديرة الرهبان، وقد اختار لهن رئيسة تدير شئونهن، ولم يكتف بذلك بل كتب العديد من الرسائل لهؤلاء الراهبات، الغرض منها تعليمهن، وإرشادهن، وتثبيتهن على الإيمان القويم، وتشجيعهن على ممارسة حياة البتولية (العذوبة) محاكيًا بذلك القديس اثناسيوس، الذي ألف رسالة تحت عنوان " التبتل العذري " ذكر فيها العديد من النصائح والإرشادات لمن تريد أن تمارس حياة البتولية.

شجع الأنبا شنودة رهبانه على ممارسة الرهبانية التوحديّة أي حياة العزلة والانقطاع للعبادة والعمل في جوف الصحراء - إلى جانب ممارستهم للحياة الديرية الجماعية - فقد اعتاد منذ صباه الانقطاع في البرية بمفرده للعبادة والتأمل والعمل كذلك، واستمر يمارس هذا النوع من الرهبانية حتى بعد توليه



رئاسة الدير الأبيض، ولم يجرؤ أحد من رهبانه على الاقتراب منه أثناء عزلته، بل أن تلميذه ويصا، ونائبه في الدير، وكاتب سيرته، كان يتردد كثيراً قبل أن يذهب إليه حينما يطرأ عذر قاهر، لأن الأتبا شنودة كان ينهره قائلاً له : " ألم أقل لكم لا ترسلوا ولا تتعقبوني في هذا الاسبوع". ويذكر في موقع آخر، أن أمراً هام اقتضى استدعاء الأتبا شنودة إلى الدير ولكن "خشينا أن نمضي إليه لأنه أوصانا قائلاً : " لا تدعوا أحداً يدخل إليّ ". أي يذهب إليه في البرية ويقطع عليه عزلته.

وكان الأتبا شنودة يسمح لرهبانه الذين حاكوه ومارسوا حياة العزلة والرهبانية التوحيدية في البرية، بأن يحضروا إلى الدير للحصول على احتياجاتهم من الطعام والشراب والملبس، وكذلك لحضور اجتماعات الدير السنوية وعددها أربعة، وذلك للتشاور في أمور الدير، فيذكر الأتبا ويصا أن المسئول عن مزرعة البقول في الدير، وأمين مخازنه، كان يوزع منها على المتوحدين وغيرهم من الرهبان، كما يذكر في موضع آخر أن الراهب ايساد - وكان خبيراً في الفلاحة وماهر في غرس الأشجار والبقول - كان كريم اليد وبخاصة مع الأخوة المنفردين في الكهوف والقاطنين في المقابر والسواح الذين في الصوامع، وكان يحمل إليهم البقولات وما يقع به من الفواكه .

وجمع رهبان الأتبا شنودة بذلك بين الرهبانية التوحيدية التي مارسها " أبو الرهبان " القديس انطونيوس وبين الرهبانية الجماعية الديرانية التي مارسها الأتبا باخوميوس، إذ كان الأتبا شنودة من أشد المعجبين بنظام القديس أنطونيوس فيروي الأتبا ويصا أن جماعة من رهبان وادي هيب الجبل المعروف بميزان القلوب، تجادلوا مع أبي القديس وقالوا : أتري في هذا الجيل أو في الأجيال الماضية راهب يعادل أبونا أنطونيوس أو شبيهه في نسكه وفضائله وعبادته . فقال لهم أبي " لو جمعتم رهبان هذا العالم بأسره ...



وجميع من يأتي بعد هؤلاء لا يعادلوا أنطونيوس الواحد مع الأخوة ". وهذه العبارات تنم عن تقدير عظيم للقديس أنطونيوس ونظامه الرهباني مع الدعوة للسير على منواله في ممارسة حياة الرهبانية التوحيدية، التي يعد أنطونيوس رائدها ومؤسسها ومعلمها.

واستحق الأنبا شنودة - من جراء ممارسته ورهبانه الحياة التوحيدية الانفرادية - أن يلقب بالأرشمندريت أي رئيس المتوحدين كما تتبأ له من قبل خاله بجول، الذي يعد أول من لقبه بهذا اللقب عند لقائه الأول به وهو مازال صبيًا صغيرًا. ثم تلقب به رسميًا على يد البطريرك كيرلس بطريرك الإسكندرية أثناء انعقد المجمع المسكوني العالمي الثالث في أفسوس عام ٤٣١م.

ووضع الأنبا شنودة لأديرته نظامًا ثابتًا للإدارة، أسوة بما وضعه الأنبا باخوميوس، فجعل لكل دير رئيس، يشرف على أعضاء الدير وله السلطة المطلقة عليهم، ويقيم داخل الدير مع الرهبان يعظهم ويعلمهم ويرشدهم، وكان لكل رئيس نائب يساعده في الإشراف على الأعمال اليومية العادية، التي يتطلبها الدير، وكان الأنبا ويصا يلعب هذا الدور في دير أستاذه ومعلمه الأنبا شنودة فكان يقوم بين يديه، ويفذ أوامره، ويساعده في الإشراف على أعمال الدير، ويحل محله في غيابه عن الدير. كذلك جعل الأنبا شنودة وكيلًا للدير من الأخوة الرهبان المتقدمين في السن، والمشهود لهم بالتقوى والورع، يقوم بتعهد أمور الرهبان، ويسعى لقضاء حوائجهم، ويعامل الكل سواء بسواء دون محاباة، ويكون أمينًا فيما سلم إليه، لذلك يطلق عليه كذلك " أمين الدير ". وكان لكل دير " خازن " يتعهد ما في خزائن الدير من أطعمة ومعدات، وهو المسئول عن ترتيب بيع الفائض من حاجات الدير، وعمل الحسابات الخاصة بذلك، ولا يستطيع أن يصرف شيئًا مما في عهده إلا بأمر من أمين الدير. وبجانب ذلك كانت هناك إدارات خاصة بكل فرع من فروع العمل كالمطبخ، والفرن،



والمخازن، والمائدة، والزرع، وغيرها؛ وكان على رأس كل منها أمين كذلك.

وحدد الأنبا شنودة أوقات العبادة، ونظم الصلوات للرهبان فجعلها أربع صلوات على النحو التالي :

١- صلاة قصيرة ترددها كل مجموعة من الرهبان قبل البدء في العمل المنوط بها وعند الانتهاء منه.

٢- صلوات انفرادية خاصة يؤديها الرهبان داخل قلاياتهم، وتتضمن بعض المزامير والتسابيح، وبما أنها خاصة فقد تركت الحرية لكل راهب في ما يقول ويرتل وفي المواعيد التي يختارها.

٣- صلوات جماعية يؤديها الرهبان في كنيسة الدير، أربع مرات يوميًا في الصباح، وعند الظهر، وعند الغروب وبالليل، وكان الرهبان يهرعون جميعًا لحضورها في صمت وهدوء.

٤- صلاة القداس يوم الأحد وكما كان متبع في الأديرة الباخومية - أن تكون خاصة بالرهبان وحدهم - ولكن في أديرة شنودة، كان يسمح لأفراد الشعب وسكان المناطق المجاورة بالمجيء إلى الدير مساء السبت من كل أسبوع لحضور صلوات المساء، وتظل الكنيسة مفتوحة ومضاءة حتى انتهاء الصلاة في اليوم التالي، ثم يدعوهم الأنبا شنودة جميعًا إلى تناول الغداء على موائد أعداها لهم الرهبان خصيصًا، وكانوا يخدمونهم بأنفسهم ساعة الأكل، ثم يعظهم الأنبا شنودة ويرشدتهم، وينصرفون بعد ذلك إلى بلادهم.

ونظم الأنبا شنودة أوقات الطعام، فكان يسمح للرهبان بوجبة واحدة فقط في اليوم، وليس وجبتان كما في أديرة القديس باخوميوس، يتناولها الراهب أما في المساء أو الغداة، وتقتصر على الخبز والخضر والبقول، أما اللحم والنبيد والبيض والجبن والأسماك فهي من الأطعمة المتنوعة في أديرة شنودة، إلا أن

المرضى والضعفاء كان يسمع لهم بتناول هذه الأطعمة الممنوعة، فالرحالة بلاديوس يتحدث عن رجل يدعى أبو للونيوس التاجر كان يمضي إلى الإسكندرية لشراء احتياجات الأخوة المرضى من الرهبان، وكان يمر يوميًا على قلايات الرهبان في الأديرة من الفجر حتى الساعة الثالثة عصرًا ليعطيهم طلباتهم، وكان يحمل لهم الرومان والكعك والزيت والبيض وكل ما يحتاجون إليه. واهتم الأنبا شنودة بالأخوة الرهبان المرضى، وحرص على زيارتهم باستمرار، وكان يجلس إلى جوارهم ويواسيهم، وقد أورد تلميذه الأنبا ويصا الكثير من الأمثلة، التي توضح عنايته بهؤلاء الأخوة المرضى حتى يمتثلوا للشفاء.

وعني الأنبا شنودة عناية فائقة بالعمل داخل الدير، فجعله إجباريًا، بل وشرطًا من شروط دخول الدير، وسن القوانين بشأنه ومنها :

١- غير مسموح لمن يريد الدخول أو الانضمام إلى مجتمعنا في أي وقت ليصبح راهبًا أن يقول : " أنني سأواصل في هذا المكان العمل الذي بدأت في بيتي وأكملة هنا ما لم يصدر له أمر بذلك ."

٢- كذلك غير مسموح له بأن يقول : " إن العمل الذي من أجله جاء إلى هذا المكان هو دراسة الكتاب المقدس أو تعلم الكتب التي وضعت لنا ."

٣- إذا لم يرغب أحد في العمل في غير حرفته، التي كان يمارسها في بيئته الأولى، على أساس أن هذه الحرفة هي التي يتقنها فقط فقولوا له : " إذا كنت قد أتيت إلى هذا المكان لتعمل في حرفة معينة فقط ولا تعمل من أجل خلاص نفسك، فأمامك المكان الذي أتيت منه، عد إليه لتمارس حرفتك الأولى ."

٤- إذا كنت لا تريد أن تعمل أي عمل سوى ما تعلمته في موطنك، فمن ذا الذي يؤمن بأنك ستترك أعمالك جانبًا، وشئونك الدنيوية والجهل والفساد،



وسائر الأمور الشريرة لكي تتهذب وتتطهر، وتتقي نفسك، وتعمل كل شئ حسناً وفق ما تؤمر به، لأن كل من جاء إلى هذا المكان لا يجب أن يعمل حسب إرادته، بل حسب إرادة الرب.

وتتبع هذه القوانين من إدراك الأنبا شنودة لأهمية العمل، فهو من ناحية يشغل فراغ الراهب، ففي عرفه : " أن من يعمل يهاجمه شيطان واحد، ومن لا يعمل تهاجمه شياطين عدة ". وبالتالي فالعمل يلهي الراهب عن التفكير في أمور الدنيا وشروورها، ومن ناحية أخرى فإن العمل يوفر التغذية لرهبان الدير، ومساعدة المحتاجين الذين يفدون إلى الدير، وقد ضرب الأنبا ويصا العديد من الأمثلة الدالة على ذلك، ومنها ما جاء على لسان القديس شنودة نفسه " ونحن في كل حين نعطي الفقراء والمساكين " ويذكر الأنبا ويصا في موضع آخر : " في كل سبت يأتي إلى أبي مساكين كثير يقربون من يديه الطاهرة ... فنقدم للجموع بمائدة فأكلوا جميعهم ... " .

أما عن الأعمال المهنية، التي كان يؤديها الرهبان في أديرة القديس شنودة، فهي عديدة، وإن كان المقريري قد ذكر : " وكان (أي الأنبا شنودة) يتقوت هو وأياهم (أي رهبانه) من عمل الخوص ". ويتضح من عبارة المقريري هذه أن العمل في أديرة شنودة كان قاصراً على صناعة الخوص فحسب، ويبدو أن ذلك كان في بداية الأمر، لأن الأعمال داخل الدير ما لبثت أن تعددت بتضاعف أعداد الرهبان، ففي داخل الدير كانت تمارس أعمال النجارة والحدادة والحياسة، والطحن والعجن والخبز والطهي، وصناعة الحصر والمقطف من سعف النخيل، أما في خارج الدير فهناك أعمال الزراعة من حرث وزرع وحصاد ودرس وتخزين، ورعاية للماشية، وري البساتين وغير ذلك. أما المتعلمون من الرهبان فقد خصهم القديس بتعليم الرهبان الخط والقيام بنسخ الكتب المقدسة وتمويه حروفها بماء الذهب.



وكان العمل يسير وفق نظام معين، إذ يذكر الأنبا ويصا : " فلما كان وقت الشغل، ضرب الناقوس، ليذهب كل واحد إلى عمله إلى حين المساء ". ويتضح من هذه العبارات أن عمل الرهبان يبدأ من سماع الناقوس في الصباح الذي كان بمثابة إشارة البدء في العمل، فيذهب كل منهم على أثر سماعه إلى العمل الذي يجيده، ويستمر في أداء عمله حتى المساء، وذلك تحت إشراف القديس شنودة وبتوجيه منه، بدليل ما يرويهِ الأنبا ويصا من إنه ذات مرة تغمغم الخبزون من أجل الرماد الذي يفرغونه من التناير فقال أبي: " التناير إحدى عشرة، دعوا الوسطاني خاويا ولا تستعملونه، واجعلوا خمسة من هذا الجانب وخمسة من الجانب الآخر، وكل الرماد الذي يوجد في العشرة اطرحوه في الوسطاني منهم ... فصنعنا كما قال ... "

وكان الأنبا شنودة يكره الكسالى، ويمقتهم ويزجرهم بشدة، فيذكر الأنبا ويصا أنه كان من بين الرهبان، راهب كسلان متوان يدعى هرقل، يمشي مع أخوته الرهبان وهو يضحك ... ويمزح، فنهض أبي بغضب وأمسكه، وطرحه على الأرض، وقال له : " كف عن طغيانك ... ". وذلك ليكون عبرة لغيره من الكسالى، الذين كانوا قلة بطبيعة الحال داخل الدير. فقد كان الدير الشنودي خلية نحل تعمل من الصباح حتى المساء، وتسد جميع احتياجات الدير بل والمناطق المجاورة كذلك.

واهتم الأنبا شنودة بالتعليم داخل الدير قدر اهتمامه بالعمل بل أشد، فعني بتعليم رهبانه وتثقيفهم، فلم يكن يسمح بقبول راهب إلا بعد أن يجيد القراءة والكتابة خلال فترة الاختبار، وكان القديس شنودة يهدف من وراء ذلك إعانة رهبانه على قراءة الكتب المقدسة، وكتب الصلوات، وتاريخ الرسل والقديسين، خاصة أنه كان يفرض عليهم أن يدرسوا الأسفار المقدسة دراسة تأملية عميقة، وأن يحفظوا مزامير دواود النبي، حتى تترنم بها ألسنتهم دائماً أثناء أداء



الصلوات أو أثناء قيامهم بأعمالهم اليومية أو تناولهم الطعام.

وحرص الأنبا شنودة معلم الرهبان الأول على أن يجمع رهبان ديريه بين الفنية والفنية، إلى مكان متسع بالدير، ليلقي على مسامعهم الخطب والعظات. التي تدور حول التمسك بالفضائل المسيحية، وتجنب مخالفتها، والعمل على تقوية الروح، حتى إذا ما تعرض الراهب لسهام الأعداء، يستطيع أن يجاهد وينتصر. كذلك اهتم الأنبا شنودة بفن الكتابة، فالحق بالدير الأبيض مدرستين يتعلم فيهما الموهوبون من الرهبان كيفية نقل الكتب ونسخها وزخرفتها، فضلاً عن تعليم الخط. فأديرة الأنبا شنودة كانت أديرة علم ودراسة، قائمة على التعمق في دراسة اللغة القبطية خاصة بلهجتها الصعيدية.

واحتوى دير الأنبا شنودة على مكتبة، وإن كانت صغيرة، لحفظ الكتب حتى يسهل على الرهبان الاطلاع عليها ودراستها والإفادة منها، فيذكر أبو المكارم " كان القديس أبو شنودة قد عمل تابوت خشب ساسم مطعم بالعاج فيه ثلاث طبقات، وكان القديس أبو شنودة عمله برسم الكتب ". وهذه المكتبة خصصت لها الحجرة التي تقع شمال الحنية الرئيسة في كنيسة الدير الأبيض، التي بناها الأنبا شنودة، فقد حفر على أحد جدرانها الأربعة أسماء عدد من الكتب، بل وفي بعض الأحيان عدد نسخ كل منها.

وكان الأنبا شنودة رجلاً صارماً، شديد البأس، بالغ العنف والقسوة على رهبان ديريه، يبيت فيهم روح الخوف والرهبة، ليجبرهم على الطاعة، حتى روى عنه قوله عن نفسه : " أنه بالخوف والرعب، يستطيع أن يجبر الرهبان على محبة الله ودلاعة أوامره ". لذلك كان لا يتردد في أن ينزل - دون رحمة أو شفقة - أشد العقوبات وأعنفها بمن يحدث أقل خلل أو يحاول الخروج على نظام الدير، فكان يضرب رهبانه بالعصى والسوط ضرباً شديداً، وتساوى في ذلك لديه الرهبان والراهبات، فقد وجه خطاباً إلى رئيسة دير الراهبات التابع له،



يحدد فيه عدد ضربات العصي، التي تفرض على عشرة راهبات ارتكبن مخالفة. ولم يقتصر العقاب على الضرب فحسب، بل كان يصل إلى حد الطرد من الدير، فيذكر الأنبا ويصا حدث أن أخطأ أحد الأخوة الرهبان فطرده أبي من الدير بمقتضى قوانينه، فصار إلى البرية بكأبة عظيمة. ولكنه ما لبث عن عفا عن هذا الراهب وأعادته إلى الدير ثانية بعد أن تعهد بالعمل وفقاً لقوانينه والميثاق، الذي قطعه على نفسه أمام الله، ويعلق ويصا على ذلك بقوله : " فتعجب الأخوة من رحمة أبي " لأن المعروف عنه العنف والقسوة والشدة والصرامة. وقد أرجع أوليري صاحب كتاب " قديسو مصر " استخدام الأنبا شنودة أسلوب الشدة والصرامة والعنف والقسوة إلى سببين هما :

الأول : أن الرهبان الذين كانوا يلتحقون بالأديرة في زمانه (أي خلال القرن الخامس الميلادي) كانوا من الفلاحين البسطاء الأميين، وفي رأي أوليري أن جهلهم بالعلوم، اقتضى تعليمهم وإدارتهم بالعصا، فضلاً عن أنه شبه الأنبا شنودة بأحد كبار الاقطاعيين، يدير مزرعة مستخدماً أسلوب العقاب التأديبي، وإن عاب عليه البعض هذا التشبيه غير اللائق، لأن طبيعة نظام الرهبانية تقتضي الانضباط والالتزام بدقة بالقواعد التي يسير عليها الدير مما يتطلب نوعاً من الحزم.

الثاني : إقدام الأديرة على قبول صغار السن في الرهبانية، خاصة الذين كان أهلهم يندرونهم، لكي يتربوا بها منذ نعومة أظافرهم، ليصيروا بعد ذلك رهباناً، وقد أشاع هؤلاء نوعاً من الفوضى والجلبة في الأديرة، مما تطلب استخدام أسلوب العنف والشدة معهم حتى يلتزموا بالنظام الديرى. وقد أورد الأنبا ويصا رواية عن أحد هؤلاء الرهبان الصغار اسمه مخلص، وقد أصابه الضجر والملل، وعزم على مغادرة الدير والعودة مع أبيه إذا ما جاء لزيارته، وعندما علم الأنبا شنودة بذلك عنفه، فمرض الفتى مخلص،



فتضرع الأخوة الرهبان إليه أن يصلي من أجل أن يشفى مخلص من سقمه، لأنه صغير دون البلوغ، ولكنه لم يلب القديس دعوتهم، فمات الفتى ولقى ربه.

ولكن إذا كان الأنبا شنودة قد سار على نهج التشدد والعنف في بعض الأحيان تجاه رهبانه، إلا أن سيرته التي سطرها تلميذه ويصا والتي أوردت نماذج لعنف الرجل وقسوته، قد أوردت كذلك نماذج لرحمته ورفقه ورأفته برهبانه، وصلاته من أجلهم طالبًا من الله أن يرشدهم ويهديهم.

وهذا يعني أن الأنبا شنودة لم يكن قاسيًا، غليظ القلب، متشددًا على الدوام، بل مست الرحمة والرأفة لقلبه كثيرًا حيال رهبانه، فقسوته وغلظته وشدته كانت نابعة من حرصه على التزام رهبانه بقواعد الدير ونظمه، وهذا ما تحقق له في نهاية المطاف إذ ارتفع مستوى رهبانه، وأصبحوا قوة روحية جبارة في صعيد مصر، وأمسى نظامه نموذجًا يحتذى به، مما جعله يقف في مصاف مؤسسي نظام الرهبانية، وعلى رأسهم القديس أنطونيوس والقديس باخوميوس، ولا يقل عنهم شهرة وصيتًا في صعيد مصر.

### دور القديس شنودة الاجتماعي :

لعب القديس شنودة وأبناء ديره دورًا هامًا في مجتمع مصر في العصر البيزنطي، فرغم ما عرف عن الرجل من شدة وصرامة وعنف وقسوة مع رهبانه ومع غيرهم، فقد قربت المسافة جدًا بينه وبين بني قومه، خاصة في أوقات الشدائد والأزمات والكوارث والمجاعات، كان الرجل حبيب إلى قلوب المصريين خاصة من أبناء الصعيد، فكثيرًا ما كانوا يلتجأون إليه، يلتمسون منه تخفيف آلامهم بصلواته وصلوات رهبانه، وبارشادهم وتوجيههم وتعزياتهم، حينما تحل بأحدهم نائبة أو تنزل به كارثة، فيذهب إلى القديس في ديره — الذي فتحت أبوابه على مصارعها أمام الجميع في أيام الأحاد والأعياد — فيجد عنده



المن والسلوى، ويعود إلى داره راضياً مرضياً.

وحفلت سيرة القديس - التي كتبها تلميذه الأنبا ويصا - بالعديد من الأمثلة سوف نسوق بعضها للدلالة على قربه من أفراد شعبه في وقت الشدائد من ذلك ما يرويه الأنبا ويصا من أن رجلاً من أهل قرية من قرى الصعيد تسمى سمهود - نواحي مدينة أبصاي - جاء يوماً وهو متألم القلب، وطلب من القديس أن يصلي من أجله، حتى يغفر الله له خطايا وذنوبه الكثيرة، التي ثقلت عليه وأرقت مضاجعه، فما كان من القديس إلا أن صلى من أجله، وأخذ عليه عهداً بالاعتراف بجميع أخطائه والإقلاع عنها، وأرشده إلى طريق الهدى والصلاح. ويذكر ويصا في موضع آخر أن رجلاً من أغنياء مدينة أخميم، حضر ذات يوم إلى القديس، وأخبره بأن اللصوص قد سرقوا كل محتويات بيته، فسعى القديس للبحث معه عن اللصوص، ورد عليه ماله وما سرق منه.

وقام القديس كذلك بمساعدة الفقراء والمساكين، وحثهم على العمل والسعي من أجل الرزق، وأرشدهم إلى أبوابه، فيروي الأنبا ويصا أنه أتى يوماً إلى القديس رجل مسكين يدعى (لوقا) كان يقيم قابلة أخميم، وأخبر القديس أنه يكد الليل والنهار، ولا يستطيع أن يوفر القوت الضروري لعياله إلا بعد جهد شديد، وطلب من القديس أن يرشده إلى صناعة يعيش منها هو وأطفاله، فما كان من القديس إلا أن أحضر كمية من الحبوب والبذور وقدمها للرجل، وقال له : " ازرعها في أي مكان من الحقل وأحسن زراعتها ... وكن متحققاً أن لي فيها نصيب ". وأخذ لوقا الحبوب، وقام بزراعتها حتى نمت وأثمرت، فحمل لوقا جزءاً منها إلى الدير، وسرعان ما باع واشترى واستفاد من ثمرتها خيرات كثيرة. وبذلك دل القديس الرجل على باب من أبواب الرزق، عاد عليه وعلى أفراد أسرته ومجتمعه بالنفع والخير العميم، وذلك بدلاً من أن يتصدق عليه بمبلغ من المال سرعان ما ينفقه، عملاً بالمثل الصيني القائل : " بدلاً من أن



تعطيه سمكة، علمه الصيد ."

وساهم القديس كذلك في سداد ديون المدينين والمقترضين فيروي الأنبا ويصا فيقول : جاء إلى أبي يوماً شخص مدين بمبلغ من المال يقدر بمائة وأربعين ديناراً، عجز عن سداده في مواعده، فما كان من الدائن إلا أن أخذ ابنه، وعزم على إرسالهما إلى كورته (بلدته) إذا لم يسدد الدين، فهرع الرجل إلى الأنبا شنودة طالباً عونه ومساعدته، فما كان من القديس إلا أن أعطاه مبلغ الدين، عندئذ أطلق الدائن سراح ابنه. ويسجل الأنبا ويصا في موضع آخر إنه كان في مدينة أخميم أرخون له قرض على إنسان، فعجز عن سداده، فاعتقله وسجنه وعذبه، وطلب منه الغرامة، فأرسل الرجل رسالة إلى الأنبا شنودة عن طريق أحد الخدام الذين يعملون في خدمة المساجين، مستنجداً به راجياً أن يتوسط له عند الأرخون حتى يعفو عنه ويطلق سراحه، فاستجاب القديس له، وأرسل إلى الأرخون رسالة يقول له فيها : " أطلق سبيل هذا الرجل ليغفر لك الرب يوم شدتك "، فاستجاب الأرخون لأمر القديس، وأطلق سراح الرجل.

وقف القديس كذلك إلى جوار شعبه في أوقات الأزمات والأوبئة والمجاعات، التي كانت تنتاب البلاد، خاصة عندما ينخفض النيل، وتندر المحاصيل، وبعض الجوع بأنيا به عليهم، عندئذ يهرع الجميع إلى دير الأنبا شنودة، فيجدون الطعام والشراب فيذكر الأنبا ويصا أنه حدث في بعض السنين غلاء وقحط، فهرع أهل أخميم وأبصاي إلى دير الأنبا شنودة طالبين الخبز والطعام، فما كان من القديس إلا أن قال لي : " امض مع هذا الأخ، واجمعا الخبز، وفرقوه على الناس، ففعلنا كما أمرنا ... وذهبنا إلى مخزن الخبز وإذا به قد امتلأ ... فأكل الجميع وشبعوا، لذلك أطلق على المكان " كنز البركة ". ولم يكتف القديس بذلك بل كان يعتزل الدير في السنوات التي يقل فيها النيل - ويخرج إلى البرية يصلي ويتضرع إلى الله العلي القدير، ويدعوه أن يكشف



الغمة ويغيث الأمة، كذلك كان يدعو رهبانه إلى الصلاة من أجل ذلك قائلاً لهم :  
 " صلوا إلى الله يا أولادي من أجل أن يرتفع النيل، ويعم الرخاء البلاد ". وسجل  
 ويصا كذلك أنه في سنة من السنوات كثرت الأمراض والأوبئة، فأمر القديس  
 بفتح أبواب الدير أمام الناس، حتى يجدوا حاجتهم من العلاج والدواء فضلاً عن  
 الطعام والشراب.

امتدت خدمات القديس ومساعدته لكل من حوله سواء في الأقاليم القريبة  
 من الدير أو المحيطة به، فقد حدث - كما يروي كاتب سيرته - أن أغار البجاة  
 (وهم قبائل البلمييين Belmmyes النوبية) على النواحي البحرية، ونهبوا مدينة  
 أبصاي، وسبوا أهلها، وعندما سمع الأنبا شنودة بذلك، راح أولاً يخطب في  
 رهبانه، ليحثهم على بذل أقصى ما وسعهم من جهد، من أجل إنقاذ اخوتهم  
 ومواطنيهم، ومن أقواله لهم : " ألم تروا ما فعل البرابرة بالجماعات الرهبانية  
 القريبة منا ؟ أن التخريب والتدمير الذي أحدثوه ... يكفي لتحريك قلوب الحكماء  
 إذا عرفوا ما حدث للذين غرقوا في النهر أو الذين قتلوا في الجبال، أو في  
 الأديرة أو الذين استسلموا للأسر والعبودية، علاوة على إشعال النيران في  
 بعض الكنائس ونهب البعض الآخر ... "

ولم يكتف القديس بهذا الخطاب الحماسي، بل نزل إلى ميدان المعركة،  
 وقابل رؤساء القبائل المغيرة وقال لهم : " أوهبوني هؤلاء الذين اسرتموهم،  
 وخذوا الكسب الغنائم " ويذكر الأنبا ويصا أنهم وهبوه له ومضوا .... وعاد  
 الأنبا شنودة بهم إلى الدير، وكان عددهم ألف رجل سوى النساء والصبيان؛  
 وطلب من اخوته الرهبان في الدير أن يخدمونهم، واستأجر لهم سبعة من  
 الأطباء لعلاج أسقامهم، وجراحين لمداواة جروحهم، خاصة من تعرض منهم  
 للنشاب (السهام).

وأقام هؤلاء الأسرى في الدير ثلاثة أشهر، مات خلالها منهم ما يقرب من



أربعة وتسعين نفساً، دفنوا في الدير، وولد فيهم اثنان وخمسون نفرًا، وبلغت جملة ما انفق عليهم خمسة وعشرين ألف درهم على طعامهم، الذي اشتمل على بقولات وتوابل، وزيت، وعدس، وخبز، فضلاً عما احتاجوه من أحذية وملابس، وأكفان، وما يحتاجه المرضى من خبز وشعير وخل وتمر وبيض وجبن وطير حمام وزبيب وعنب وفاكهة وغيرها كما يذكر الأنبا ويصا، الذي أحصى كذلك كميات القمح التي استهلكوها بثمانية آلاف وخمسمائة أردب قمح وأكثر، أما مقدار الزيت فكان مائتين قنطار، سوى الخضار والفجل مما لا أستطيع أن أوصفه على حد تعبير الأنبا ويصا. ويتضح من ذلك الجهد الكبير الذي بذله القديس ورهبان ديريه في خدمة بني جلدته، فقد سخر كل ما لديه من إمكانيات وطاقت وقدرات من أجل مساعدة قومه وقت الشدة.

وعاد الأسرى إلى بلادهم بعد مضي الشهور الثلاثة معززين مكرمين، يحملون معهم ما يحتاجون إليه - في سفرهم - من طعام وشراب، ولم يسعهم إلا أن يلهجوا بالشكر والعرفان للقديس ورهبان ديريه، على ما بذلوه من جهد طيلة هذه الشهور، من أجل أن يوفروا حاجتهم من طعام وشراب وملبس وعلاج ودواء وغير ذلك؛ فقد ضرب القديس ورهبان ديريه رقماً قياسيًّا في الصبر والمثابرة من أجل خدمة ذلك العدد الكبير من الأسرى دون تزمير أو استياء، وذلك بفضل إدارة القديس الحازمة للدير.

وحارب القديس شنودة بعض العادات السيئة، التي سادت مجتمع مصر في تلك الأونة ومنها : التمسح بالأجداث أي القبور، وإنشاء الهياكل على جثث الشهداء، فقد نقشت في مصر ظاهرة عبادة القديسين والشهداء لدرجة أن الكنيسة في عصرها الأول، كانت تبحث عن رفات هؤلاء القديسين وذخائرهم، وتضعها في كل كنيسة تبنى حديثاً. فمنع القديس شنودة إنشاء الهياكل على جثث القديسين وندد بها في خطبه مستنداً في ذلك على " أنه ليس هناك - كما يقول - في



الأناجيل إشارة تدعونا إلى بناء الهياكل حتى فوق الرفات الحقيقية للشهداء أو الرسل، كما أن آباءنا الذين رقدوا في أيامنا، كما أعلم وأشهد، يوصوننا بالأندع إنساناً يبحث عن أجسادهم".

وعالج القديس كذلك ظاهرة العبث والاستهتار، التي نفشت بين بعض المسيحيين في عصره، أثناء احتفالهم بموالد الشهداء، وذلك عن طريق العظات، وله عظة حاول بها إقناع بني قومه بضرورة الإقلاع عن مثل هذه الظاهرة، وقد جاء فيها: "جميل جداً أن يذهب الإنسان إلى أماكن الشهداء والقديسين ليصلي فيها، ويتلو المزامير، ويظهر نفسه... أما من يذهب ليتسلى، ويأكل، ويشرب، ويلهو... فذلك هو الكفر بعينه" ثم يصف ما يحدث أثناء تلك الموالد بقوله: "بينما يقف البعض داخل الكنيسة، يصلون ويرتلون المزامير... إذ بالآخرين في الخارج يملأون المكان جلبة وصياح، ويحولونه إلى سوق لبئع العسل والحلي وما أشبه، ومكان لعرض بهائمهم وسباق خيولهم، ولسرقة ما يعرض من بضائع... كل هذا يحدث في موالد الشهداء والقديسين... يا للغباء هل تتركون بيوتكم ومدنكم وقراكم، وتتعبون في السفر إلى أماكن الشهداء، لتأكلوا وتشربوا وتبيعوا وتشترروا وتفعلوا ما يروق لكم!... كذلك استشهد القديس في عظته هذه بقول السيد المسيح - علي السلام - لليهود حينما دخل هيكل سيدنا سليمان ووجدهم يبيعون ويشترون وهو: "بيتي بيت الصلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص". وبذلك نجح القديس في التصدي لما يفعله بنو قومه، من تصرفات لا تليق بهيبة القديسين والشهداء أثناء الاحتفال بموالدهم، وكان لعظته أكبر الأثر في الإقلاع عنها في عصره.

وحارب القديس شنودة كذلك السحر والشعوذة والدجل الطبي، لأنه كان يؤمن تماماً بأن السحر والشعوذة وغيرها، تنتافي تماماً مع المبادئ التي تتادي بها المسيحية، لذلك حاربها بكل ما أوتى من قوة، وتصدى لأصحابها، خاصة



بعد أن حاول بعض الوثنيين في بنيوط - من نواحي أخميم - في أن يستخدموا معه السحر ذات مرة، حتى يغيروا مسلكه ولا يمكنوه من هدم أوثانهم وتحطيمها، ولكنهم - كما ذكر كاتب سيرته - تمكن من معرفة الموضع، الذي أخفوا فيه كتب سحرهم واستخرجها، عندئذ اختفى أصحابها من أمامه بعد أن أيقنوا اكتشافه لها خوفاً من بطشه بهم.

وهكذا لعب القديس شنودة دوره كمصلح اجتماعي، يقف إلى جوار شعبه في أوقات الشدائد والأزمات والملمات، ويظهر مجتمعه من العادات السيئة، ويهديه إلى الطريق القويم بفضل خطبه وعظاته التي كان لها فعل السحر على بني جلدته.

### دور القديس شنودة السياسي والوطني في تاريخ مصر :

اتسمت الفترة التي عاشها القديس شنودة، وهي قرابة قرن من الزمان من منتصف القرن الرابع الميلادي وحتى منتصف القرن الخامس الميلادي بعدم الاستقرار السياسي، فقد تولى حكم مصر خلالها ما يقرب أربعة وأربعين والياً من قبل الحكومة البيزنطية في القسطنطينية، منهم من قضى شهوراً في الحكم، مما يظهر عدم الاستقرار والفوضى، فضلاً عن التدهور وتفشي روح القلق، وعانى المصريون خلال تلك الفترة من ظلم الحكام البيزنطيين وتعسفهم من ناحية، ومن قسوة كبار الإقطاعيين من أفراد الطبقة الأرستقراطية من ناحية أخرى. فإذا كان الحكام البيزنطيون هم المستفيد الأول من خيرات هذا البلد، فإن كبار الإقطاعيين من أفراد الطبقة الأرستقراطية ومتولي المناصب الكبرى فيها كانوا عونهم في ذلك، فكلاهما أصحاب نفوذ وسلطان وثروة وجاه، عاشوا بعيداً عن جموع الشعب، يرفلون في حياة تطفح بروح الترف والبذخ والنعيم، يعيشون في قصور تعج بالخدم والحشم، يمتلكون مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية. أما غالبية أفراد الشعب فتكدح ليل نهار من أجل إرضاء هؤلاء



السادة، وتبذل كل الجهد في سبيل الحصول على ما يكاد يسد الرمق، ويستتر البدن، مثقلة الكاهل بالعديد من الضرائب، فضلاً عما تتعرض له من قسوة جامعيها.

كانت الصلة وثيقة بين القديس وأفراد شعبه، الذين داوموا على التردد عليه في دير، والثقة به والاطمئنان إليه، لذلك كشفوا له عن جراحتهم، وما يعانونه على يد الحكام البيزنطيين وكبار الإقطاعيين من ظلم وجور وتعسف، فأحس الرجل بكل أحاسيسهم، وشاركهم وجدانهم لأنه واحد منهم، اختلجت نفسه المشاعر عينها التي اختلجت بها نفوسهم، فصمم على أن يكرس حياته لتحريرهم من نير سادتهم البيزنطيين والإقطاعيين، كما حررهم من الوثنية ومن العادات السيئة التي سيطرت على حياتهم، وراح أولاً يندد بمساوئ هؤلاء الحكام مستغلاً قدرته على الكتابة والخطابة في الكشف عن مفسادهم، وذلك لإثارة شعبه ضدهم وفي ذلك يقول : " ... لقد امتلأت قلوبهم إثماً وطمعاً وشرها ... إذ أصبح كل من اعتلى الحكم لا هم له إلى اكتتاز الفضة، والويل لمن يكون الضحية ... وحتى جنودهم يضجون بالشكوى لحرمانهم من رواتبهم ... فيسعى هؤلاء للتماس ذلك ... فيسطون على المدن والقرى والمنازل والأكواخ والسفن ... والأديرة نفسها ... وإذا حاول أحد اعتراضهم كان جزاءه الموت بحد السيف على أيديهم ... "

وحرص القديس على التنديد بالحكام في كل مناسبة فوصفهم قائلاً : " سلاطين تلك الأيام يجمعون أموالاً كثيرة ظلماً، وقد ينسون الطلبات والصلوات، ويرفضون بيعتي لأجل ما عليهم من الجور ... الويل لكل الرؤساء ومقدمي الشعوب في كل المدن وجميع القرى ... ". ثم يعرض القديس صورة من حياة هؤلاء وأخرى من حياة غالبية أفراد شعبه فيذكر : "... يذهب هؤلاء للصيد والقنص في الجبال، يطاردون فرائسهم من شتى الأنواع، بينما يتركون في



قواربهم بعض هؤلاء التعساء لحراستها، ويكلفون البعض الآخر بأن يجروا  
أمامهم لمطاردة الثعالب والعنزة البرية وغيرها ... ". ثم يذكر في موضع آخر:  
" ... من ذا الذي يستطيع أن يسرد المظالم التي راح ضحيتها هؤلاء الفقراء؟  
إنني أعرف أشخاصًا لم يجدوا طعامًا ليأكلوا هم وحيواناتهم، فذهبوا بها إلى  
المخابز لبيعها لينفقوا من أثمانها ... ". وتوضح هذه الصورة التي رسمها  
القديس بقلمه ولسانه جانبًا من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السيئة التي  
عانى منها المصريون في ظل السيطرة البيزنطية.

ولم تقتصر جهود القديس على مجرد التنديد بالحكام وإبراز مفسدهم، بل  
بصر القديس مواطنيه بحقوقهم، ودفعهم إلى المطالبة بها حتى ولو كان الخصوم  
من كبار الحكام، وأيقظ فيهم الشعور بأن من حقهم الشكوى من الظلم وألا  
يرضوا بغير العدل، خاصة أن يد الفساد كانت قد امتدت إلى القضاء نفسه،  
فسيطرت عليه الرشوة إلى حد صار معه حكم العدل والظلم متروكًا للمصادفات  
وحدها، بسبب محاباة موظفي القضاء لبني جنسهم من الحكام والملوك الأجانب  
على حساب الوطنيين. لذا كان القديس يذهب بنفسه مع المظلومين من  
المصريين إلى ساحات القضاء، ويدافع عن حقوقهم أمام محاكم الأقاليم، فإذا لم  
ينجح في إقرار العدل، ولم يجد إنصافًا من الحكام أما لأنهم طرف في القضية،  
أو بسبب محاباتهم لكبار الملوك والأغنياء، فإن القديس كان يستأنف القضية أمام  
محكمة الإمبراطور في القسطنطينية ذاتها، إذ كان من حق المصريين استئناف  
قضايهم أمام محكمة الإمبراطور بمقتضى ما عرف باسم الالتماس، ولا يهدأ له  
بال حتى ينال المظلوم حقه.

واستخدم القديس في بعض الأحيان سلاح القوة في رفع الظلم والجور عن  
بني جلدته - فيروي الأنبا ويصا - أنه كان على الشاطئ الغربي جزيرة تدعى  
(جزيرة الريح) - من أعمال أخميم - أصحابها قوم لهم جاه، ومزارع كروم،



ولديهم مستخدمين مسيحيين، غدروا بهم، ولم يدفعوا لهم شيئاً من أجورهم، بدعوى أن كرومهم فسدت ولم ينتج خمرًا، وأنهم خسروا بذلك خسارة فادحة، فشكى هؤلاء حالهم إلى القديس شنودة، وقالوا له: "لنا عدة سنين ونحن نقاسي هذا الجور الشديد". فما كان من القديس إلا أن حشد جيشاً من رهبانه في الحال، وسار ضد هؤلاء الذين اجحفوا بحق المسيحيين، فأنتف أمعتهم، وهدم منازلهم، ورد الحق لأصحابه.

وبهذه القدوة علم المصريون أن لا يرضوا بالظلم ولا يستكينوا له، كما علمهم الشجاعة في المطالبة بحقوقهم وبالعدل والإنصاف، وملاً قلوبهم ثقة بأنفسهم. لذا لا عجب أن اكتسب القديس شهرة عظيمة وشعبية كبيرة ليس على المستوى المحلي فحسب، بل وعلى المستوى الإمبراطوري كذلك. إذ لم يكن حكام البلاد كلهم خصوم له وللمصريين، بل منهم من كان حلفاء له، وتعاونوا معه من أجل صالح البلاد وخيرها، وليس أدل على ذلك من الصلات القوية، التي ربطت بينه وبين عدد من رجالات الدولة وقادة الجيش، الذين كثيراً ما كانوا يقصدونه للمشورة والتبرك، وطلب الصلوات والعون، بل لقد حرص بعض القادة على نيل بركته، قبل انطلاقهم إلى ميادين القتال، خاصة ضد القبائل البدوية، التي كانت تغزو تخوم مصر الجنوبية. وقد سجل الأنبا ويصا ذلك بقوله: "وكان كثير من أراخنة أخميم، وأرباب الدولة قد تبعوا الصديق (أي شنودة) يبجلونه، ويتكلمون عنه... وكانوا يحاججون عنه، ويشهدون فيه ولصالحه دائماً...".

وتوثقت كذلك صلة القديس شنودة بالإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م) الذي سبق ودعاه لحضور مجمع أفسوس، المسكوني العالمي الثالث في عام ٤٣١م، بصحبة كيرلس بطريرك الإسكندرية، أما هذه المرة فقد كتب الإمبراطور ثيودوسيوس رسالة للقديس، وسلمها لحاجب يدعى أودوكسيوس Eudoxe وأرسله إلى والي أنصنا ليسلم القديس هذه الرسالة، وقد



أورد الأنبا ويصا في سيرته عن حياة القديس نص هذه الرسالة على النحو التالي: " أنا ثيودوسيوس الصغير ... يكتب ويسأل الأب الطاهر أنبا شنودة أن كنا مستحقين قدومك إلينا لنغتنم بركتك، وتصلي علينا، لأن المملكة كلها منتظرة مجيئك أيها الأب القديس. ونسألك أن لا تتوانى عن الحضور إلينا، فنحن عطاشى إلى نظرك ... اذكرنا بصلواتك، اخلص بالرب والسلام ."

وتسلم القديس رسالة الإمبراطور وقرأها، ثم أبلغ حاملها اعتذاره عن السفر إلى العاصمة البيزنطية لكبر سنه، إذا قال له : " إنني رجل طعنت في السن ". فضلاً عن انشغاله بتدبير شئون الدير ورهبانه، مع ذلك أوصى تلميذه ويصا بأن يهتم بسفارة الإمبراطور، وأن يكرم أفرادها، ويوفر لهم سبل الراحة. وبعد أن أمضى السفراء يومين في الدير، وهما بالعودة إلى بلادهم، طلبوا من القديس أن يرافقهم إلى العاصمة البيزنطية، فالإمبراطور والمملكة كلها في انتظاره، ولكنه أبى، وطلب منهم أن يبلغوا الإمبراطور اعتذاره، ودعا الله له أن يثبتته على كرسيه كسائر الملوك الأتقياء، وأن يخضع له سائر المدن، وأن يظل محافظاً على الأمانة المستقيمة أمانة الرسل والحواريين.

ولكن سرعان ما خرج القديس ومعه جماعة من رهبانه في زيارة للعاصمة البيزنطية، دفعه للذهاب إليها هذه المرة رغبته الشديدة في أن يوضح للإمبراطور ثيودوسيوس مدى الظلم الواقع على بني قومه من الحكام البيزنطيين المعينين من قبل العاصمة البيزنطية، خاصة وأن الإمبراطور كما اتضح من قبل كان يقدره ويحترمه. وأحسن الإمبراطور استقبال القديس ورهبانه — كما يروي كاتب سيرته — واستمع إلى شكواه، " وصنع مع المساكين خيراً عظيماً في ذلك الزمان لأجل أبينا القديس". بمعنى آخر أنه قام برفع ظلم الحكام البيزنطيين عن كاهل المصريين تلبية لنداء القديس شنودة.

ولم يكتف القديس بذلك بل أخذ يعمل جاهداً من أجل إيقاظ أبناء شعبه،



وبعث الروح الوطني القومي فيهم، حتى اعتبره البعض "علمًا من أعلام إفاقة الوعي القومي". في حين شبهه ريفيو *Revillout* "بالشعلة الملتهبة التي أشعلت النيران في قلوب المصريين، ودفعتهم إلى الخلاص من أعدائهم".

وعلينا أن نذكر أن القديس سخر قلمه وفكره وخطبه وكتاباتة من أجل هذا الهدف، وهو إيقاظ الوعي القومي المصري، والعمل على تحقيق الشخصية الاستقلالية لمصر وكنيستها، عن بيزنطة وكنيسة القسطنطينية كخطوة أولى لتحقيق الاستقلال السياسي، وأصبح لسان الأمة يعبر عن آمالها وآلامها، وينفخ من روحه وقلبه المشبع بالوطنية في شعبه، فبيعت فيه الروح القومي الوطني، حتى يفوق من ثباته، ويدرك ما في مصريته من كرامة وعزة. وكانت دعائمته وأداته ووسيلته في تحقيق هذه الغاية، هي اللغة القبطية، وهذا ما يدفعنا للحديث عن فضل القديس على اللغة والأدب.

### فضل القديس شنودة على اللغة القبطية والأدب القبطي :

قدر القديس شنودة أهمية اللغة القبطية كدعامة من أخطر دعائم القومية، خاصة وأنها الوليد المباشر للغة المصرية القديمة، رغم استعارتها للحروف اليونانية، واقتباسها لبعض كلمات هذه اللغة. لذلك سعى القديس إلى العمل من أجل إعلاء شأنها، وكانت في عصره لهجة دارجة، فحاول تهذيبها وتخليصها من التأثيرات اليونانية البيزنطية، باستئصال الألفاظ اليونانية الدخيلة في القديس والصلوات والترانيل القبطية، حتى استوت على يديه لغة قومية وطنية صالحة للكتابة والخطابة، واستطاعت اللغة القبطية بوضعها الجديد، أن تؤدي أكثر من فائدة، فهي خير وسيلة للوصول إلى الطبقات الدنيا من الشعب في سهولة ويسر، وبالتالي يستطيع بواسطتها إيقاظ الروح الوطني الكامن داخلها، والتعبير عما تكنه من كراهية شديدة للبيزنطيين من أجل مقاومتهم والتصدي لهم.

وقد تعددت لهجات اللغة القبطية ما بين بحيرية، وفيومية، وأخميمية



وصعيدية، وكانت اللهجة الأخيرة مستخدمة في طيبة (الأقصر حالياً)، وهي اللهجة التي استخدمها القديس شنودة، وفضلها على الأخميمية ولعل السبب في ذلك يرجع - كما يذكر ورل Worrell - إلى أن الرهبان وعلى رأسهم شنودة تحققوا من أن الحاجة ماسة إلى لغة واحدة لمصر العليا كلها، فضلاً عن التفوق البعيد المدى الذي بلغته اللهجة الصعيدية عندئذ، إذ كانت اللهجة المفهومة من الجميع فيما بين منف وأسوان، مما يجعلها خير معين له في إيقاظ الروح الوطني المصري. ويرجع حرص القديس على إحياء اللغة القبطية، إلى رغبته في أن يرفع من شأن لغته القومية، حتى تعادل اللغات المعاصرة لها، بما في ذلك اللغة اليونانية، لغة الثقافة في ذلك الزمان.

وسرعان ما جنى القديس الثمرة إذ أخذت اللغة اليونانية في التراجع من البلاد المصرية مع استخدام اللغة القبطية، ومع شعور المصريين بقوميتهم وكيانهم، وليس أدل على ذلك من العثور على إحدى البرديات اليونانية، دونها كاتب مصري كان يجيد اليونانية والقبطية معاً، ويذكر أنه يكتب باليونانية نيابة عن رجل مصري وزوجته، ويظهر من البردية أن الزوج يكتب بالديموطيقية وليس باليونانية، وأن الزوجة أمية، وتوقيع الزوج في البردية مدون بالديموطيقية كذلك. علاوة على ذلك فإن ظهور اللغة القبطية في أديرة مصر وعلى رأسها الدير الأبيض، أكسب الكنيسة المصرية طابعاً قومياً قوياً.

وإذا كان فضل القديس على اللغة القبطية عظيم، ففضله على الأدب القبطي أعظم، إذا كان الرجل ذا ذوق أدبي، حتى عد أبرع من خطب، وأبلغ من كتب باللغة القبطية بلهجتها الصعيدية، وخير شاهد على ذلك ما تركه من تراث أدبي ضخم، يعتبر من أروع صفحات الأدب القبطي على الإطلاق، ويتألف من الخطب والعظات، التي لم تكن قاصرة على الرهبان داخل الدير فحسب، وما دارت حوله من حث على ممارسة الفضائل ومداومة الصلاة ومحاسبة النفس



والتوبة، بل شملت كل أفراد الشعب، فقد كان ديريه مفتوحاً أمام المصريين جميعاً - كما سبق أن ذكرنا - فكان يدعوهم فيها إلى محبة الله والناس، وحفظ الحواس والجوارح، وعدم التذمر على الحياة رغم صعوبتها، ومعاشرة الأبرار، ومساعدة المحتاجين، وممارسة حياة التقوى والصلاح، والبعد عن الشهوات وغيرها، فضلاً عن محاربته بهذه العظات لبعض العادات السيئة، التي عرفها مجتمع مصر في العصر البيزنطي، ومما جاء في إحدى عظاته: " أن النفس تتوهم أنها قريبة من الله، وهي بعيدة عنه، ومطالعتها خفية عن الناس وظاهرة له، كالطاحونة التي تدور بلا حبوب". وقد ذاعت عظاته حتى احتلت مكاناً في قراءات الكنيسة القبطية.

وتضمن إنتاج القديس شنودة الأدبي أيضاً العديد من الرسائل والمقالات، فضلاً عن التفاسير والكتابات وغيرها، وما زال العديد من كتاباته موزعاً في متاحف العالم ومكتباته، خاصة في متحف نابلي بإيطاليا، وفي متحف اللوفر بفرنسا، وكذلك المكتبة الوطنية في باريس، والتي يوجد بها العديد من المخطوطات التي كتبها القديس، وقد قام كل من أميلينو Amelineau وريفيو Revillout - وهما من أعضاء المعهد الفرنسي للأثار بمصر - بنشر العديد منها مع ترجمة بالفرنسية، وتشمل هذه المخطوطات مجموعة من الخطابات وائرسائل منها ما هو للإمبراطور ثيودوسيوس الثاني وللبطريرك تيموثاوس، فضلاً عن رسائل كتبها للرهبان والراهبات، وعددها إحدى عشرة رسالة، علاوة على عدد كبير من الخطب والمواعظ، الموجة للرهبان لمقاومة الوثنية وظلم كبار الحكام، ومنها ما يعالج موضوعات دينية وأدبية مختلفة.

ومن كتابات القديس كذلك دراسة خاصة عن العبادة المصرية القديمة، أورد فيها تفاصيل عديدة عن هذه العبادة وعن إيزيس وحورس، إلى جانب تفاصيل عن الآلهة المصرية، والرموز التي استخدمها المصريون مثل التماسيح والجعران وغيرها. وقد كتب هذه الدراسة في شبابه، بأسلوب معتدل، ولكن



للأسف الشديد لم يبق من هذه الدراسة إلا شذرات كما يذكر ريفيو.

وبينما يرى البعض أن أسلوب القديس، كان يتمتع بطلاقة جميلة وبلاغة مع البساطة، لذلك كان له مفعول السحر على أفهام معاصريه، يرى البعض الآخر أن أسلوبه لم يكن مصقولاً، ولكنه كان يصاغ في قالب خطابي بليغ، ليست به سلاسة، إذ لم يكن القديس يبحث عن المعرفة وجمال الألفاظ، بل كان مالكا لخاصية اللغة كيفها كيفما يشاء.

والحقيقة أن إنتاج القديس الأدبي الغزير، يعد من أروع صفات الأدب القبطي، في تاريخ مصر في العصر البيزنطي على الإطلاق، كتب جميعه باللهجة الصعيدية، التي ما لبثت أن أصبحت لغة الأدب القبطي في أزهى عصوره، بل ولغة الكنيسة القبطية المصرية لعدة قرون حتى بعد رحيل القديس، لذلك لا عجب أن عرف القديس شنودة في تاريخ الأدب القبطي بأنه " أعظم كتابه". ولا عجب كذلك أن انتشرت كتاباته في جميع أرجاء مصر، بل وتداولتها الأجيال جيل بعد جيل.

وتجدر الإشارة إلى أن للقديس شنودة فضل على حركة الترجمة، فقد اهتم بالترجمة في ديره، وأشرف عليها بنفسه، وليس أدل على ذلك من أن كثيراً من الموضوعات التي ترجمت عن اليونانية، خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، قد تمت في الدير الأبيض، دير القديس شنودة.

وللقديس أيضاً مآثر على الأدب الوطني منها تلك الرواية التاريخية الممزوجة بالخيال، والتي تحكي قصة غزو قمبيز ملك الفرس لمصر، واستبسال المصريين في مقاومته رغم تهديده لهم، ويرجح أن كاتبها هو أحد رهبان الدير الأبيض، فضلاً عن أنها كتبت باللغة القبطية بلهجتها الصعيدية، وفي أواخر العصر البيزنطي في مصر، وهدفها إذكاء الروح القومي لدى المصريين لمقاومة أعدائهم.



جملة القول أنه كان لكتابات القديس شنودة وأبناء ديريه، أثر كبير في توعية المصريين، وتبصيرهم بحقوقهم، بدليل وفتهم التاريخية من قرارات مجمع خلقدونية ٤٥١م المسكوني الرابع، الذي عقده الإمبراطور مرقيان، خليفة ثيودوسيوس الثاني، فقد قرر هذا المجمع إدانة الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزيتي، وهو المذهب الذي تدين به الكنيسة المصرية، وأيد مذهب الطبيعتين في السيد المسيح وترك بذلك جرحًا غائرًا في نفوس المصريين، فيشير أحد الأساقفة إلى حالة شعب مصر، بعد صدور قرارات مجمع خلقدونية ٤٥١م بقوله: " في عهد قنصلية دنياميتوس تملك شعب الإسكندرية، وشعب مصر، جنون شيطاني عجيب، فالكبار والصغار والأرقاء والأحرار والرهبان والكهنة وسكان البلاد الوطنيين ... كل هؤلاء فقدوا عقولهم وقدرتهم على التعبير " ورفض المصريون بشدة أن يحنوا رؤوسهم، بأن يقبلوا المذهب الذي يخالف عقيدتهم الأرثوذكسية، واتسعت الهوة بين كنيستهم وكنيسة القسطنطينية، التي آمنت بقرارات مجمع خلقدونية، لدرجة أن الكنيسة المصرية أبطلت استخدام اللغة اليونانية في طقوسها، وأحلت محلها اللغة القبطية، أي أنها خلعت الرداء البيزنطي، وبدأت ترتدي الرداء المصري القومي الوطني، وتطلع المصريون جميعًا إلى اليوم الذي يتخلصون فيه من الخضوع للسيادة البيزنطية. هذه اليقظة المتأخرة للمصريين كأمة وكنيسة، ما كانت تحدث لولا المبادئ التي أرسها القديس شنودة في نفوس شعبه وقومه.

وما لبث القديس شنودة أن توفي في نفس العام، الذي عقد فيه مجمع خلقدونية، وتحديدًا في السابع من أبيب سنة ١٦٧ للشهداء الموافق ٢ يوليو ٤٥١م بعد أن طعن في السن، إذ بلغ الثمانية عشرة بعد المائة، وبعد رحلة طويلة من الجهاد في سبيل دينه ووطنه وشعبه، كذلك بعد أن ترك سجلاً حافلاً بجلائل الأعمال التي لا تزال تخلد ذكراه حتى اليوم.

وختامًا إذا كان لعظمة كل عظيم سر، فإن عظمة القديس شنودة الأخميمي



الأدربي، تكمن في كونه بحق أعجب شخصية أنجبها القبط، فلم يكن رجل دين فحسب، بل كان زعيماً سياسياً، ومصلحاً اجتماعياً، وبطلاً قومياً، وأديباً وطنياً، وفخرًا للكنيسة القبطية، لذلك لا عجب أن حفظت له مصر من الذكرى، ما حفظته لكبار قديسيها.

ورغم وفاة القديس شنودة إلا أن الحركة الديرية لم تلبث أن انتشرت فى مصر انتشارا واسعا، وانتقلت بعد ذلك خارج مصر، الى بلاد الشام وقبرص وما بين النهرين واسيا الصغرى .

### مزايا الرهبانية وعيوبها :-

للرهبانية آثار تربوية أو تعليمية كما كان لها آثار اجتماعية فمن الناحية العلمية أو التعليمية، صارت الديرية مركزا علميا عظيما لعلوم الكنيسة، والى جانب البحوث والدراسات، التى قام بها الرهبان داخل الديرية، عهد الى عدد منهم بإنشاء المدارس الاولية ( الكتاتيب ) فى قرى وادى النيل لتعليم الأقباط . وعكف كذلك عدد من الرهبان على الكتابة والتأليف وخاصة فى العلوم الدينية اللاهوتية وتفسير الكتب المقدسة، كما قام عدد من الرهبان بنسخ المخطوطات والكتب المقدسة والانجيل، مما ساعد على انتشار التراث الثقافى والدينى فى وقت لم تكن فيه الطباعة معروفة، أن اللغة القبطية ظهرت فى الديرية المصرية منذ نشأتها، مما أكسبها (أى الكنيسة) طابعا قوميا قويا. هذا وقد حفظت الأديرة مؤلفات آباء الكنيسة والآداب القديمة على مر العصور.

أما من الناحية الاجتماعية، فكان الرهبانية آثار عميقة الغور فى نفوس الناس، اذ اقتدى الناس بالرهبان ونقلوا عنهم الكثير من عاداتهم وأصوامهم وزهدهم وتقشفهم . وكان الشعب يلجأ الى الرهبان يلتمس منهم تخفيف الامه بصلواتهم وتعزياتهم وارشاداتهم . كما كانت الديرية الملاذ والملجأ فى وقت الأوبئة والمجاعات والحروب، اذا يجد فيها اللاجئين اليها الامن والامان



والطعام والدواء . كذلك اقترن العمل بالعبادة داخل الدير، " فمن يعمل يأكل ومن لا يعمل لا يأكل "، "والعمل عبادة "، وكان لذلك اثاره في تغطية احتياجات الدير والمناطق المجاورة وحث الناس على العمل والسعى من اجل الرزق . ومن بين مزايا الرهبانية إلى جانب ما ذكرناه من اثار تربوية واجتماعية، انها جعلت بعض المسيحيين يحافظوا على أنفسهم وعلى دينهم وسط مجتمع ملئ بالمفاسد .

وإذا كانت الحركة الديرية لها من المميزات، فهي لم تخل ايضا من العيوب والمساوىء، من ذلك انها هددت الحياة العسكرية في الدولة اذ رفض الديرين أو الرهبان الانخراط في الجيش، مما أضر بالمجتمع ضررا بالغا، ودعا بعض الابطرة الرومان ومنهم فالنز الى اقتحام الديرية والقبض على الرهبان، وادخالهم الجندية بالقوة . كذلك حالت العزلة التي فرضها الرهبان على أنفسهم في الصحراء بعيدا عن المجتمع الصاخب الفاسد حالت دون العمل من اجل اصلاح حال هذا المجتمع، كما جعلت الحكومة ترتاب في امرهم وتعتبر مسلكهم هذا خروجا عن سلطة الدولة، وامتناعا عن المشاركة في الحياة العامة وواجبات الافراد نحو الدولة . هذا الى جانب ان الديرية جذبت عددا ليس بالقليل من العامة والكسلاء لدخولها، وذلك لما يتوفر فيها من مأكل ومشرب وملبس. كما أدى ترك الرهبان للزراعة والحقول والحرف والصناعات وممارسة حياة الرهبانية الى الاضرار بالامبراطورية، هذا فضلا عن تفكك الاسرة حيث كان الراغب في حياة الرهبانية يترك أفراد أسرته ويلجأ الى الديرية .

كما أن الامبراطور ثيودوسيوس الاول رغم تقواه واعترافه بالمسيحية دينا رسميا الا انه ضاق نرعا بهؤلاء الرهبان مما جعله يحرم عليهم دخول المدن واقامتهم فيها، وذلك لأن الديرية في ذلك الحين اصبحت خطرا على الامبراطور بعد ان اصبحت مأوى وملاذا للعامة من المصريين الذين لم يكن لهم من البلاد شيئا في ظل السيطرة البيزنطية، كفلت الديرية لهم الحرية .



كما أنها اتخذت طابعا قوميا بالغ الخطورة حيث اعتبر الرهبان أن معظم أهل الاسكندرية عنصرا غريبا عن مصر لتغلب العناصر الاجنبية بها . ويضاف الى ما سبق تعصب رجال الدين لفكرة معينة او لمذهب معين ومحاولة اقراره وفرضه على المجامع الدينية عن طريق استخدام العصى والقذف الحجارة .

### الانقسام المذهبي بين بطريركيتى الاسكندرية و القسطنطينية:

أصبح بطريرك الاسكندرية منذ اواخر القرن الرابع الميلادى من اكبر رجال الدين مكانة فى العالم المسيحى فقد اعترف مجمع نيقية (٣٢٥م) بالسيادة الدينية لأسقف الاسكندرية على أساقفة مصر وليبيا وبرقه، واصبح له نفس الحقوق والامتيازات التى لأسقف روما . ثم أكد هذه المكانة مجمع القسطنطينية (٣٨١م) الذى جعل بطريرك الاسكندرية يحتل المكانة الثالثة بعد أسقف روما وأسقف القسطنطينية .

وترجع عظمة مكانة بطريرك الاسكندرية الى عدة عوامل من بينها :

أولا : شخصية أنثاسيوس وجهاده الطويل من أجل الارثوذكسية، وتأيد رهبان مصر وشعبها له، فقد خرج القديس انطونيوس من قلايته من أجل مناصرته ومآزرته بعد أن اشتد ساعد مذهب اريوس .

ثانيا : ما تمتعت به بطريركية الاسكندرية من أموال وفيرة وثروة جاءت من بعض الاحتكارات مثل تجارة النظرون والبردى والملح، وما كان يتقاضاه أسقف الاسكندرية من رسوم نتيجة ممارسة الشئون الدينية، هذا فضلا عن الهبات والعطايا والمنح التى يقدمها الاتقياء والاباطرة للكنيسة .

ثالثا : العداء بين كنيسة روما والقسطنطينية ووقوف بطريركية الاسكندرية الى جانب بطريركية روما، وما ترتب على ذلك من تأييد بابا روما لمطالب بطريركية الاسكندرية ومطالب بطريركها .



رابعاً : وتولى رئاسة بطيركية الاسكندرية عدد من الشخصيات القوية أمثال: ثيوفيل (٣٨٥ - ٤١٢م) وكيرلس (٤١٢-٤٤٤م) وديوسقورس (٤٤٤ - ٤٥١م) وتميزت هذه الشخصيات بالحماس الدينى والجرأة والنشاط، وساهمت بذلك فى علو شأن بطيركية الاسكندرية.

## مراحل الصراع

ميز تاريخ بطيركية الاسكندرية فى تلك الفترة الصراع الذى دار بينها وبين بطيركية القسطنطينية، واتخذ هذا الصراع أطوار ومراحل مختلفة . ومن خلال هذا الصراع يمكن التعرف على تاريخ بطيركية الاسكندرية فى تلك الفترة.

## المرحلة الأولى :

دارت أولى مراحل الصراع بين ثيوفيل بطيرك الاسكندرية (٣٨٥ - ٤١٢م) وبين يوحنا ذهب الفم<sup>(١)</sup> بطيرك القسطنطينية فيذكر بعض المؤرخين أن ثيوفيل بطيرك الاسكندرية، حاول ترشيح صديق له يدعى أيسيدورس (أسيدور) - وكان كاهنا تقيا ورعا أمتاز بطيبة القلب والبساطة - لمنصب بطيرك القسطنطينية، وليكون منافسا ليوحنا ذهبى الفم. وفى نفس الوقت اعترضت بطيركية الاسكندرية على ترشيح يوحنا، ولكن ما لبث ثيوفيل تحت ضغط تأييد القصر الامبراطورى ليوحنا فى تولى المنصب أن تنازل عن ترشيح صديقه، واشترك فى رسامة (أى تعيين أو اختيار أو انتخاب Ordination)

(١) عمل أبوه كقائد للجيش الرومانى، ومات وترك يوحنا صغيرا، فعكفت أمه على تربيته وتعليمه وتنقيفه بالعلوم والمعارف، وتربيته على دراسة الفلسفة على يد أحد الفلاسفة. مارس يوحنا الحمامة نحو عامين، ثم كرس حياته للزهد والتعب فترك الحمامة، وعاش حياة الرهبانية، ثم مالبت أن رسم شماسا ثم قسا فأسقفا فى عام ٣٨١م فى أنطاكية، ثم بطيركا للقسطنطينية.



يوحنا ذهبى الفم بطريرك على القسطنطينية فى فبراير ٣٩٨ م . ومنذ ذلك الحين بدأ نزاع خفى بين ثيوفيل ويوحنا ذهبى الفم .

وهناك من المؤرخين من يذكر أن ثيوفيل لم يكن يحمل ليوحنا حتى ذلك الحين سوى كل حب وتقدير، وأنه لم تكن بينهما أحقاد وأن الخلاف نشب بينهما فيما بعد .

وكان هناك نزاع بين ثيوفيل وبعض رهبان وادى النظرون، دار هذا النزاع حول آراء العلامة أوريجين (اوريجانوس) - وهو من رؤساء مدرسة الاسكندرية التبشيرية - ومن بينهما أن الله هو الجوهر الاول لجميع الاشياء، وليس المسيح هو الانسان الذى يصفه العهد الجديد بل هو العقل الذى ينظم العالم، وتصور آراء اوريجين أن لله عينا وأيدى واعضاء جسدية، وكانت هذه الآراء لاتتفق تماما مع الارثوذكسية الخالصة فى رأى ثيوفيل، ومع ذلك قد تمسك بها رهبان وادى النظرون، كما تمسكوا بفكر أوريجين وبكتاباتة. ولذلك أصدر ثيوفيل فى عام (٣٩٩ - ٤٠٠م) رسالة تهاجم الأوريجانية واعتبرها هرطقة، مما أثار جماعة الرهبان الذين كان أوريجين فى نظرهم هو معلم المسكونية، وخرجت جماعة منهم، واحاطوا بالبطريركية يصيحون ويتوعدون مهددين بقتل الكافر ثيوفيل. لذلك تقرر حبس بعضهم، فى حين فر عدد منهم إلى فلسطين ثم إلى القسطنطينية للقاء يوحنا ذهبى الفم فى اوائل عام ٤٠٢م .

وقد تزعم هولاء الرهبان، وكان عددهم ثمانين راهبا، أربعة من الاخوة عرفوا باسم (الاخوة الطوال)، وسافر هولاء الى فلسطين اولا لعلهم يجدون لهم ملجا فى قلب الاسقف يوحنا الاورشليمى المعروف بأعجابه باوريجين ولكن دون جدوى، فقد طاردهم ثيوفيل فى كل مكان كانوا يذهبون اليه، واخيرا اتجهوا نحو القسطنطينية، ليعرضوا قضيتهم على بطريركها يوحنا ذهبى الفم وذلك فى عام ٤٠٢م . ومما دفعهم الى ذلك حب يوحنا للمصريين، اذ كان يقول عنهم "



أنهم يغذون أجساد القسطنطينية بالقمح، كما يغذون قلوبهم بالايمان " فضلا عن حبه لرهبان مصر وكانوا فى رأيه أكثر بهاء من كواكب السماء. ولذلك فتح يوحنا قلبه للاخوة الطوال، فكشفوا له عن جراهم وشكوا له تصرفات ثيوفيل، وطلبوا منه أن يصلحهم معه ويعيدهم الى مصر.

وقرر يوحنا ذهبى الفم دعوة ثيوفيل الى القسطنطينية، فكتب له رسالة يطلب فيها منه أن يصفح عن الرهبان، كما دافع عن العلامة أوريجين، كذلك أخبره فى هذه الرسالة بأن الرهبان قدموا شكوى ضده على الرغم من محاولته تهدئة خواطرهم، وانه لايعرف كيف يتصرف معهم. وأثارت هذه الرسالة استياء ثيوفيل، وبعث الى يوحنا يذكر له أن من بين قوانين مجمع نيقية ما يحرم على الاساقفة أن ينظروا الدعاوى الخارجة على حدود أبروشياتهم (ولياتهم)، وما أن عجز يوحنا أمام ثيوفيل حتى لجأ الرهبان الى تقديم شكواهم الى الامبراطور أركاديوس، ويقال أنهم أوقفوا عربة موكب الامبراطورة وطلبوا منها أن تتوسط لهم عند زوجها الامبراطور (أركاديوس)، وتؤثر عليه حتى ينظر فى شكواهم ويعيدهم الى بلادهم مرة أخرى، ونجحوا فى ذلك فقد اصدر الامبراطور أمرا بدعوة ثيوفيل بطريك الاسكندرية للحضور الى القسطنطينية ليحاكم امام مجمع كنسى برئاسة يوحنا، فأثار ذلك ثيوفيل، واعتبر يوحنا محرضا للرهبان ضده أمام الامبراطور أركاديوس.

زار ثيوفيل القسطنطينية فى عام ٤٠٣م فى حشد ضخم من الاتباع، وحمل معه اموالا كثيرة وهدايا قيمة، وتجاهل مكانة بطريك القسطنطينية، واخذ يقيم الولايم ويوزع الهدايا، ونجح بذلك فى كسب الرأى العام فى القسطنطينية، وقد هيات له الظروف ذلك اذ ساءت العلاقة بين يوحنا وبين الامبراطور فى ذلك الوقت، اذ أمان يوحنا زوجة الامبراطور، ووجه لها نقدا لانها كانت تغالى فى الملابس والمأكل والترف واللهو، فضلا عن انه شبهها



بسيدة تدعى ايزابل كانت مضرب المثل في الفجور والفسق واللهو، ولذلك غضبت الامبراطورة وأوعزت الى الامبراطور بعقد مجمع محاكمة يوحنا برئاسة ثيوفيل، وبذلك انقلب ميزان القضية وأصبح المتهم قاضيا والقاضى متهما.

وعقد هذا المجمع بالفعل فى اغسطس عام ٤٠٣م فى قرية السنديان أو البلوط بالقرب من خلقدونية، وسمى هذا المجمع باسمها اذ عرف باسم (مجمع السنديان)، وتولى ثيوفيل رئاسة هذا المجمع، الذى حضره مايقرب من ٢٩ من المصريين من اجمالى اساقفة المجمع الذين بلغ عددهم ٣٦ اسقفا واتهم هذا المجمع يوحنا بتهم كثيرة بلغ عددهم ٢٩ اتهاما، ومن بين هذه الاتهامات أنه ضرب عبده الصغير، وضرب راهبا يدعى يوحنا وقيده بالحديد بدعوى أن به شيطان، وانه باع كثيرا من ممتلكات الكنيسة الثمينة، كما باع الرخام المخصص لكنيسة القديسة انسطاسية، وأنه سب رجال الاكليروس ووصفهم بالخسة والفساد، كان لا يصلى عند دخوله الكنيسة أو خروجه منها، كتب كتباً يهين فيها الاكليروس، واتهم الجميع، وكان يأكل بمفرده ويحيا حياة ترف، واتهم ثلاثة من رجال الاكليروس بسرقة معطفه، وكان يدفع الاموال للاساقفة الذين يرسمهم حتى يخضع له الاكليروس، هذا الى جانب عدد آخر من التهم .

لذلك قرر المجمع " عزل يوحنا عن كرسيه ولو تم الامر قسرا " وصدق الامبراطور اركاديوس على قرار المجمع، ووافق على عزل يوحنا من منصبه كبطريرك للقسطنطينية، وثار أهل القسطنطينية وشعبها لابعاد يوحنا، والتفوا حول الاسقفية، واعلنوا تمسكهم بيوحنا. أما ثيوفيل فلم يكن من الممكن أن يظل فى القسطنطينية بعد ذلك فقد غادرها إلى الاسكندرية.

وإذا كان يوحنا ذهبى الفم قد عاد إلى منصبه كبطريرك للقسطنطينية فى نفس العام الذى عزل فيه، فإن ثيوفيل أثار مسألة تتعلق بعودته إلى منصبه دون



عقد أى مجمع لالغاء القرار الذى اتخذ من قبل بعزله، ولذا صدر قرار آخر فى عام ٤٠٤م بنفى يوحنا بعد أن أصبحت كنيسة القسطنطينية فى يد خصومه. وغادر يوحنا ذهبى الفم القسطنطينية والبطيريركية إلى منفاه. وهكذا انتهت أولى مراحل الصراع بين بطيريركية الاسكندرية وبطيريركية القسطنطينية بانتصار ثيوفيل انتصارا ساحقا على يوحنا فم الذهبى.

### المرحلة الثانية للصراع:-

توفى البطريرك ثيوفيل بطيريرك الاسكندرية فى عام ٤١٢م، وفى نفس العام تم انتخاب ابن أخيه، وقيل ابن اخته كيرلس بطيريركا على كرسى بطيريركية الاسكندرية، وسار كيرلس (٤١٢ - ٤٤٤م) على نفس سياسة عمه ثيوفيل، وسعى جاهدا من اجل أن يرفع من شأن بطيريركية الاسكندرية من ناحية، ويناصب بطيريركية القسطنطينية العداء من ناحية أخرى، ومن هنا تبدأ مرحلة جديدة فى الصراع بين الاسكندرية والقسطنطينية التى ارتقى كرسىها البطريرك نسطوريوس، الذى ولد فى مدينة مرعش وترهب بدير قرب انطاكية وعين بطيريركا لها ثم بطيريركا للقسطنطينية عام ٤٢٨ م. ودار الصراع هذه المرة حول " طبيعة السيد المسيح وعلاقة الطبيعة البشرية فى المسيح بالطبيعة الالهية.

كان نسطوريوس بطيريرك القسطنطينية احد تلاميذ مدرسة أنطاكية التى نادى بنفس تعاليم أريوس، فالمسيح فى رأى هذه المدرسة هو الوعاء الذى اختاره الله ليضع فيه الطبيعة الالهية، وهو فى نفس الوقت ابن السيدة العذراء مريم، فهو بشر فى طبيعة الهية، ومريم ليست أم اله لكنها أم المسيح. فهذه المدرسة اذ تتادى بانفصال الطبيعتين مع تغليب الطبيعة البشرية على الطبيعه الالهية. هذا فى حين كان كيرلس بطيريرك الاسكندرية على مذهب أثناسيوس ولذلك نادى باتحاد الطبيعتين الالهية والبشرية فى شخص المسيح، فالمسيح أقنوم



واحد وطبيعة واحدة بعد الاتحاد بدون اختلاط أو امتزاج. وأدى هذا الخلاف بين نسطور وكيرلس حول طبيعة السيد المسيح الى النزاع فيما بينهما.

ونجح كيرلس في نزاعه هذا مع نسطوريوس في كسب تأييد بابا روما كيلستين الاول (٤٢٢ - ٤٣٢م) وتأييد كنيسة روما، وحدث تقارب بينهما ضد عدوهما المشترك وهو كنيسة القسطنطينية وبطريركها. وادى هذا التقارب بين كيرلس وصديقه البابا كيلستين الاول الى عقد مجمع دينى فى روما لمناقشة آراء نسطوريوس وافكاره، ولم يكتف هذا المجمع بتأييد آراء كيرلس حول طبيعة السيد المسيح، بل رفض أيضا تعاليم نسطوريوس وخاصة وأنه رفض أن يدعو العذراء والدة الاله، اذ أنه قسم المسيح الواحد الى أقنومين وجوهين محولا اياه وحوله بذلك إلى مجرد كائن بشرى بطبيعة كطبيعة البشر ومنفصل عن الكلمة، والى اله فقط بغير اتخاذ الجسد أى أنه قسم الابن الى ابنين وسمى أحدهما ابن الله والآخر ابن العذراء. وحكم البابا كذلك بضرورة تجريده من منصبه، ومنحه المجمع مدة عشرة ايام حتى يتمكن خلالها من الدفاع عن نفسه، وترك بدعته، والا حرم هو واتباعه من الكنيسة. وعهد البابا الى كيرلس باتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ الحكم ضد نسطوريوس واتباعه، قائلا له: " واتخذوا سلطة كرسينا وقوموا مقام شخصنا ومركزنا ونفوذنا " كما أنه كتب رسميا لسائر الاساقفة ليكونوا مطلعين على الحكم رسميا. وشرع كيرلس بالفعل فى تنفيذ ما عهد اليه، فاعلن احكام البابا كيلستين ونفذها معلنا لنسطور أنه بعد الايام العشرة المحددة فى مرسوم كيلستين لا يكون له نصيب ولا مكان فى الكهنوت، مما يوضح أن البابوية مارست سلطتها الى أبعد الحدود.

على أن نسطوريوس كان يتمتع بنفوذ عظيم، ونجح فى كسب عدد كبير من الاساقفة كما كانت له حظوة كبيرة عند الامبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠م) وعظماء الامبراطورية، لذلك أثار ضرورة عقد مجمع



مسكونى لحسم الخلف حول طبيعة السيد المسيح، وبالفعل قرر الامبراطور ثيودوسيوس الدعوة الى عقد مجمع مسكونى فى أفسوس فى عام ٤٣١م بأسيا الصغرى. وكان هذا يعنى توقف كيرلس عن اجراء أى عمل، على الرغم من أن كيلستين فوضه لتنفيذ الحكم البابوى، كما أن حكم المجمع سيكون هو الحكم النهائى، وبالتالي ظل نسطور فى منصبه انتظارا لحكم المجمع، وخاصة وأن الامبراطور صرح فى مرسومه بعقد المجمع " أنه قبل التمام المجمع المقدس وصدور حكمه لايجوز اجراء أى أمر فى أية قضية استنادا على سلطة فردية.

وحضر لهذا المجمع أساقفة الشرق والغرب، وقدر عددهم بنحو المائتين أسقف، كما حضره مندوبون من قبل البابا كيلستين الأول بابا روما وهما الاسقفان اركاديوس وبروباكتوس والكاهن فيليبس، كما حضره مندوب الامبراطورية ثيودوسيوس الثانى، وكذلك بطريرك انطاكية واساقفته، ونسطوريوس واتباعه من أساقفة القسطنطينية ورهبانها، وحضره ايضا كيرلس والاساقفة المصريون وشنودة الاخميمى، وتولى كيرلس رئاسة هذا المجمع الى جانب كونه نائبا عن البابا كيلستين الذى فوضه لتنفيذ حكمه، وذلك قبل وصول نواب البابا الى المجمع، كذلك حضر هذا المجمع يوفناليوس أسقف بيت المقدس وكذلك ممنون أسقف أفسوس.

ونجح كيرلس فى هذا المجمع فى أن يكسب الى صفه أساقفة الشرق ورهبان القسطنطينية بل وتأييد زوجة الامبراطور وأخته، هذا الى جانب تأييد البابا كيلستين بابا روما له، ونجح كيرلس كذلك فى كسب تأييد كبار الشخصيات فى المجمع الى جانبه وفى الحصول على تأييدهم له، وذلك عن طريق أغداق الاموال والعطايا عليهم.

وبالاستناد الى هذا التأييد، طالب كيرلس بعزل نسطوريوس من منصبه كبطريرك للقسطنطينية وبارساله إلى أحد الدير. وبالفعل قرر المجمع ادانة



نسطوريوس وعزله وإرساله إلى أحد الأديرة في بلاد الشام، ثم نفى إلى الواحات بصحراء مصر الغربية حتى وافته المنية هناك، وقيل في مكان قريب من دير القديس شنودة الاخميمي، كما حكم عليه بالزندقة والاحاد لأنه أصر على انسانية المسيح. وحقق بطريرك الاسكندرية بهذا انتصارا آخر في جولته الثانية مع بطريرك القسطنطينية، وعلت مكانة كنيسة الاسكندرية، وبلغت من القوة ماجعل اساقفتها أهل للقب الذي أطلق عليهم وهو لقب (الفراعنة). وأقر المجمع أن السيدة مريم العذراء " ام لاله " وليست أما لبشر لأن الإله الكلمة تجسد وتأنس منها.

### المرحلة الثالثة للصراع :-

ودارت ثالث مراحل الصراع بين ديوسقورس بطريرك الاسكندرية وفلافيانوس بطريرك القسطنطينية. وادت الى عقد مجمع في أفسوس في عام ٤٤٩م حضره نحو ١٣٠ من الاساقفة منهم أسقف أورشليم، واسقف أنطاكية وفلافيانوس أسقف القسطنطينية، ورئيس أساقفة روما ونوابه الاربعة الى جانب ديوسقورس بطريرك الاسكندرية، الذي تولى رئاسة هذا المجمع، والذي جاء الى هذا المجمع وبصحبه قوة عسكرية، وجماعة من الرهبان وبحارة وحاشية وحامية عسكرية.

أما عن صاحب الدعوة لهذا المجمع فهو الامبراطور ثيودوسيوس الثانى وكان يهدف من وراء عقد المجمع الى: المحافظة على الايمان الذى قرره مجمع نيقية ٣٢٥م ومجمع أفسوس ٤٣١م، كذلك بحث الاراء التى تخالف الايمان الصحيح ومحاولة استأصلها، وانهقد المجمع فى ٨ أغسطس عام ٤٤٩م وناقش المجمع تسع قضايا يهمنها منها قضيتين:

الاولى: قضية أوتيا أو اوطيخا أو أوطاخى ومذهبه.



الثانية: قضية فيلافيانوس بطريك القسطنطينية نفسه وعزله لاوتيا من منصبه.

وفيما يتعلق بالقضية الاولى فان أول مايتبادر للذهن هو من هو أوتيا هذا وماهو مذهبه ؟ أوتيا (٣٨٠-٤٥٤م) هو رئيس أحد الأديرة المجاورة للقسطنطينية، وتحت إدراته أكثر من ثلاثمائة راهب وكانت له شهرة واسعة بين المثقفين في العاصمة القسطنطينية، وذلك لمقدرته الفائقة في التعبير، واجتذاب السامع الى خطابه، لذلك التف حوله جمهرة من محبي العلم والادب، وأصبح ديريه منتدى لرواد العلم، وكان صديقاً لكيرلس بطريك الاسكندرية، ومن مؤيدي مذهبه لذلك قاوم نسطوريوس، وحضر مجمع اقسوس ٤٣١م ليشهد على ضلاله، لذلك يعتبره أصدقاء كيرلس من المدافعين عن الإيمان.

أما مذهبه فيتلخص في أن للمسيح عليه السلام - طبيعتين قبل التجسد اصبحت طبيعة واحدة بعد التجسد. أي أنه ينادى باتحاد الطبيعتين في طبيعة واحدة. بمعنى آخر أن الناسوت تلاشى في اللاهوت وكأنه نقطة من الخل ابتلعها البحر أو المحيط، وهذا يعنى أيضا أن السيد المسيح عند اوتيا صاحب طبيعة واحدة وهي الطبيعة الإلهية فهو لم يقل كما قال الأنجيل "أن الكلمة تجسد" وكما قال الآباء وكما قال ديوسقورس "طبيعة واحدة متجسدة" بل يقول "طبيعة واحدة ويصمت". ولم تلبث آراء اوتيا أن تسربت خارج جدران ديريه، واصبحت مثار نقاش وجدل.

أما فيما يتعلق بالقضية الثانية فقد أثارت آراء أوتيا بطريك القسطنطينية فيلافيانوس ودفعته الى عقد مجمع للنظر في أمر أوتيا وآرائه، وحضر هذا المجمع ثلاثين أسقفا، واثنين وعشرين وقيل ثمانية عشرة من روساء الأديرة ومنسوب عن الامبراطور ثيودوسيوس الثاني، ودعى اوتيا لحضور هذا المجمع والدفاع عن نفسه وعن آرائه ولكنه اعتذر بحجة الشيوخة



تارة، وبحجة المرض تارة أخرى. واضطر أوتيا لحضور المجمع في المرة الثالثة وبعد عقد ست جلسات وذلك في يوم ٢٢ نوفمبر عام ٤٤٨م - حضر وبصحبه موظفين من القصر الإمبراطوري وجمهرة من الرهبان، وقوة يرأسها القائد فلورنيتوس. وطلب منه الآباء المجتمعين الاعتراف بطبيعتين بعد التجسد، فقدم أوتيا صورة ايمانه مكتوبة، ولكن لم يقبلها المجمع. وعندئذ قرر المجمع عزله من منصبه دون مناقشة آرائه مناقشة جادة، مما دفع أوتيا الى رفع رسالة الى المجمع يعلن فيها: أن قرار عزله كان قد أعد مسبقا وقبل انعقاد هذا المجمع، وان فيلانيانوس عقد هذا المجمع لاقرار ذلك الحكم واعلانه فحسب. ولم يقبل أوتيا حكم المجمع، ورفع شكواه إلى الامبراطور الذي قرر الدعوة لعقد مجمع أفسوس الثاني في عام ٤٤٩م.

وبعد مناقشة قضيتي أوتيا وفيلانيانوس في مجمع افسوس الثاني ٤٤٩م تقرر مايلي:

أولاً: إعادة أوتيا الى منصبه كرئيس للدير.

ثانياً: عزل فيلانيانوس من منصبه كبطريرك للقسطنطينية، وأصدار قرار الحرمان ضده، وعندما اعترض البعض على هذا القرار الاخير صرخ ديوسقوروس طالبا القواد فدخلوا مع الجنود الى قاعة الاجتماع بإشارة منه وضربوا فيلانيانوس وجروه الى الخارج، ووقع جميع الاساقفة الحاضرين بالاجماع على قرار عزله.

يرى البعض أن استعمال القوة في المجمع واعتداء ديوسقورس على فلانيانوس بالضرب وأجبار الأعضاء على التوقيع كما تذكر المراجع الغربية من الأمور البعيدة غير الحقيقية. واستند هذا الفريق على أن السكون كان مستتباً في المجمع، وكل واحد من الأعضاء استعمل حريته التامة، وقد وقع على قرارات المجمع بلا اكراه، وأن ديوسقورس استعمل حريته ونفوذه كغيره. وكان



يحرص خلال المجمع على الهدوء والنظام، علاوة على أن استخدام العنف فى المجمع يتنافى مع أبسط الأخلاق الإنسانية، ويستحيل أن يقبلها العقل السليم. إذ أن ديوسقورس لم يحكم على فلافيانوس بمفرده بل هو والمجمع كله والحكم ثبته الإمبراطور ونفذه. ويرى هذا الفريق كذلك أن القول بأجبار الأساقفة على التوقيع ليس بصحيح لأن ديوسقورس لم يكن بإمكانه وحده أن يجبر أكثر من مائة وعشرين اسقفاً على ما لا رضى لهم به، وفى حضرة مندوبى الإمبراطور، كما أن هؤلاء الاساقفة لم يرفعوا دعوى أو شكوى إلى الأمبراطور بعد حل المجمع بأنهم وقعوا جبراً.

واحتج ليو بابا روما (٤٤٠-٤٦١م) على قرارات المجمع هذه، ولقبه بمجمع اللصوص Latrocinium، وظل هذا الاسم عالقا به طوال التاريخ. سمي هذا المجمع بهذا الاسم للأسباب التالية :-

(١) أرسل البابا إلى هذا المجمع ثلاثة مندوبين أسقف، وقس، وشماس ومعهم رسالة Tome من لدنه يحاول فيها التوفيق بين المتنازعين وتقريب وجهات النظر وجاء فيها : أن المسيح ليس الا شخصاً واحداً، وهو كلمة الله، اتحدت فيه الطبيعتان الإلهية والبشرية، على الرغم من أن كلا منهما كاملة، غير مختلطة بالأخرى، وتؤدي وظائفها الخاصة فى نطاق وحدة الشخصية. ورفض ديوسقورس تلاوة رسالة البابا على أعضاء المجمع مما جعل البابا يطلق على هذا المجمع "مجمع اللصوص". ويرى البعض أن ديوسقورس رفض رسالة ليو أو نسيها أو تناساها لأنها لم تكن مرسلة باسم المجمع بل كانت مرسلة باسم فلافيانوس شخصياً، كما أن الرسالة ذاتها اشتملت على لهجات غير أرثوذكسية، وكان يدافع عن عقيدة وجود الطبيعتين بعد الاتحاد.

(٢) أن الاساقفة المجتمعين قد هربوا من أمام عنقوان ديسقورس، ومن بقى



منهم وقع على بياض قبل صدور القرارات مما جعلهم يطلقون عليه "مجمع اللصوص"، فقد سرقوا الإيمان في صيغة أعلنوها في غفلة من أهله ودون رضى أصحابه.

هذا ويسوق البعض الأدلة على عدم صحة الاتهام بأن مجمع افسوس الثانى ٤٤٩م كان مجمعا للصوص، وأن البطريك ديوسقورس كان مسيطرا عليه ويملى على أعضائه إرادته، ومن هذه الأدلة :

- إن المجمع انعقد بدعوة من الإمبراطور وبطلبه.
- تمثيل جميع الكراسى المشهورة فيه (روما - اسكندرية - انطاكية - القسطنطينية - بيت المقدس).
- نظر المجمع فى الأمور والقضايا بتأنى مع أخذ الأصوات قبل الحكم على أحد.
- نظر فى العديد من القضايا ومنها قضية أوطيخا وعقيدته وعقيدة الآباء السابقين.

على أية حال انحاز ليو بابا روما الى جانب بطريك القسطنطينية، وأيده فى آرائه، ولعل ذلك يرجع الى خوف بابا روما من تفوق كنيسة الاسكندرية على كنيسة روما، ولذلك سعى للتقليل من شأنها وذلك بعدم مسانبتها وتأييدها، مما جعل ديوسقورس يفقد بذلك مساندا قويا له. على أن النتائج التى انتهى اليها مجمع افسوس ٤٤٩م علت من مكانة الاسكندرية وبطريركها، وذلك لانه نجح فى تعيين البطريك الذى أرادته على كرسى بطريكية القسطنطينية.

مجمع خلقدونية ٤٥١م (المسكونى الرابع) والمرحلة الرابعة والأخيرة للصراع:-

ونصل اخيرا الى خاتمة الصراع بين بطريكية الاسكندرية وبطريكية القسطنطينية وهو مجمع خلقدونية ٤٥١م، فقد قرر الامبراطور مرقيان (٤٥١-٤٥٧م) خليفة ثيودوسيوس الثانى، عقد مجمع دينى فى خلقدونية فى محاولة منه



للقضاء على الخلاف الدينى، وللنظر فى موضوع ديوسقورس، الى جانب موضوع العقيدة. وانهقد هذا المجمع فى أكتوبر من عام ٤٥١م فى مدينة خلدونية، وحضره عدد كبير من ممثلى الكنائس المسيحية، ومن بينهم ممثلون من قبل ليو بابا روما وبلغ عدد الالباء الذين حضروا هذا المجمع ٦٣٠، وقيل أن عددهم كان ما بين ٣٥٠ أو ٣٦٠ أسقفًا.

وقرر المجمع محاكمة ديوسقورس بطريرك الاسكندرية وذلك لما اقترفه من أعمال تتنافى مع قوانين الكنيسة ومن بينها : أنه اغتصب املاكا من أقارب سلفه ومن أصدقائه وضمها الى أملاك الكنيسة، كما أنه تصرف فى الاسكندرية كما لو كان الوالى الحقيقى لها. ويضاف الى ذلك ماوجه اليه من تهمة شخصية ومن بينها أنه أتهم باعتناق عقيدة أوتياخا، وباستخدام العنف فى مجمع افسوس أو أفسس الثانى ٤٤٩م، فضلا عن أنه رفض حضور جلسات مجمع خلدونية ٤٥١م . وازاء هذه التهمة قرر المجمع عزل ديوسقورس من منصبه ونفيه . وقبل ديوسقورس قرار العزل بكبرياء ورفض ماعرضه عليه الامبراطور من البقاء فى كرسيه والعفو عنه، اذا ماأعترف باخطائه واقلع عنها، ولكنه لم يستجب له، ولم يخضع ولذلك تم اتخاذ القرارات اللازمة لعزله من بطريركية الاسكندرية ونفيه الى آسيا الصغرى، وقيل إلى احدى جزر بحر مرمرة.

وقرر مجمع خلدونية ٤٥١م بالنسبة لشئون العقيدة ادانة مذهب الطبيعة الواحدة، وأيد مذهب الطبيعتين وأجاز الصيغة التى قدمها البابا ليو بابا روما والتي جاء فيها : " هناك طبيعتان فى المسيح، يجب تميز احدهما عن الاخرى حتى بعد تجسده، وهما الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية، وقد ظل الاختلاف بينهما باقيا بالرغم من وحدة الشخصية " . وأصبحت هذه الصيغة هى أساس التعاليم الدينية للكنيسة الارثوذكسية.

أما عن النتائج التى ترتبت على مجمع خلدونية فهى على النحو التالى:



أولاً: أن مجمع خلقدونية رفع شأن كنيسة القسطنطينية وجعلها أعلى مكانة من كنيسة الاسكندرية، فقد خرجت الاولى من هذا المجمع منتصرة اذ قرر المجمع أن بطريرك القسطنطينية يلي في المكانة بابا روما، بل أن كنيسة القسطنطينية على قدم المساواة مع كنيسة روما، مما ترتب عليه فيما بعد عدااء بين الكنيستين بسبب التنافس فيما بينهما على مركز الصدارة.

ثانياً: ازدياد ظهور القومية المصرية من خلال حظيرة الكنيسة القبطية الوطنية، وكانت القوانين الديرية وانتشارها داخل مصر عاملاً فعلاً أثار لهب القومية كما سبق أن أوضحنا. فقد وقفت الكنيسة المسيحية وراء بطريركها تظاهره وتناصره مما أدى إلى تدفق الشعور القومي. لذلك فإن مجمع خلقدونية يشكل - كما يذكر هوايت - نقطة تحول في الكنيسة المصرية، فبعد أن كانت الكنيسة فرعاً في منظمة دولية انفصلت بعد عام ٤٥١م عن هذا الجسم، وصارت حتى اليوم مؤسسة قومية متميزة هي الكنيسة القبطية.

ثالثاً: ازدياد شقة الخلاف بين القسطنطينية التي تدين بمذهب الطبيعتين وبين الولايات الشرقية، وعلى رأسها مصر وبلاد الشام من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة أو المذهب المونوفيزيتي، والذين تمسكوا بمذهبهم حتى بعد مجمع خلقدونية، واشتدت حدة الخلافات المذهبية بين مصر والقسطنطينية لدرجة أن كنيسة الاسكندرية أبطلت استخدام اللغة اليونانية في طقوسها، وأحلت محلها اللغة القبطية المصرية، وتطلع المصريون وغيرهم من سكان الولايات الشرقية الى اليوم الذي يتخلصوا فيه من الخضوع للدولة البيزنطية، مما مهد لوقوع تلك الاقاليم في يد الفرس ثم في أيدي المسلمين.



## سياسة الإمبراطورية البيزنطية في مصر بعد مجمع خلقدونية ٤٥١م

وبعد عزل ديوسقوروس ونفيه، تم تعيين بطريك تابع للقسطنطينية خلفاً له وهو بروتوريوس (٤٥٢-٤٥٧م) تحت ضغط التهديد بالسلاح. وأمام هذا الموقف المتعنت سارع المصريون إلى اختيار بطريك مصري مناهض وهو تيموثاوس. وانقسمت أسقفية الإسكندرية بذلك بين معسكرين وبتريركين: الأول الذي أطلق عليه المصريون "الملكاني" أي التابع للملك أي الإمبراطور البيزنطي وقرارات مجمع خلقدونية والبابا. والثاني وهو البطريرك المصري الذي وضعه المعسكر المناوي ويعرف بالبطريك "المونوفيزيتي" لرفضه قرارات مجمع خلقدونية والهيمنة البيزنطية. وهكذا ترسخت المشاعر المذهبية المصرية في صحن الكنيسة القبطية واكتسبت دفعة قوية على هذا الدرب الوطني.

لم تأخذ الحكومة الإمبراطورية هذه المشاعر المصرية في بداية الأمر مأخذ الجد، واعتقدت أن هذا الانشقاق يمكن رأبه في يسر. ولكن الموقف سرعان ما تفاقم عندما هب شعب الإسكندرية ثائراً منتهزاً فرصة انشغال حاكم الإسكندرية البيزنطي في الحرب ضد الوندال في شمال أفريقية، وضد قبائل البلاعيم في جنوب الصعيد، وهاجم أهل الإسكندرية على البطريرك بروتوريوس، واغتالوه، ونتيجة لذلك أصبح تيموثاوس هو البطريرك الوحيد في المدينة، وازداد موقفه رسوخاً، وظل يشغل عرش البطريركية حتى مات في عام ٤٨١م.

اختار الإمبراطور زينون (٤٧٤-٤٩١م) مرشحاً جديداً لمنصب بطريركية الإسكندرية وهو تيموثاوس سالو فاكيلوس، في حين اختار الأقباط بطرس مونجوس للمنصب نفسه، وسافر بطرس إلى القسطنطينية حيث التقى مع أسقفها اكاويوس Acaius (٤٧١-٤٨٩م) وحدث تقارب بين الرجلين وتوصلا معا إلى وضع صيغة تقرب بين وجهتي النظر المونوفيزتية والخلقدونية، تم عرضها



على الإمبراطور زينون، الذى تحمس للفكرة أملا فى عودة الهدوء والسلام، والوحدة إلى الكنيسة والإمبراطورية جميعا. وعرفت هذه الصيغة باسم (هينوتيكون "أى قرار الاتحاد Henoticon" أو قرار الوحدة). ويعترف هذا القرار الصادر فى سنة ٤٨٢م، بما توصلت إليه المجامع المسكونية الثلاثة الأولى من قرارات، ويصب اللعنة على كل من نسطور يوس وأوطيخا وأتباعهما، ويعلن أن المسيح من جوهر الأب نفسه، مع احتفاظه بطبيعته الناسوتية، وتحاشت صيغة القرار الإشارة إلى مسألة الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين؛ ورفض القرار رفضا لبقا ما كان أقره مجمع خلقدونية عن اتحاد الطبيعتين فى المسيح. وينتهى هذا القرار بالتهديد باللعنة أى الجرمان على كل من اعتقد أو يعتقد سواء من أتباع مجمع خلقدونية أو أى مجمع مسكونى آخر، فى أى مذهب مخالف لهذا القرار.

كان نتيجة هذا القرار (قرار الوحدة) أن حدث تقارب بين كنيستى الإسكندرية والقسطنطينية، على أنه سرعان ما تبين للناس أن مضمون هذا انقرار لا يمثل أيا من الضرفين المتنازعين فلم يشعر البيزنطيون بالارتياح أمام التنازلات التى أبداهما زينون للمونوفيزيين فى قراره هذا. وفى الوقت نفسه شعر المونوفيزيتيون فى الإسكندرية أن "القرار الإمبراطورى أى قرار الوحدة" لم ينص على إدانة قرارات مجمع خلقدونية صراحة. لهذا لم يوحد قرار الاتحاد الذى أصدره الإمبراطور زينون الصفوف، بل زاد شقة الخلاف والانقسام والتفرقة بين أتباع مذهب الطبيعة الواحدة وأتباع مذهب الطبيعتين.

توفى كل من أكايوس بطريرك القسطنطينية، ومونجوس بطريرك الإسكندرية والإمبراطور زينون تباعا (٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١م بالتعاقب). وتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية الإمبراطور انستاسيوس (٤٩١-٥١٨م)؛ الذى تمسك فى البداية بقرار الاتحاد ولما وجد أن هذا اقرار جعل الخلاف على أشده



بين اتباع المذهبيين، أعلن أنه من أنصار المذهب الأرثوذكسى أى (مذهب الطبيعيين) إرضاء لبطريك القسطنطينية، غير أنه تحول بعد قليل إلى تأييد أنصار مذهب الطبيعة الواحدة. عندئذ فرح الأقباط فى مصر بهذا التحول فى موقف الإمبراطور، إلا أن سياسته فى ممالأة المونوفيزتيين أدت إلى تدمير الناس وسخطهم وإثارة الاضطرابات والفتن فى القسطنطينية لدرجة إشعال الحرائق فى المباني العامة وتحطيم تمثال الإمبراطور، والتظاهر ضده فى ميدان السباق، وتعرضه للشتائم والقذف بالحجارة. ومع ذلك ظلت النبرة المونوفيزتية عالية مسموعة فى القسطنطينية حتى وفاة الإمبراطور انستاسيوس فى عام ٥١٨م.

اعتلى جستين الأول عرش الإمبراطورية (٥١٨-٥٢٧م) وتبدلت الأحوال تماماً، فقد كان الإمبراطور الجديد شديد الإنحياز لقرارات مجمع خلقدونية ومسانداً ومؤيداً لها تأييداً تاماً، لذلك قام باضطهاد اتباع مذهب الطبيعة الواحدة اضطهاداً شديداً، واستمر الخلاف المذهب قائماً حتى اعتلى الإمبراطور جستين العرش (٥٢٧-٥٦٥م) خلفاً لخاله جستين فأخذ على عاتقه إيجاد حل لهذه النزاعات المذهبية التى تهدد كيان الإمبراطورية، وإعادة الوحدة والهدوء إلى الكنيسة كخطوة أساسية لتحقيق طموحاته الهادفة إلى وضع السلطتين الدينية والزمنية فى يده.

كان جستين فى البداية منحازاً إلى قرارات مجمع خلقدونية، وإن لم يدخل فى خصومات وصراعات معلنة مع المونوفيزتيين. ويرجع ذلك إلى نفوذ زوجته تيودورا التى كانت تؤيد المذهب المونوفيزتيين، وحاولت إقناع زوجها بإجراء مصالحة بين الفرق المتناحرة، ومن جانبه عمل جستين على استرضاء المونوفيزتيين فأصدر فى عام ٥٤٢م مرسوماً أدان فيه ثلاثة من رموز النسطورية فى الشرق، وقد رحبت الكنائس الشرقية بما فيها كنيسة الإسكندرية بهذه الإدانة.



كما عين جسيتيان شخصاً يدعى أبوليناريوس بطريركاً لكرسى الإسكندرية فى عام ٥٤١م وفوضه أيضاً فى صلاحيات عسكرية لكى ينفذ سياسته الدينية بقوة السلاح، دون الاستعانة بالسلطات العلمانية، هذا إلى جانب تفويضه فى جمع الضرائب لصيانة الكنائس، وممارسة صلاحيته الدينية. وقد أدت هذه الإجراءات إلى إحداث فوضى وتداخل بين العلمانيين ورجال الإكليروس فى الإسكندرية، كما أن هذه الصلاحيات الجديدة للبطريرك قد جعلت من الكنيسة الملكية أداة للقمع والاضطهاد ضد المصريين المخالفين فى المذهب وقد شعر المونوفيزيتيون فى مصر بالغبن الشديد الواقع عليهم، خاصة وقد سعى هذا البطريرك أبو ليناريوس إلى القضاء على العناصر المونوفيزيتية باللجوء إلى المذابح.

ومن جهود جستينان على الصعيد الدينى فى مصر أنه أمر كذلك بإغلاق معبد ايزيس فى جزيرة فيلة بمدينة أسوان؛ ومعبد آمون فى واحة سيوه، وقام بتشيد كنائس على هذين الموقعين، مما يذكر أيضاً أن جستينان أدخل بعض التعديلات والإضافات إلى المؤسسات الديرية فى مصر، ومن أشهر أعماله قيامه ببناء دير سانت كاترين المعروف باسم "دير السر التحول المقدس لشركة التناول" فى جبل سيناء.

حاول الأباطرة الذين خلفوا جستينان فرض مذهب الطبيعتين بالقوة والعنف على المصريين إلا أنهم فشلوا فى ذلك بل كان ذلك واحداً من الأسباب التى عجلت بسقوطهم مثلما حدث مع الإمبراطور فوقاس (٦٠٢-٦١٠م) الذى حاول أن يفرض المذهب الملكانى على المصريين بالقوة والقسوة والعنف، فعجل ذلك بسقوطه، فقد رحب المصريون بثورة هرقل ضد فوقاس، حتى أنهم ساعدوا ابن عمه نيقياس (ابن عم هرقل) فى الاستيلاء على مصر، كذلك سر المصريون بتتويج هرقل إمبراطوراً عام ٦١٠م ورحبوا بمقدم جنوده لاعتقادهم بأن حكم هرقل سوف يكون أخف وطأة من حكم سلفه فوقاس، وأنه سيكون



خاتمة للاضطهادات وسفك الدماء. وبالفعل أظهر الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) في مستهل حكمه التسامح والتساهل مع المونوفيزيتيين، وحاول منذ ارتقائه العرش إيقاف جميع المظالم والاضطهادات الدينية، التي كانت ترتكب ضدهم، فأصدر في عام ٦١٠م مرسوماً عن العقيدة، حقيقة أن عباراته كانت أرثوذكسية، ولكنه أظهر الرغبة الصادقة في مصالحة المونوفيزيتيين، إذ أورد صيغة كيرلس بطريرك الإسكندرية (٤١٢-٤٤٤م) التي تقول: "إن في المسيح طبيعتين متحدتين بلا انفصال ولا امتزاج ولا اختلاف". كذلك أظهر نيقتاس ابن عم هرقل الذي أصبح حاكماً من قبله على مصر أظهر عطفه على المونوفيزيتيين، وحاول حسم الخلافات بينهم، وسمح لهم في عهده بإعادة تشييد ما كان لهم من مزارات ومشاهد، وأبقى البطريرك المونوفيزيتي انستاسيوس في كرسيه حتى وفاته، واتخذ البطريرك اندرونيقوس - الذي خلفه - مقره بالإسكندرية دون أية معارضة.

ما لبثت مصر أن وقعت مع الأقاليم الشرقية الأخرى في يد الفرس خلال الفترة من (٦١٠-٦٢٩م) فاستولوا مع مصر عام ٦١٩م، وعجز البطريرق نيقتاس عن الدفاع عنها وهرب إلى القسطنطينية. وبعد أن اكتمل الفتح الفارسي لمصر، وهدأت أحوال البلاد، أظهر الفرس تسامحاً دينياً كبيراً تجاه المصريين، كما أظهروا لهم الرفق ولين الجانب، إذ تركوا لهم الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية، وعهدوا بالسلطة الدينية في الإسكندرية للبطريرك اليعقوبي اندرونيقوس بعد فرار البطريرك الملكاني يوحنا المتصدق. وبهذا لم يعد هناك خليفة لبطريرك الكنيسة البيزنطية في مصر. إلى جانب ذلك اضطهد الفرس - طبقاً لسياستهم المعتادة - الكنيسة البيزنطية، فهرب عدد من الأساقفة ورجال الدين الأرثوذكس إلى الأقاليم البيزنطية الأخرى، واستغل المصريون هذه الفرصة، واستولوا على الكنائس الأرثوذكسية. وعلى هذا النحو تعلم المونوفيزيتيون في مصر خلال فترة الاحتلال الفارسي أنه يمكنهم الحياة في ظل إدارة أخرى غير



بيزنطية. كما أن تشجيع الفرس لهم، جاء بنتائج هامة منها أنه قوى من عزيمتهم، وجعل مذهبهم أكثر قوة وقدرة. وهذا يفسر الجهود التي بذلها هرقل بعد انتصاره على الفرس لمحاولة جمع هؤلاء المونوفيزتيين من جديد حول العقيدة الإمبراطورية.

وبعد عودة مصر إلى حظيرة بيزنطة ثانية وانتهاء حكم الفرس لها، كان من الضروري وضع نهاية للشقاق الديني الذي هدد الإمبراطورية وفصل عرى الأقاليم الشرقية - وأهمها مصر - الأكثر غنى، ولتوحيد الكلمة وجمع الصفوف خاصة أن الأخطار كانت لا تزال تحيط بالإمبراطورية وتهدد كيانها، لهذا كان طبيعياً أن يشعر الإمبراطور هرقل بالحاجة الملحة للتوصل إلى حل للمشكلة الدينية باتباع سياسة دينية جديدة تختلف عن سياسة سلفه فوقاس (٦٠٢-٦١٠م) وشاركه الرأي سرجيوس بطريرك القسطنطينية خاصة وأنه كان من أصل شرقي ومن أبوين من اليعاقبة.

توصل البطريرك سرجيوس إلى صيغة جديدة أمل بها عودة المونوفيزتيين إلى حظيرة الكنيسة الأرثوذكسية وهي مذهب الإرادة الواحدة (المونوثلستية Monothelism)، ويعنى من الناحية اللغوية أن طبيعتى السيد المسيح الإلهية والبشرية تتسمان بإرادة واحدة، ومن الناحية التاريخية هو مشروع للوحدة الدينية يهدف إلى عودة المونوفيزتيين إلى حظيرة كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية.

وضع سرجيوس هذا المبدأ أمام الإمبراطور هرقل من أجل إتمام الوحدة بين الكنيستين إذ كان فى منتصف الطريق بين الاعتقاد بالطبيعتين والاعتقاد بالطبيعة الواحدة، فقد أبقى على الطبيعتين فى البداية، وأضاف إلى الطبيعة الواحدة الفعل الواحد ثم الإرادة الواحدة. ورأى هرقل فى القول بالطبيعتين مع فعل واحد مخرجا من الأزمة اللاهوتية المستحكمة، كما وجد فيه وسيلة سهلة للوصول إلى الاتحاد الدينى بين المونوفيزتيين وكنيسة القسطنطينية، وهذا



الاتحاد إذا تحقق فإنه سوف يكسب العديد من المونوفيزيتيين في الأقاليم الشرقية وخاصة مصر والشام وغيرها، تلك الأقاليم التي ظلت بعيدة عن الكنيسة الرسمية في القسطنطينية.

لقيت قضية الاتحاد نجاحا كبيرا في الإسكندرية، فقد وجه هرقل جهوده الرئيسة نحو مصر، التي تمتع فيها المونوفيزيتيون غداة جلاء الفرس عنها في عام ٦٢٩م - بسلطة ونفوذ قويين، وكان البطريرك المونوفيزيتي المصري (بنيامين) على رأس كنيسة الإسكندرية، ويبدو أن البيزنطيين لم يصدّموا به عند استعادتهم مصر، بل على العكس سمحوا له بأن يظل مقيما في الإسكندرية وليس هناك سجل أو تدوين يظهر أن هرقل حاول التفاهم مع بنيامين، ومن المحتمل أنه حاول أن يكسبه ويضمه إلى صف المذهب الجديد.

أما عن البطريرك الملكاني جورج، الذي ارتقى كرسي كنيسة الإسكندرية في عام ٦٢٠م، وعانى الكثير أثناء سيطرة الفرس على مصر، فقد توفي بعد عودة مصر إلى السيادة البيزنطية بعام واحد أي في عام ٦٣٠م، لذلك عين الإمبراطور هرقل كيروس Cyrus - الذي عرف فيما بعد في المصادر العربية باسم المقوقس - خليفة له. وقد عينه هرقل من أجل أن ينشر مذهب الفعل الواحد والإرادة الواحدة في الإسكندرية، فقد كان كيروس من أوائل من أيدوا هذا المذهب وعملوا من أجله.

تلقى البطريرك بنيامين بمزيد من الحذر والقلق خبر قدوم البطريرك الجديد كيروس في عام ٦٣٠م حتى أنه لم ينتظر حتى يصل، ولم يحاول أن يلقاه بل قام على الفور بترتيب الأمور المتعلقة بالكنيسة، فيذكر ساويرس بن المقفع أنه كتب على الفور إلى جميع الأساقفة في كرسية لكي يختفوا، وأنه دبر حال الكنيسة ورتبها، وتقدم إلى الكهنة والشعب، وأوصاهم أن يثبتوا على عقيدتهم حتى الموت، أما هو فقد تسلل خفية تحت جناح الظلام من الإسكندرية، ومضى إلى الصعيد، وأقام مختفيا هناك في دير صغير لمدة عشر سنوات.



وصل كيروس إلى الإسكندرية في خريف عام ٦٣١م، وأقام فيها ليس كبطريك فقط، ولكن كحاكم لمصر أيضا، وكرمز لسلطته كان يرتدى فردتى حذاء، أحدهما سوداء وترمز للون الدينى، والأخرى أرجوانية وترمز للون الإمبراطورى، ويذكر ساويرس أن هرقل "ارسل واليا إلى أرض مصر يدعى كيروس ليكون بطركا وواليا معا"، فقد أراد هرقل أن يجمع كل السلطات فى شخص بروس، بسبب الوضع المضطرب فى مصر، وبسبب الفشل فى الوصول إلى أى تفاهم مع المصريين ولهذا خول لكيروس السلطات المدنية والعسكرية إلى جانب سلطته الدينية والروحية، فأصبح لكيروس بذلك سلطانا مطلقا.

راح كيروس يحاول فى الحال الوصول إلى تفاهم مع العناصر المختلفة فى الكنيسة، خاصة أن المذهب الجديد لم يلق نوعا من التوفيق فى أول الأمر فقد رأى المونوفيزيتيون أنه ما دام لله إرادة واحدة فلا بد من التسليم بأن له كذلك طبيعة واحدة، ورأى اتباع المذهب الملكانى أن المذهب الجديد يخالف تماما المذهب الخلقونى. على أن كيروس نجح بالتفاوض حيناً، وبالضغط والوعود حيناً آخر فى إقناع عدد من موظفى الكنيسة المونوفيزتية المصرية ليوافقوا على المذهب الجديد، ويرتبطوا بالكنيسة الأرثوذكسية وكان أن قبل عدد منهم ذلك، ومن هؤلاء قيرس أسقف نقيوس وفكتور أسقف الفيوم. وفى ذلك يذكر ساويرس بن المقفع أنه "ضل جماعة منهم بالعذاب، وبعضهم بالهدايا، وبعضهم بالخداع والسؤال فخالفوا الأمانة، ولم يسمعوا وصية الأب بنيامين".

دعا كيروس فى صيف عام ٦٣٣م إلى مجمع فى الإسكندرية حضره عدد كبير من الأساقفة المونوفيزتيين، كما حضره ممثلون عن المذاهب المختلفة، وانتهى المجمع إلى إقرار الاتحاد والمذهب الجديد، وأصدر هذا المجمع تسعة قرارات للحرمان يتعلق القرار السابع منها بضرورة إقرار مذهب الفعل الواحد والإرادة الواحدة، واحتفل فى كنيسة الإسكندرية فى ٣ يونيو ٦٣٣م بقبول الاتحاد رسميا، كذلك احتفل بكيروس نفسه بطريكاً رسمياً. وأخبر كيروس



الإمبراطور هرقل فى الحال بهذا النجاح وبإعلان الاتحاد، وكتب خطاباً مطولاً وأرسله إلى سرجيوس بطريرك القسطنطينية مع وثيقة الاتحاد التى تحوى قرارات الحرمان التسعة. أدخل خبر الاتحاد البهجة والسرور على نفس كل من الإمبراطور هرقل والبطريرك سرجيوس، وأرسل الأخير خطاباً إلى كيروس يمتدح فيه الجهود التى بذلها كيروس من أجل جعل كنيسة الإسكندرية تنضم إلى الكنيسة الأرثوذكسية، ويقدم له الشكر لأنه بفضل هذا الاتحاد سقط جدار الخلاف والشقاق بين الكنيستين.

تعرض المذهب المونوتلستى للرفض من جانب صفرونيوس Sophronius بطريرك بيت المقدس ومن جانب هونيوس بابا روما (٦٢٥-٦٣٨م) مما دفع سرجيوس وهرقل إلى التخلّى عن فكرة الفعل الواحد على حين أقرا فكرة الإرادة الواحدة فى شخص المسيح، وأذيعت الصيغة الجديدة فى مرسوم أعده سرجيوس وأعلنه هرقل فى عام ٦٣٨م وعرف هذا المرسوم باسم Ecthesis أى (شرح العقيدة وتقرير الإيمان)؛ ويعنى تحريم الفعل الواحد أو الفعلين مع اثبات أنه لا توجد فى شخص المسيح سوى إرادة واحدة فقط وبطبيعتين بلا اختلاط ولا انفصال. غير أن هذا المرسوم لقى بدوره معارضة شديدة من باباروما، ولم يحقق الأهداف المرجوة منه، لهذا وجد هرقل نفسه مضطراً إلى التبرؤ منه.

الحقيقة أن جهود هرقل وسرجيوس من أجل المصالحة بين المونوفيزيتيين والارثوذكس وإعادة المونوفيزيتيين إلى حظيرة الكنيسة الإمبراطورية قد ضاعت هباء وسدى، خاصة بعد أن استولى المسلمون على معظم الأقاليم الشرقية ومنها مصر، التى كان تدين بالمذهب المونوفيزيتى، والتى حاولت الكنيسة البيزنطية على يد رجلها كيروس أن تخضعها بثتى الطرق لمذهب الإرادة الواحدة ثم الفعل الواحد ففشلت.



## النظام الإدارى فى مصر فى العصر البيزنطى :

أصبحت مصر وفقا لاصلاحات دقلديانوس "٢٨٤-٣٠٥م" ولاية تابعة لدوقية الشرق<sup>(١)</sup>، التى كان يحكمها كونت الشرق، وقد قسمت مصر من الناحية الإدارية زمن دقلديانوس إلى ثلاثة أقاليم، شرق الدلتا ومصر الوسطى، وطيبة، وغرب الدلتا والإسكندرية وكان يحكم الإقليمين الأولين حاكم، واتخذ لقب برايسس Praeses أى مدير أو متصرف. أما الإقليم الثالث (الإسكندرية) فوضع تحت امرة حاكم يحمل لقب (والى مصر Praefectus Aegypti) ويتمتع بسلطة أعلى من سلطة زميليه. هذا ويخضع الحكام الثلاثة لسلطة كونت الشرق. ويتولى هؤلاء الحكام الثلاثة السلطة المدنية أما السلطة العسكرية فقد تولها قائد يحمل لقب "دوق مصر" "Dux Aegypti". وقد فصل دقلديانوس بين السلطتين للتخفيف من وطأة الجيش وسيطرته على الدولة، وحتى يخضع الجميع لسلطته مدنيين وعسكريين.

وظل هذا التنظيم الإدارى سارى المفعول حتى عهد الإمبراطور قسطنطين العظيم (٣٠٦ - ٣٣٧ م) الذى سار عليه هو ومن بعده من الأباطرة البيزنطيين حتى عام ٣٨٢ م حيث قام الإمبراطور ثيودوسيوس الأول بإدخال تعديل على هذا النظام، وتمثل هذا التعديل فى فصل ولاية مصر عن دوقية الشرق وأصبحت مصر دوقية مستقلة بذاتها، يحكمها الوالى الأغسطسى أو الأوجستالى Augustalis Duke (أى العظيم) وكان يعادل حكام أربع مقاطعات (شرق الدلتا وغرب الدلتا، طيبة، الإسكندرية) الذى يقيم فى الإسكندرية على أنه نائب الإمبراطور والذى أصبح له السيطرة التامة على جميع البلاد، فهو الحاكم العسكرى الفعلى وله مطلق السلطات بمصر، مع عدم إغفال الفصل بين السلطة المدنية والسلطة العسكرية.

(١) تضم دوقية الشرق كل من مصر وإقليم قورنية بليبيا بالإضافة إلى الإقليم السورى (الشامى).



وفي القرن الخامس حدث تطور إدارى هام فى مصر إذا أُلغى مبدأ الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية تماماً، وذلك لحاجة البلاد الماسة إلى حكومة قوية، تجمع فى يدها مختلف السلطات، سواء كانت مدنية أم عسكرية ومن ثم أصبح الوالى الأوجستالى بالإسكندرية حاكماً مدنياً وعسكرياً فى آن واحد وطبق هذا النظام على كافة الأقسام الإدارية داخل مصر ومن بينهما طيبة وذلك بسبب موقعها وتعرضها المستمر لإغارات بدو الصحراء .

### الوحدات الادارية (القرية - الباجوس - الباجركية):

لقد أدركت الإمبراطورية البيزنطية، لاسيما منذ عهد دقلديانوس أن القرية تعتبر وحدة بالغة الأهمية فى زراعة الأرض المحيطة بها، فكثير من القرى جمعت بين الأراض الخاصة والأرض العامة المملوكة للدولة، قبل أن ينتقل الجانب الأعظم من أراضى الدولة إلى الأفراد ويدخل فى نطاق الملكية الخاصة لأهل القرية، ولهذا فقد أصابت بعض القرى من الرخاء والثروة ما ميزها عن غيرها كثيراً، بفضل ما صار لها من ملكية خاصة للأراضى، وزاد فى مكانة القرية ما صدر من تشريعات تمنع بيع أراضى القرية لأى أجنبى عنها.

كانت القرية أهم وحدة إدارية فى مصر فى العصر البيزنطى بل هى محور النظام الإدارى، وقد القى على عاتق القرية كوحدة إدارية مهام من بينها : الإشراف على زراعة الأرض، وجمع الضرائب وغيرها من الالتزامات المقررة عليها . وكان للقرية إدراتها الخاصة بها إذ يرأسها موظف يطلق عليه لقب ( كومارك ) أو كومارخ Comarch ويعنى شيخ البلد أو العمدة فيما بعد، ويساعده كاتب ومجلس يتألف من شيوخ القرية يتولى الإشراف على شئون القرية الداخلية، وينظر فى أمورها المحلية ويكون مسئولاً عن تنفيذ أوامر الوالى، كما يتحمل تكاليف الاحتفالات والأعياد فى القرى وتنظيمها وخاصة الأعياد الدينية. وفى القرن السادس أصبح العمدة (Meizon) أكبر موظف



بالقرية، وحل ملك الإقطاعات محل مجلس شيوخ القرية. وتولى العمدة الإشراف المالى وشئون القضاء، وكان يتقاضى راتباً عينياً حيناً أو نقدياً أحياناً أخرى، وهناك عدد آخر من الوظائف عرفتها القرية منها المسئول عن مياه الفيضان، مسئول الخزانة، حراس الحقول والمشرفون على القنوات وتنظيمها. هذا إلى جانب الجباة والكتاب وعمال البريد حيث يتولون نقل الاموال رأساً إلى عاصمة الولاية. كذلك قامت بالقرية وظائف خاصة بالشرطة ويقوم أصحابها بأعمال الحراسة إلى جانب جمع الضرائب وتوصيلها إلى الإدارة. دون تدخل السلطات العليا فى عملهم.

وهناك تنظيم إدارى آخر يعلو التنظيم الإدارى داخل القرية، ويعرف باسم الباجوس Pagus (المركز) وقد أدخله الرومان مصر فى عام ٣٠٧-٣٠٨م، وهو عبارة عن تولية أحد أعضاء مجلس الشورى فى كل إقليم الإشراف على عدد من القرى، وكانت له سلطة كبيرة، فهو المسئول عن زراعة الأرض، وتقدير الضرائب النقدية والعينية وجبايتها، وكان يمارس القضاء والشرطة أحياناً. ومن مهام الباجوس أيضاً إجراء التعينات فى وظائف القرية والإشراف على تأجير أراضى القرية. وفى القرن الرابع ألغى نظام الباجوس هذا وحل محله نظام إدارى آخر وهو نظام ( الباجركات ) حيث أصبحت المنطقة الريفية كلها تشكل مقاطعة واحدة . واختير رئيس الباجركية Pagarchia (المحافظة) من بين الأغنياء إذ كان لا يتقاضى اجراً عن وظيفته هذه . (والباجرك أو المحافظ) موظف تابع للإمبراطور، يعين من قبله ومسئولاً أمامه. وكان الباجرك يتولى الإشراف على كافة الشئون المالية بالباجركية من مدن وقرى ومتابعة الشئون القضائية .

واستمرت هذه التنظيمات الإدارية معمولاً بها فى مصر البيزنطية، حتى اعتلى الإمبراطور جستنيان ( ٥٢٧ - ٥٦٥ م ) العرش البيزنطى، وحاول



إدخال العديد من الإصلاحات والتغييرات على النظام الإدارى، الذى كان معمولاً به فى مصر، ويظهر ذلك من خلال المرسوم الذى أصدره جستينيان فى عام ( ٥٣٨ - ٥٣٩ م ) والذى يعرف ( بمرسوم ١٣ ) إلى والى الشرق .

وقبل أن نعرض للتنظيمات الإدارية التى تضمنها هذا القانون، تجدر الإشارة إلى أن جستينيان أسس أسرة حكمت الدولة البيزنطية قرناً من الزمان على وجه التقريب، ولد جستينيان بمقدونيا، وجاء إلى القسطنطينية وهو حديث السن حيث تلقى علومه فى مدارسها، ثم شارك خاله جستين فى حكم الإمبراطورية ثم حكمها منفرداً . وترجع شهرة جستينيان الواسعة إلى ما تركه من مجموعات القوانين التى لا تزال تحمل اسمه وتدرس فى جامعات العالم . هذا فضلاً عما خلفه من عمائر ضخمة . ومن أهمها دير سانت كاترين الذى بنى فى القرن السادس للميلاد بإيعاز من ثيودورا (هبة الله) زوجة جستينيان، وبأمر منه لياوى إليه الرهبان الذين تجمعوا فى المكان الذى تجلى فيه الله لموسى عند سفح الجبل بوادى "طوى المقدس" .

### التنظيمات الإدارية فى مصر وفقاً لقانون ١٣ :

تتلخص التنظيمات الإدارية التى وضعها جستينيان لمصر وفقاً لقانون

١٣ فيما يلى :

أولاً : رأى جستينيان ضرورة إعادة مصر مرة أخرى لإشراف كونت الشرق وهذا يعنى زوال شخصية والى الالوجستالى ( الأوغسطسى ) ذلك المنصب الذى ظهر منذ عام ٣٨٢م - عندما انفصل والى مصر عن كونت الشرق . ومن ثم أصبح والى مصر الالوجستالى مجرد حاكم على وحدته الإدارية، وزالت بذلك مهمته ككائب للإمبراطور، وعليه أن يرجع إلى والى الشرق مباشرة فى تصريف أموره دون وساطة بينهما . ولذلك جرى توجيه مرسوم رقم ( ١٣ ) إلى والى الشرق وليس إلى الالوجستالى .



ثانياً : انقسمت مصر إلى خمس دوقيات أو ولايات وهى :  
مصر ، أوجستامنيكا ، اركاديا ، طيبة ، وليبيا .

### ١ - دوقية مصر :

وتشمل الجزء الذى يقع غرب الدلتا، بما فى ذلك مدينة الإسكندرية وقسم  
جستينان دوقية مصر هذه إلى ابروشيتين أو ولايتين هما : أبروشية مصر  
الأولى، وأبروشية مصر الثانية، وعين جستينان على رأس هذه الدوقية دوق  
يحمل لقب أوجستال، وعهد إليه بالسلطتين المدنية والعسكرية، فإلى جانب  
الأعمال المدنية التى كان يؤديها تولى قيادة القوات المرابطة فى أبروشيتي  
مصر الأولى ومصر الثانية وفى الإسكندرية .

### ٢ - دوقية أوجستامنيكا :

وتشمل الجزء الواقع شرقى الدلتا حتى بلوزيوم (الفرما) والعريش،  
وتنقسم أيضاً إلى أبروشيتين : أبروشية أوجستامنيكا الأولى وأبروشية  
أوجستامنيكا الثانية، وعين جستينان على دوقية أوجستامنيكا دوقاً أو والياً يجمع  
فى يديه السلطتين والمدنية والعسكرية .

### ٣ - دوقية أركاديا :

سميت بذلك نسبة إلى الإمبراطور أركاديوس ابن الإمبراطور  
ثيودوسيوس، والذى آل إليه القسم الشرقى من الإمبراطورية بعد أن قسمها أبوه  
إلى قسمين شرقى وغربى . وتشمل مصر الوسطى حتى البهنسا، وتمتد على  
الشاطئ الأيسر للنيل، ابتداء من رأس الدلتا حتى الشيخ فضل، وكانت أركاديا  
وحدة إدارية واحدة، ولم تنقسم كغيرها إلى أبروشيتين وكان حاكمها يحمل لقب  
كونت ويجمع بين السلطتين المدنية والعسكرية، وكانت عاصمة أركاديا هى  
(أرسينوى) أى الفيوم الحالية .

#### ٤ - دوقية طيبة :

وتشتمل على الجزء الجنوبي من إقليم مصر أى من الأشمونين حتى جزيرة فيلة وأقصى الجنوب . وتعتبر دوقية طيبة إقليم أطراف، وتولى حكمها دوق أوجستال، يخضع لوالى الشرق، ويجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية. انقسمت دوقية طيبة إلى أبروشيتين طيبة العليا وطيبة السفلى، وتولى إدارة كل من هاتين الأبروشيتين حاكم مدنى يخضع للدوق الأوجستال .

#### ٥ - دوقية ليبيا :

ضم هذا الإقليم إلى مصر من الناحية الإدارية منذ عهد الإمبراطور انستاسيوس ( ٤٩١ - ٥١٨ م ) وخضعت ليبيا فى عهده لسلطة دوق، ولكن لم يكن فى يده إلا السلطة المدنية فحسب، واستمر الحال كذلك فى عهد جستينيان ( ٥٢٧ - ٥٦٥ م ) مع إدخال تعديل واحد وهو أن دوق ليبيا لم يعد يخضع لسلطة أوجستال الإسكندرية . وكانت بارايتونيوم ( مرسى مطروح ) عاصمة إقليم ليبيا الإدارية .

يتضح مما سبق أن مصر انقسمت وفقاً لقانون ( ١٣ ) الذى وضعه جستينيان فى عام ( ٥٣٨/٥٣٩ م ) إلى خمس دوقيات، هى مصر وأوجستامنيكا وطيبة وأركاديا وليبيا، وقسمت كل دوقية منها إلى أبروشيتين، فيما عدا دوقيتى أركاديا وليبيا، فكان لكل منهما أبروشية واحدة . وكان لكل أبروشية حاكم يتميز بصفته المدنية . هذا وانقسمت الأبروشيات إلى وحدات إدارية أصغر تعرف باسم ( الباجركات ) والمدن والقرى والضياع الكبيرة .

على إنه إذ كانت الاصلاحات الإدارية الكبرى، التى قام بها جستينان قد حققت الأهداف المرجوة منها، ممثلة فى أضعاف مقاومة مصر والمحافظة على الأمن، واستعادة ما للحكومة الإمبراطورية من



سلطان، بأن جعل كل دوق أوجستال يتمتع بالسلطتين المدنية والعسكرية فتساوى الدوقات بذلك فى النفوذ والسلطان مما أدى إلى عدم التعاون بينهم، وعدم اتحادهم حتى يصبحوا قوة فى وجه الإمبراطورية بل وظهرت المنافسة بينهم. هذا وقد ترتب على هذه الاصلاحات نتيجة بالغة الأهمية، وهى القضاء على وحدة البلاد السياسية بما أقدم عليه جستيان من إلغاء وظيفة نائب الإمبراطور، ومنح حاكم الدوقية السلطتين المدنية والعسكرية. هذا فضلاً عن أن هذا الانقسام أضعف من مقاومة مصر أمام جيوش المسلمين .

وسوف نتحدث فيما يلى عن اختصاصات كل من الدوقات ورؤساء الابروشيات والباجركات، وكذلك عن المسؤولين عن إدارة المدن والضياح الكبيرة وما كان لهم من سلطات .

### أولاً : الدوقات :

يحتل دوقات مصر مركز الصدارة فى ترتيب الوظائف الإدارية البيزنطية. وكان الإمبراطور يختار هؤلاء الدوقات من بين موظفى البلاط . كذلك وصل إلى منصب الدوق عدد من السكان الأصليين دون أن يشغلوا من قبل أى منصب أو وظيفة فى البلاط الإمبراطورى، وكان هؤلاء من أعيان البلاد، الذين لهم مكانة مرموقة، واشتهروا بنفوذهم وسلطانهم . وكان من حق الإمبراطور، أن يعزل هؤلاء الدوقات فى أى وقت يشاء، إذ لم تكن هناك مدة معينة لشغل وظيفة الدوق . ومن أهم الشروط التى كان يجب توافرها فى الشخص، الذى يتولى هذا المنصب، أن يكون مؤمناً بمذهب الدولة الدينى، إذ يحرم على الهراطقة تولى هذا المنصب . هذا وتغاضى بعض الأباطرة عن هذا الشرط فهناك عدد من المصريين الذين يدينون بالمذهب المونوفيزيتى ( الطبيعة الواحدة ) تولوا وظيفة الدوق - رغم كونهم ليسوا على



مذهب الدولة الرسمي - ومن أمثلة هؤلاء ولاية طيبة، ومنهم أيون وهوريون (زمن جستينيان) .

ونظرًا لأن الدوق كان يمثل الإمبراطور، ويعتبر نائبه في البلاد، فقد تمتع بسلطات واسعة من بينها : أنه يجمع في يديه السلطتين المدنية والعسكرية، فهو الرئيس الأعلى للإدارة والقضاء والشرطة، ويقوم بحفظ الأمن العام في المدن، ويساعد عمال الخراج في استخلاص الضرائب، هذا بالإضافة إلى أعباء وظيفته العسكرية، فهو يتولى قيادة وإدارة فرق الجيش، ويهيمن على مختلف الشئون العسكرية وغير العسكرية التي تهم الجند ويحرص على صرف رواتبهم وملابسهم بانتظام، وفي حالة الخطر الذي قد يهدد البلاد عليه أن يخرج على رأس الجيش، أو يندب عنه أحد قادته لدفع هذا الخطر كذلك يخول له الحق في عقد أى معاهدة أو صلح مع الأعداء . أما في وقت السلم فكان عليه أن يطوف البلاد ليتفقد أحوالها، ويقف على أحوال الحاميات والاستحكامات، ويسهر على حماية الحدود من إغارات البدو .

ازداد سلطان الدوق داخل البلاد، بفضل ما ركزه جستينيان في يديه من سلطات، وكان يهدف من وراء ذلك إلى استتاب الأمن في مصر واستغلال هذا الإقليم في هدوء .

وعمل جستينيان على زيادة مرتبات الدوقات وذلك ليضمن ولائهم وإخلاصهم له حتى لا يفكروا في الخروج عن طاعته من ناحية ومن ناحية أخرى لكي لا يتلاعب هؤلاء الدوقات بما تحت أيديهم من أموال الضرائب، ويمتنعوا عن إرسالها إلى القسطنطينية، كذلك حرص جستينيان على زيادة رواتبهم حتى لا ينصرفوا إلى الاهتمام بجمع الأموال وتكديسها لأنفسهم، على حساب خزانة الدولة ودفاعي الضرائب . وبلغ راتب الدوقات في مصر أربعين ليرة ذهبية سنوياً وهو أعلى راتب، وكان يفوق راتب دوق ليبيا ودوق



أفريقية، ويدل ذلك على ما كان يحظى به دوق مصر من مكانة كبيرة لأنه المكلف بجمع الضرائب وارسالها الى بيزنطة.

ولم يكتف جستانيان بزيادة مرتبات الدوقات، وإغداق الأموال عليهم بل سعى إلى استرضائهم وغمرهم بكثير من كرمه وسخائه، وإذا كان الإمبراطور قد أغدق عليهم من نعمه، فإنه ينتظر منهم أن يؤديوا عملهم في شيء من الأمانة والدقة، وأن تبقى يد الدوق طاهرة نظيفة، وأن يكون جديرًا بثقة الإمبراطور، ولذلك وضع الإمبراطور عقوبات صارمة لمعاقبة من يقع منهم في خطأ.

وكان للدوق حاشية خاصة، تتألف في حالة السلم من حرس الشرف، وفي حالة الحرب من الجند المختارة، وللدوق ديوان خاص به، يضم مجموعة من الموظفين المدنيين والعسكريين، لا تقل عن ست مائة موظف، منهم المبعوثين ( الرسل ) والمترجمين الذين يتولون نقل النصوص الرسمية إلى القبطية ورجال الدين ورجال البريد والموثقين، بالإضافة إلى الوظائف المختلفة التي يضمها الديون .

ويقوم الدوق بتأليف الديوان وتنظيمه وترتيبته، ثم يُخطر والى الشرق بنتيجة عمله هذا، حتى يتم تصديق الإمبراطور على التشكيل النهائي للديوان، وعندما تتم موافقة الإمبراطور على اختيار موظفى الديوان، يتلقى كل منهم الموافقة الرسمية من الديوان الإمبراطورى، مع إقرار رسمى من القسطنطينية بتعيينه فى وظيفته . وهذا يعنى أن موظفى الديوان يعينون من قبل الحكومة المركزية بالعاصمة الإمبراطورية .

ويتألف الديوان من عدة إدارات هى :

١ - الإدارة المالية : وتتولى الإشراف على جباية الخراج وأموال الضرائب.

٢ - إدارة التجنيد : وتتولى توزيع الشهادات على المجندين، وهى التى تشير إلى أنهم أصحاب البدن، وأن التحاقهم بالجيش لم يكن الغرض منه الهرب من الالتزامات البلدية أو المدنية .

٣ - إدارة الشئون القضائية : ولها السلطة العليا فى القضاء الجنائى .

٤ - إدارة المحفوظات ( ديوان الإنشاء ) : ويجرى بها تحرير الوثائق وحفظ السجلات .

٥ - إدارة المظالم : وترفع إليها الشكاوى والملمات .

٦ - إدارة المنشآت العامة : وتتظر فيما يتعلق بالعمائر، وبفضل اهتمامها تم تشييد استحكامات فيلة، والحصون فى مصر الأولى وفى طيبة .

٧ - إدارة الخزانة : وتتجمع فيها ما يتم جبايته من ضرائب الدوقية أو الولاية .

ونظراً لأن الدوق كان يمارس القضاء، وكان الرئيس الأعلى له، فقد كانت محكمة الدوق من أهم المحاكم المحلية، وكانت تعقد جلساتها فى عاصمة الدوقية، وكان الدوق ينظر فى القضايا الجنائية والمدنية، كما ينظر فى الدعاوى والخصومات المتعلقة بالإدارة المالية، كذلك قضايا القادة والجنود . وكان له مستشار قضائى، كما كان بمحكمته محامون، وكذلك له نواب أو مندوبين فى مدن الدوقية .

## ثانياً : رؤساء الأبروشيات :

من المعروف أن كل دوقية كانت تنقسم إلى أبروشيتين فيما عدا دوقيتى اركاديا وليبيا، وأن رؤساء الأبروشيات اتخذوا ألقاباً من بينها، لقب أرخون وأحياناً لقب دمستق ومنهم من اتخذ لقب تريبون Tribun وتعنى نقيب العامة .

ويختار رئيس الأبروشية من موظفى الإقليم نفسه، عن طريق أهل الإقليم،



وكانت سلطات رئيس الأبروشية محدودة للغاية، فهو مجرد تابع للدوق يرجع إليه في كل الأمور، وذلك نظراً لما يتمتع به الدوق من سلطات واسعة على مختلف الشئون المدنية والعسكرية، ولهذا اقتصر مهام رئيس الأبروشية، على ممارسة القضاء وجباية الضرائب، ويتم ذلك أيضاً تحت إشراف الدوق . ومن ثم كان رئيس الأبروشية يشرف على الشئون المدنية ولم يكن له أى سلطات عسكرية .

ويتبع رئيس الأبروشية ديوان صغير، يضم عدد من الموظفين الذين يتولون العمل بالأبروشية منهم الكاتب، وعمال البريد، والمشرفين على ميادين السباق، ومرافقين مدنيين وعسكريين لرئيس الأبروشية، هذا وكان يخضع لسلطات رئيس الأبروشية فصيلة من رجال الشرطة، تساعد في تنفيذ أحكام القضاء .

أما عن ديوان رئيس الأبروشية فيتألف من إدارات مختلفة منها الإدارة المالية، والإدارة القضائية، وإدارة المحفوظات وكتابة الإنشاء، وإدارة الإشراف على موظفى الديوان .

### ثالثاً : الباجركات (المحافظون) وحق الجباية الذاتية :

ومفردتها باجرك، وهى وظيفة مدنية، يتولاها أحد الموظفين أو أحد كبار الملاك المحليين، وكان الباجرك موظفاً تابعاً للإمبراطور، يستمد سلطانه منه مباشرة، ومعينا من قبله ومسئولاً أمامه، وعلى الرغم من أن الباجرك يخضع لإشراف الدوق، إلا أن الأخير لا يملك الحق فى عزله، إذ لم يقر بواجبه، أو إذا أساء استخدام سلطاته، أو صدر منه أى خطأ . وفى حالة تقصير الباجرك فى تأدية واجبه على الوجه الأكمل، يتقدم الدوق بتقرير عنه إلى والى الشرق، الذى يقوم بدوره، بإبلاغ الإمبراطور، الذى من حقه وحده أن يقرر عزل الباجرك وتعيين آخر فى منصبه .



أما عن مهام الباجرك فيغلب عليها الصفة المالية، إذ كان مسئولاً عن جباية الضرائب من سائر الجهات التابعة له . كما كان الباجرك يشارك أيضاً في الأمور القضائية إذ كان يقوم بتنفيذ القرارات والأحكام، التي تصدر عن محكمة الدوق . فضلاً عن إنه كان ينظر في القضايا الجنائية الصغيرة وبعض القضايا المدنية، على أهم المهام القضائية التي مارسها الباجرك وظيفته (قاضي المصالحات) إذ كان ينظر في عقود الضمان، وفي الشكوى ويرد الحقوق لأصحابها من خلال محكمته . وكانت مهمة الباجرك غاية في الدقة لأنه يتصل بالسكان مباشرة أثناء جباية الأموال وتنفيذ أحكام القضاء . هذا ويساعد الباجرك في تأدية مهام منصبه، ويخضع لأوامره جماعة من الموظفين، منهم الجباة والمراقبون والكتاب والمساعدون . وتقرر أن يكون تحت تصرفه سفينة وبحارة عندما يطوف بالبلاد لتفقد أحوالها .

وتشمل سلطة الباجرك عاصمة الإقليم وكل ما يحيط به أو يتبعه من قرى وضياع باستثناء الأراضي التي تتمتع بحق الجباية الذاتية .

سعت الدولة لضمان حصولها على الخراج، إلى منح ما يعرف بالجباية الذاتية، لعدد من القرى وكبار الملاك والكنيسة، بمعنى أن الباجرك لا يقوم بجباية الضرائب من هذه القرى أو من هؤلاء الملاك أو الكنيسة، بل يقوم هؤلاء بإرسال أموال الضرائب مباشرة إلى حاكم الإقليم، أما إذا كانت الضرائب عينية كالمح مثلاً، فيقومون بإرسالها إلى الإسكندرية .

وتعنى الجباية الذاتية بالنسبة للقرية، أن أهلها يشكلون نقابة معينة، تكون مسئولة مسئولية جماعية عن جمع الضرائب وإرسالها إلى حاكم الإقليم دون وساطة الباجرك في ذلك . ومن ثم صار لمجلس القرية علاقات دائمة مع دواوين رؤساء الأبروشيات فيما يتعلق بالشئون المالية .

ويرجع سبب اللجوء إلى نظام الجباية الذاتية إلى ما كان يتعرض له



الفلاحون من ضغط وإرهاب على يد الباجرك، لذلك كانت حالة الفلاح الخاضع لسلطات الباجركية أسوأ من حالة زميله الموجود فى القرى التى تتمتع بحق الجباية الذاتية .

وقد ترتب على تمتع القرى وكبار الملاك والكنيسة بحق الجباية الذاتية، أن أصبحت سلطة الباجرك فى جمع الضرائب قاصرة على صغار الملاك أو من المستأجرين من الفلاحين الأحرار وعلى الأراضى التى تخص الدولة .

ومع أن سلطة الباجرك كانت غير واضحة فى داخل المدينة، إلا أن المدينة وكل ما يحيط بها من أراضى كانت تعتبر وحدة مالية بالفعل، وتخضع للإشراف العام من قبل الباجرك .

#### رابعاً : إدارة المدن أو البلديات (حامى المدينة) :

تعرضت إدارة المدن ( البلديات ) منذ القرن الثالث الميلادى للإنهيار إذ أن نواب المدينة ( البلدية ) بعد أن تجردوا من سلطاتهم، تخلوا عن واجباتهم لممثلة الحكومة، ونتيجة لذلك أخذوا يخضعون بالتدرج لنوع من الوصاية . ودفع ذلك الإمبراطور جستينيان إلى الاهتمام بإعادة تنظيم إدارة المدن .

وكان لمدينة الإسكندرية مكانة خاصة فى إصلاحات جستينيان، فأبقى فى داخلها على الموظف المعروف باسم Vindex أى النائب الذى عينه الإمبراطور انستاسيوس لإدارة الشؤون المالية، والذى يخضع لسلطانه نواب بلدية الإسكندرية، ويعتبر ممثلاً للسلطة المركزية . ويخضع لسلطة الدوق الأوجستال فيما يتعلق بالشؤون المالية . أما خارج الإسكندرية فقد اهتم جستينيان باتخاذ الإجراءات اللازمة من أجل جعل أعضاء البلديات عمالاً مخلصين للحكومة المركزية فى جباية الضرائب وحفظ الأمن العام .

وعلى هذا فقد تولى الإشراف على المدن إلى جانب الباجرك نواب

البلدية، وكانت مهمتهم جباية الخراج . ويساعدهم ديوان البلدية أو مجلس البلدية، ويتألف من الكاتب وكاتب الحسابات، ومتولى الدعاوى أو الشكاوى والخازن الذى يعهد إليه بحفظ الضرائب بعد جبايتها . كذلك يرتبط بالمدينة ( البلدية ) موظفون يتولون الإشراف على الجسور وآخرون يشرفون على الحمامات بالمدينة، هذا فضلاً عن كبير الأطباء .

### وظيفة حامى المدينة

وسرعان من تضاءلت أعمال البلدية بسبب وجود وظيفة حامى المدينة. أنشأ هذه الوظيفة الإمبراطور فالنتينيان عام ٣٦٤م، لكى يحمى السكان من استبداد الموظفين وظلمهم، ومن واجباته أن يحمى دافعوا الضرائب مما يتعرضون له على يد جباة هذه الضرائب وتعسفهم، وكذلك حماية أرباب الشكاوى، والقضايا مما يتعرضون له من الأذى والاضطهاد فى المحاكم التى لجأوا إليها يلتمسون العدالة والإنصاف وأصبح بذلك حامى المدينة هو العلاج الوحيد لأحوال الإدارة المدنية البالغة السوء .

وتطور منصب حامى المدينة، فى سنة ٣٨٧م صدر قرار بتعديل وظيفة حامى المدينة بأن أصبح من حق المدن وأهلها، أن يختاروا حامى المدينة، لأنهم أقدر على اختيار من يمثلهم، وذلك بعد أن كان يقوم باختياره كونت الشرق أو والى الشرق . إلا أن حماة المدن لم يؤدوا واجبهم على نحو مرض، مما دفع الحكومة البيزنطية، إلى أن توجه نظرهم إلى مراعاة الأمانة فى تأدية واجباتهم. وإدراك الأباطرة فى عام ٤٠٩ أن الفقراء فى حاجة ماسة لمن يتولى حمايتهم، ولم يعد سكان المدينة هم الذين يختارون الحامى بل أصبح يختاره الأساقفة ورجال الدين، والأعيان، وملاك الأراضى ونواب البلديات . ولكن لم يؤد ذلك إلى نتائج مرضية نظراً لكثرة الأعباء التى القيت على عاتق حماة المدينة، مما جعلهم لا يقلون عن نواب البلدية رغبة فى التخلص من الالتزامات



المفروضة عليه . ويبدو أن وظيفة حامى المدينة اختفت قبل جستنيان مما جعله يعيدها مرة ثانية، وأصبح حامى المدينة فى عهده رئيساً لهيئة نواب البلدية، ويشارك فى الإدارة المدنية والإدارة القضائية إذ كانت له محكمة وينظر فى الدعاوى المالية . وبذلك انتهت وظيفته التقليدية التى تتمثل فى كونه وسيلة لجأت إليها السلطة المركزية لحماية دافعو الضرائب من ظلم الجباة.

وكان لكل قرية مجلس محلى، يتألف أعضائه من الجباة والكتاب وعمال البريد، وكان هذا المجلس يختلف باختلاف حال القرية، إذا كانت تتمتع بالجباية الذاتية أو لا تتمتع بها، فإذا كانت تتمتع بحق الجباية الذاتية، صار لأعضاء مجلس القرية علاقات دائمة مع دواوين رؤساء الأبروشيات فيما يتعلق بإدارة الشؤون المالية .

هذا وقد استمرت هذه النظم معمولاً بها فى مصر حتى نهاية العصر البيزنطى بها أى حتى دخول العرب مصر .

### النظام المالى فى مصر فى العصر البيزنطى :

كان الوضع الاقتصادى لمصر، وما تمتعت به من ثراء وموارد طبيعية على رأسها القمح والنقود، من الأمور التى جعلت الحكومة الرومانية تضع سياسة، تستهدف بها استغلال مصر إلى أقصى درجة ممكنة . ولذلك فقد خضعت الأراضى لنظام معين فى ملكيتها، ووضع الرومان سياسة محكمة لجمع الضرائب .

### أولاً : نظام ملكية الأرض :

سار الرومان على سياسة البطالمة فى توزيع ملكية الأرض بمصر، حيث

اعتبرت الأراضي ملكاً للملوك أو الحكام وكذلك للمعابد . وكانت هناك إقطاعات أخرى، اختص بها الجند المسرحون ( الذين انهوا الخدمة العسكرية ) ووزعت عليهم، وأراض منحت للجند المرتزقة لربطهم بالأرض وبمصالح الإمبراطور، وكذلك وزعت أراضي أخرى على بعض اليونانيين المقيمين في مصر، وعلى بعض أعضاء البلاط ورجال القصر، تمنح لهم مدة خدمتهم . غير أن هذه الأراضي لم تلبث أن اندمجت في الضياع الإمبراطورية قبل نهاية القرن الأول، وذلك بعد مصادرات نيرون وفسبسيان وتيتوس ولم يبق منها إلا ما جرى منحه للجند المسرحيين .

وعلى هذا النحو وجدت ثلاثة أنواع لملكية الأرض هي أرض التاج، وأرض الكنائس، والأملاك الخاصة، وتعتبر جميعها من الضياع الإمبراطورية فكانت أكثر الأراضي ملكاً للدولة ممثلة في شخص الإمبراطور . ومن أملاك الإمبراطور بمصر محاجر الجرانيت والمرمر والشب، كما كان الملح احتكاراً إمبراطورياً في سائر أنحاء الإمبراطورية.

## ١ - أرض التاج

غير أن الإمبراطور لم يحتفظ لنفسه بالأرض التابعة للإمبراطورية بل أقطعها في شكل هبات للموظفين والجنود بشتى درجاتهم ورتبهم، ولم تكن هذه الهبات ملكاً لأصحابها، بل كان لهم حق استغلالها بدلاً من رواتبهم مدى الحياة، ولم تلبث أرض التاج أن انتقلت إلى الأفراد، فأصبحت ملكاً خاصاً لهم. كما أن جانب من هذه الأراضي جرى التصرف فيه بالبيع للأفراد، مثل بيع الأراضي البور والمهملة، أو التي تقع على الأطراف . ولهذا أخذت أملاك الإمبراطور وأراضيه في التناقص، ولم يعد الإمبراطور في العهد البيزنطى هو المالك الوحيد للأرض كما كان في عهدى البطالمة والرومان .

وكان تحول أرض التاج إلى ملكية خاصة ينطوى على الخطر، لأن ما



شهدته الإمبراطورية الرومانية في الغرب من الضياع الكبيرة، أصبح له مثيل في مصر، هذا وقد بذل بعض الأباطرة وعلى رأسهم ثيودوسيوس جهودًا كبيرة لوقف نمو الضياع الكبيرة في مصر، عن طريق سن القوانين وحماية الموظفين الأقوياء والملوك الأغنياء وأرباب الأملاك على نحو ما سنرى.

## ٢- أرض الكنائس والأديرة

أما أراضي الكنائس والأديرة وأملأها، فقد تكونت أساسًا من الهبات الخيرية، التي كانت تقدم لها سواء من الحكام أو الأفراد الأتقياء، فقد اشتهر الأباطرة في كثير من الأحيان بالكرم والجود كما أن المصريين جعلوا في وصاياهم نصيبًا للكنيسة، فقد منح كبير الأطباء فلافيوس فيمونيون أراضي مزروعة بالكرم لدير القديس جريما، ووهب أحد ولاة اركاديا في القرن السادس أرضًا للكنيسة، كذلك احتوت سجلات ابينون الكبير على هبات كثيرة للكنيسة وكذلك للأديرة الواقعة في نطاق اكسيرنخوس (البهنسا).

وتجدر الإشارة إلى أن الأراضي التي حصلت عليها الكنيسة كهبات من الأباطرة كانت تتمتع بالأعفاء التام من الضرائب. أما أراضي الحيازة (والتي للكنيسة حق استغلالها فقط) وكذلك أراضي الهبات من الأفراد أو حصلت عليها الكنيسة عن طريق الشراء فكانت تدفع عنها ضرائب.

كذلك مصادرات قسطنطين لصالح كنيسة القسطنطينية والإسكندرية في القرن الرابع الميلادي، إلى جانب أن نظام الرهبانية أدى إلى زيادة أملاك الكنيسة عن طريق هبات الأفراد أملاكهم لها قبل انخراطهم في سلك الرهبانية، فالقديس أنطونيوس ترك مزرعة مساحتها ٣٠٠ فدان للكنيسة، بعد أن احتجز منها نصيب أخته، كذلك بعض الأراضي التي عجز ملاكها عن مقاومة استبدال موظفي المالية أو أصحاب السلطة وطغيانهم، فهجروها وحازتها الكنيسة، علاوة

عن دخول بعض الأراضى المهملة أو القابلة للاستصلاح فى حوزتها.

وليس أدل على ضخامة ممتلكات الكنيسة ونموها نموًا مضطربًا فى العصر البيزنطى، مما تزويده المصادر عن ثروة كثير من الكنائس وخاصة كنيسة الإسكندرية . فيشير قانون ثيودوسيوس الصادر فى ٤١٥م إلى أنه كان لكنيسته القسطنطينية والإسكندرية أملاكاً بمصر، هذا وكثرت أملاك الكنائس فى مصر فى القرن السادس، وأصبح للكنائس صفة قانونية فى امتلاك الأراضى، وليس أدل على ذلك مما كان يرد إلى الكنائس والأديرة من محاصيل بكميات كبيرة خاصة الشعير، مما يدل على اتساع أملاكها.

أما عن أراضى الأديرة فقد اتسعت فى القرن الرابع بصفة خاصة، بعد أن حث الرهبان على العمل فى الحقول والبساتين، واستصلاح الأراضى وزراعتها، فتزايدت الأراضى التابعة للأديرة واتسعت لتضاف إلى أراضى الكنيسة.

### ٣- الأملاك الخاصة ونظام الحماية

ولم يقتصر بيع الأراضى على أرض التاج فحسب، وإنما امتد إلى أرض الكنائس والمعابد أيضاً، وحدث هذا التحول عام ٣٤٠ أو ٣٥٠ م . وترتب على ظاهرة بيع أراضى التاج، أن بدأت تظهر الملكية الخاصة أو الأملاك الخاصة *Res Privata*. وقد نشأت هذه الظاهرة فى مصر فى عهد دقلديانوس، ثم تطورت زمن قسطنطين، وتزايدت فى القرن الرابع الميلادى نتيجة الهبة والميراث والزواج والشراء والغرامات والمصادرات. ونمت الأملاك الخاصة واتسعت نتيجة لقوة الحماية التى فرضها الشخص الغنى القوى.

أما عن ظهور نظام الحماية فإن صغار الملاك أصبحوا لا يجنون ثمرة أملاكهم نظراً لسوء الأحوال الاقتصادية من ناحية، وكثرة الضرائب المفروضة



عليهم من ناحية أخرى، فضلاً عن قسوة جامعو الضرائب واستبدادهم، لذلك لجأ صغار الملاك إلى الحيلة، فطلبوا حماية أحد كبار الملاك من أصحاب النفوذ في المنطقة، على أساس أن يتنازلوا له عن أملاكهم وأراضهم، في مقابل أن يتولى السيد الكبير، أمر دفع الضرائب للدولة، وبذلك تحول الفلاح الحر إلى قن وتابع وعيد للأرض ولكن ليس بالمعنى المعروف للكلمة، على نحو ما سيتضح فيما يلي.

وتزايد نفوذ كبار الملاك نتيجة لذلك إذ كانوا قد تمتعوا بحق الجباية الذاتية، مما ترتب عليه اضعاف سلطة الباجرك المالية من ناحية ونقص الضرائب من جهة أخرى، مما دفع الدولة إلى أن تنظر بعين القلق لانتشار نظام الحماية، وذلك ليس خوفاً على المالك الصغير أو جريته ولكن خوفاً من نقص الضريبة، وحتى لا تتحول الأرض أو تنتقل لأصحاب النفوذ وكبار الملاك خاصة وأن صغار الملاك وجدوا فيه الملاذ للخلاص مما يعانونه.

تدخلت الحكومة لضبط نظام الحماية، مستخدمة عدة وسائل من بينها:-  
التدخل في حق الارث او مصادرة بعض كبار الملاك أو فرض وقف املاك بعض الملاك على الامبراطور او مصادرة املاك بعض الاديرة وغير ذلك من الوسائل، كذلك وأصدر بعض الأباطرة سلسلة من القرارات والمراسيم الرادعة، للحد من نفوذ السادة الإقطاعيين وكبار الملاك، ومن أهمها قانون ثيودوسيوس الصادر عام ٤١٥م، والذي ينص على الاعتراف بأعمال الحماية التي تمت قبل عام ٣٩٧م، وإلغاء جميع محاولات الحماية بعد هذا التاريخ، باستثناء الكنيسة؛ فقد كان يسمح للأفراد بالدخول في حماية الكنيسة، فكانوا يهبون أراضيهم لها ثم يعودون لاستردادها ثانية بالإيجار. وألغى قانون ثيودوسيوس استخدام لقب "السيد" فعندما كان المستأجرون يخاطبون أسيادهم، استخدموا كلمات وألقاب أخرى منها الديسبوت Despotes أو Korios كما حرم هذا القانون على الأجانب والغرباء

امتلاك أراضى فى القرى، ومن ثم أصبحت كل قرية تمثل وحدة تعاونية مغلقة محرم على الغرباء دخولها.

ثانياً : نظام الضرائب :

(١) أنواع الضرائب :

تقررت عدة ضرائب على أنواع الأرض المختلفة، فالأراضى المؤجرة يسدد عنها المستأجر ضرائب تعرف باسم " الخراج " كذلك كان ملاك الأراضى يدفعون ضرائب عن أراضيهـم، ويمكن تقسيم الضرائب التى كان يدفعها المصريون فى ظل الحكم البيزنطى إلى نوعين ... ضرائب عينية وضرائب نقدية.

(أ) الضرائب العينية :

تقرر هذا النوع من الضرائب على الأراضى الصالحة للزراعة، ولذا فقد توقف مقدار هذه الضرائب المقررة سنوياً على فيضان النيل . وشملت الضرائب العينية كافة المحاصيل الزراعية من قمح وشعير وفول وكتان وزيتون وغيرها .

أما عن مقدار هذه الضريبة، فقد تراوح بالنسبة للأراضى التابعة للدولة والتى هى ملك لها بين أردب وسبعة أردب عن كل أرورا ( فدان ) ارورا كلمة يونانية تعنى "ارض زراعية"، وكانت تشير فى مصر فى العصر الرومانى الى وحدة قياس الارض، تساوى حوالى سبعة اعشار الفدان أو تساوى ٢٧٥٦مترًا مربعًا . وتتراوح بالنسبة للأراضى الخاضعة للدولة والتى تقوم بالإشراف عليها واستغلالها بين ثلاث اربع إلى أردبين عن كل ارورا (فدان). وكان هناك موظف مسئول عن جمع هذه الضرائب، وكان هذا الموظف يقوم بإعطاء الفلاح إيصال بأنه سدد ما عليه من ضرائب، حتى لا تطلب منه ثانية . وبعد أن يتم



جمع هذه الضرائب من سائر أنحاء مصر، ترسل بدورها إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية .

وفرضت ضرائب عينية أخرى، من أجل الميرة الحربية والتموين العسكري، ذلك لسد نفقات تحركات الجيش، وتموين القوات العسكرية المقيمة في مصر أو في المناطق المجاورة، غير أن هذه الضرائب لم تكن فيما يبدو منتظمة . ولم تلبث هذه الضريبة أن صارت ضريبة دائمة زمن دقلديانوس، فقد تقرررت على إثر ازدياد نفقات الدولة واندلاع الحروب واستمرارها، وزيادة أعداد الجند في الجيش وكثرة الموظفين وكثرة نفقات البلاط وتكاليف المنشآت المعمارية، التي أضافت إلى الأعباء المالية على الدولة. وما يتحصل منها صار يعتبر أساس اقتصاد الدولة، إذ تقرررت على كل أقاليم الإمبراطورية بما فيها مصر، وارتببت بما ينتج من المحاصيل، ومن ثم أعفى منها سكان المدن . وفي مصر جرى تحصيلها قمحا لينفق منها على الجيش .

ومن الضرائب العينية كذلك مقدار من القمح عن كل فرد يريد أن يمسح أراضيه ويقسيها، وحزمة من البرسيم الجاف عن كل (أورا) ثم ما لبث أن تحولت إلى ضريبة نقدية .

### (ب) الضرائب النقدية :

من بين الضرائب النقدية ما فرض على الأراضى، التي تزرع محاصيل غير الحبوب، مثل الكروم والزيتون والنخيل وأشجار الفاكهة، وما ينتج من الحدائق . وكانت ضريبة الكروم، أهم هذه الضرائب النقدية، وسبب ذلك أن مزارع الكروم كانت هي الشيء الوحيد الثابت لملاك الأراضى الخاصة . هذا وقد اختلف مقدار ضريبة الكروم من إقليم لآخر تبعًا لجودة الأرض ونوعية المحصول .

من الضرائب النقدية الأخرى ضريبة صغيرة، خصصت لإصلاح الري ومشروعاته، من تقوية الجسور والقنوات وتطهير لها، وفرضت ضريبة كذلك نظير تحويل الأراضي الزراعية إلى أراضى بناء، ويضاف إلى ما سبق أنه فرضت ضريبة نقدية على مختلف أنواع الحيوانات، من إبل وحمير وخيول وأغنام وماعز وخنازير، بل وعلى الطيور كالحمام والدجاج. وجرى تقدير هذه الضريبة حسب العدد الذى يملكه الفرد، كما كلف كل فرد بكتابة تقرير يشمل أنواع الحيوانات والطيور وعددها، وأن يوضح فى التقرير ما فقد منها وما تكاثر خلال العام المنصرم.

أما عن ضريبة الرأس، وتعنى الكلمة فى المصطلح اليونانى (تسجيل الناس) فكانت تعتبر من أهم مصادر الدخل للحكومة البيزنطية، فرضت هذه الضريبة منذ أوائل العصر الرومانى على الذكور دون الإناث بداية من سن ١٤ - وهى السن التى يبلغ فيها الشباب تلك المرحلة من عمرهم وتمثل سن الرشد طبقاً للقانون البطلمى وتعتبر بداية لكسب الرزق - ٦٠ سنة وقيل ٦٣ أو ٦٥ سنة، واختلف مقدارها من إقليم لآخر، بل وداخل المنطقة الواحدة. وأعطى من هذه الضريبة الرومان، ومواطنو المدن اليونانية فى مصر (نقراطيس والإسكندرية وبطلميس)، وعدد من رجال الدين والعلماء والموظفين المدنيين مثل حاكم الإقليم وغيره، وعدد من الكهنة فى كل معبد وسلالة أرباب الاقطاعات فى (ارسينوى) الفيوم.

وحدث فى عام ٢١٢م أن أصدر الإمبراطور كراكالا Caracalla<sup>(٥)</sup> (٢١٢- ٢١٨م) - ابن سبتموس سفيروس - قراراً بمنح الجنسية أو حقوق المواطنة الرومانية لكافة سكان الإمبراطورية الرومانية، ويتمتع أصحاب هذا الحق

(٥) سُمى هذا الإمبراطور بكاركالا نسبة إلى الجلباب الطويل الغالى الذى كان يرتديه.



بالالتحاق بالجيش والترشيح للمناصب وحق الانتخاب بالإضافة إلى حق الزواج من نساء الرومان. فهل كان لهذا القرار تأثير فيما تقرر من الضرائب خاصة ضريبة الرأس، وهل تم إعفاء المصريين من هذه الضريبة لمنحهم حق المواطنة الرومانية هذا ؟

اختلف الباحثون حول هذا الموضوع، فمنهم من يرى أنه لم يترتب على هذا القرار إعفاء المصريين من ضريبة الرأس بل أنهم أصبحوا بمقتضى هذا القرار خاضعين لضريبة أخرى هي ضريبة الميراث ومقدارها ٥%، التي كانت تجبى على تركات الرومان جميعاً . واستند هؤلاء الباحثون على أن الإمبراطورية الرومانية لم تكن على استعداد، لأن تخسر خزائنها نتيجة إعفاء المواطنين من ضريبة الرأس، خاصة وأن كراكلا كان يهدف بقراره هذا تحقيق أغراض اقتصادية، على رأسها جمع أكبر قدر ممكن من الأموال، لسد عجز الخزانة الإمبراطورية، هذا في حين يرى فريق آخر من الباحثين، أن المصريين أعفوا من ضريبة الرأس بعد قرار كراكلا، ويستندون في ذلك إلى قلة عدد الوثائق التي عثر عليها في مصر عام ٢١٩م والتي تفيد استمرار أداء المصريين لهذه الضريبة .

وقد قام الإمبراطور قسطنطين بإلغاء ضريبة الرأس نهائياً، وهناك العديد من الأدلة على أن هذه الضريبة، لم تعد تفرض بعد عام ٣٢٥م، فقد ذكر قسطنطين في مرسوم أصدره عام ٣٢٤م، أن الضريبة التي على الفلاح سترفع عنه، وتوضع على ممتلكاته وأرضه لا على شخصه. وهكذا حل محل ضريبة الرأس ضريبة جديدة على الأرض وأخرى على القمح.

### ثانياً : تقدير الضرائب :

أما عن تقدير الضرائب، فكان يقوم به مندوبون، جرى تعيينهم لهذه





والحقيقة أن جستنيان لم يهتم بنمو نظام الحماية وتزايدده، وهذا يعنى أن قانون ثيودوسيوس ٤١٥م قد ظل سارى المفعول إذ أن نمو الإقطاعات وتزايدها عن طريق الحماية لم يكن ممكناً فى عهده إلا عن طريق عقود زائفة للبيع أو التأجير، ومن ثم فإن جستنيان لم يصدر أية قوانين خاصة بالحماية بل ظل يعمل بقانون ٤١٥م.

ثانياً : لم يفرض جستنيان ضرائب جديدة غير الضرائب المقررة ولكنه أدخل بعض الإصلاحات التى يكفل بها جباية الضرائب المقررة على النحو التالى :

أولاً : بالنسبة لأنواع الضرائب :

جعل جستنيان الضرائب على نوعين :

ضرائب مباشرة                      وأخرى غير مباشرة

وعلى رأس الضرائب المباشرة تأتى ( ضريبة الأرض ) وتحصل هذه الضريبة عينا أى من نفس المحصول أو نوعاً ( تقديراً ) وتقرررت ضريبة أخرى مباشرة وهى ( ضريبة الرأس ) وهى ضريبة شخصية، وتقرر تسجيل وإثبات دافعو هذه الضريبة حسب الشوارع والدروب التى يقيمون فيها، ويدفع هذه الضريبة أيضاً أرباب الحرف . ويلاحظ من خلال ذلك أن جستنيان أعاد هذه الضريبة بعد أن ألغاهها قسطنطين العظيم.

ومن الضرائب غير المباشرة ( المكوس الجمركية ) التى تفرض على البضائع والمتاجر، التى ترد إلى مصر أو تخرج منها وخاصة وأن حركة التجارة عبر مصر كانت بالغة النشاط، فمن الإسكندرية ومن الموانئ المصرية على بحر القلزم " البحر الأحمر "، خرج التجار للسعى وراء الحصول على ما

تحتاجه بيزنطة من آسيا من مواد الترف والزينة، فاحضروا المر والعمود من اليمن، والتوابل واللؤلؤ من الهند، والحريز من الصين لسد حاجة المصانع الإمبراطورية. وكانت تجارة الحريز قد تعرضت لبعض الاخطار نتيجة للصراع بين الفرس والروم، لذلك حاول جستينان البحث عن طريق جديد لتجارة الحريز بدلا من الطريق، الذي يمر بالاراضى الفارسية، لذلك عقد معاهدة صداقة مع الاحباش، الذين تولوا نقل الحريز عن طريق البحر القلزم "الاحمر"، وسرعان ما تبين للاعباش ان الفرس يسيطرون على أسواق التجارة فى الهند والصين، فأحجموا عن ذلك. ولكن ما لبثت العلاقات ان تحسنت بين الفرس والروم، وعقد الصلح بينهما فى عام ٥٣٢م وعادت بيزنطة تستورد الحريز عن طريق فارس.

كذلك نشطت حركة التجارة بين الموانئ المصرية وبين ميناء عدول (زيلع) الذى يعتبر من أهم موانئ أثيوبيا، فمن هذا الميناء صارت ترد المتاجر من داخل أفريقية كالزمرد والعاج والذهب وغيرها وصارت السفن المصرية تحمل مقابل هذه المتاجر إلى أهل البلاد اللحوم والملح والحديد والرقيق .

وقامت مصر كذلك بتصدير بعض منتجاتها ومنها القمح بعد أداء ما هو مقرر عليها من ضريبة القمح للقسطنطينية، والبردى والأواني الفخارية والمنسوجات الكتانية والصوفية وغيرها، وكانت تصدر من الإسكندرية إلى غرب بحر الروم " المتوسط" .

ويبدو أن الرسوم الجمركية التى فرضتها الحكومة المركزية على السلع والبضائع كانت باهظة، فجاء مرسوم ١٣ ليقدر تخفيض مقدار الضريبة المقررة على المتاجر المصدرة من الإسكندرية، وتحصيل رسوم على السلع التى تصدر من الموانئ المصرية الأخرى، ومنها القلزم ويوتاب ( تيران الحالية) بخليج العقبة، وكان يقيم بالقلزم موظف إمبراطورى، هو مراقب حسابات يقوم بجباية



الرسوم الجمركية من السفن العابرة، وعلى السلع التي ترد إليها . والدليل على أهمية الرسوم الجمركية أن جستنيان عهد بها إلى أحد الموظفين الكبار، وكان يدعو للاجتماع بالدوق الأوجستال ومتولى الخزانة العامة، ويطلب منه الاهتمام بما يدفعه الممولون من الضرائب .

ومن الضرائب غير المباشرة أيضاً ما تحمله دافعوا الضرائب من أعباء السخرة، إذ تحتم عليهم أن يقوموا بصيانة الجسور وحفر الترعر وتطهيرها، وزراعة الأراضي العامة، ومراقبة توزيع مياه الفيضان في النيل، وتعرف هذه الضريبة بضريبة الأيام الخمسة، وفي نهايتها يتسلم الفلاح إيصالاً بأنه أدى هذه الضريبة . ومن الضرائب الأخرى رسوم البلدية وتقررت على المدن والقرى لسد النفقات المحلية، إلى جانب الالتزام بتزويد الجيش بالمؤن (الميرة الحربية).

### ثانياً : بالنسبة لتقدير الضرائب :

حدد جستنيان في قانون ١٣ الوسائل التي يتم بمقتضاها تقدير الضرائب وهى : أن يبعث والى الشرق من قبله فى كل عام فى شهر يولييه وأكتوبر مندوبين مفوضين إلى حكام الأقاليم، ويوضح لهم ما ينبغى تحصيله من كل وحدة ضريبة من الخراج نوعاً أو عيناً، وما هو مقرر على كل وحدة من الوحدات من الضريبة كان يجرى وفقاً للعرف والعادة . ويقوم هؤلاء المندوبون بشرح الطريقة التى تتبع فى تحصيل الضريبة من سائر الإقليم وكان على حاكم الإقليم ان يحسن استقبالهم ويقدم لهم كافة التسهيلات، ويرسل معهم فرق من الجند لمساعدتهم، ويتصل هؤلاء المندوبون برؤساء الأبروشيات، الذين يتولون توزيع مقادير الضرائب للباجركات والمدن والقرى باعتبارهم الحكام المدنيين للإقليم. وعلى رئيس الابروشية أن يعلن بوصول المندوبين والا دفع غرامة قدرها عشرة دنانير، وعزله من منصبه وإذا تعرض المندوبين للمقاومة من جانب دافعى الضرائب يدفع ديوانه خمسة دنانير .

جرى تقدير الضرائب بحسب طبيعة الأرض ومساحتها، ودرجة خصوبتها وقوتها الإنتاجية، أو بحسب حالة الإقليم وقدرته الإنتاجية . كذلك جرى التفرقة عند تقدير الضرائب بين الأرض المهملة ( البور ) وبين الأراضي التي لا تصلها مياه الفيضان، غير أنه يصح أن تصل إليها المياه بالأدوات الرافعة .

### ثالثاً : جباية الضرائب :

اهتم جستينان بما ينبغي أن تسير عليه جباية الضرائب من حيث تقدير المبالغ المطلوبة من دافعي الضرائب، والوقت المناسب لتأدية هذه الضرائب والإيصالات التي يحصلون عليها، وذلك لحرصه على المحافظة على مصالح الخزانة من جهة، ولحماية سكان الإقليم من جهة أخرى، ولتجنب الأزمة المالية التي تهدد الدولة البيزنطية من جهة ثالثة، ولذلك وضع قانون رقم ( ١٣ ) بعض القواعد التي تتبع في جباية الضرائب ومن بينها :

١ - تجرى جباية الضريبة العقارية النوعية تحت الإشراف المباشر لوالى الشرق، أو يعهد بجبايتها إلى الدوقات حسب ما تقتضيه الأحوال .

٢ - تقسم الضرائب الثابتة إلى قسمين، يرسل القسم الأول منها إلى الخزانة العامة بالعاصمة القسطنطينية، أما القسم الثانى فيرسل إلى خزانة الوالى الكبير "الوالى الكبير" .

٣ - قرر قانون ١٣ ألا يتدخل الدوق الاوجستال وإدارته في جباية الضريبة التي ترسل إلى خزانة الوالى الكبير، وأن يعهد الوالى بجباية هذه الضريبة إلى عدد من الموظفين يعينهم بمعرفته .

٤ - أما بالنسبة للضرائب النوعية، التي ترسل إلى الخزانة العامة فيعهد



بجبايتها إلى الدوق وإدارته والجند .

٥ - يتولى رئيس الأبروشية الإشراف على جباية الضرائب المقررة على أبروشية وكذلك يتولى الباجرك الإشراف على جباية الضرائب المقررة على باجركيته، فهو الذى يعطى الإيصالات لدافعى الضرائب، وهو المسئول عن جباية الضرائب فى باجركيته . وكان فى كل باجركية موظفان أحدهما يختص بالضرائب العينية والآخر بالضرائب النقدية .

٦ - يتولى جمع الضرائب فى المدن المصرية ما عدا الإسكندرية نواب البلدية أو حماة المدن الذين يخضعون مباشرة لسلطة الدوق . أما الإسكندرية فكان الفندقس يتولى القيام بهذه المهمة .

### رابعاً : إيداع الضرائب والنفقات العامة :

لم تكن الضرائب المحصلة من الأقاليم المصرية ترسل كلها إلى القسطنطينية، لتودع فى خزائنها المختلفة، فالمندوبون الذين يرسلهم والى الشرق كل عام إلى ولاة الأقاليم المصرية، ينبغ عليهم أن يبينوا ما يجب إرساله من الضرائب إلى الخزانة العامة، وما يرسل منها إلى خزانة والى الشرق وما ينفق منها بمصر ذاتها، وما هى المبالغ المقررة على كل أبروشية .

أنشأ جستنيان إدارات للحسابات بالأقاليم المختلفة بمصر، وكان يهدف من راء ذلك إلى ضبط الموظفين الذين يميلون إلى القيام بأعمال غير سليمة . كما أصر جستنيان فى قانون ١٣ على ضرورة عمل موازنة دقيقة للإيرادات والمصروفات حتى يتجنب الوسائل التى حاول بها بعض الموظفين زيادة النفقات على الإيرادات، وراعى جستنيان فى ذلك ما كان مألوفاً فى مصر من النفقات، وقرر انشاء إدارة لمراجعة ما يتحصل من الإقليم من الضرائب - فى كل وحدة إدارية تودع الضرائب - وما جرى انفاقه منها .

وكان في كل مدينة من مدن مصر خزانه، يودع بها ما يتحصل من الضرائب، ويتولى إدارة الحسابات بها موظف، وتولى أمر الجباية في كل أبروشية موظفان أحدهما متولى الخزانه والثاني يتكفل باستلام ما يتحصل من الضرائب .

وكان للدوق إدارة خاصة في ديوانه تودع بها الضرائب المحصلة، وكان عليه أن يؤدي ما يتحصل من الضرائب في دوقيته إلى الموظف الذي يرسله متول الخزانه العامة بالقسطنطينية إلى مصر . والراجح أن الخزانه العامة بالعاصمة القسطنطينية لم ترسل إلا مندوبًا واحدًا لكل القطر المصري، وذلك لأن الضرائب التي تحصل من سائر الدوقيات لا بد من إرسالها أول الأمر إلى الإسكندرية، ومنها إلى القسطنطينية، وكان الدوق هو المسئول عن التصرف في النفقات والمصروفات في دوقيته، فيتحمل هو وديوانه المسئولية في تنظيم صرف الأموال في النواحي المقررة .

### النفقات

وكانت نفقات الدوقية على ثلاث أنواع : نفقات حربية وتشمل رواتب الجند، شراء اسلحة ومعدات ومؤن للجيش، وبناء الحصون والاستحكامات . ونفقات مدنية ثم النفقات العامة، وتشمل المدنية مرتبات موظفي البلدية، والانفاق على الخدمات العامة كالبريد والمدارس والحمامات وألعاب السيرك . وينظم النفقات المدنية مندوبو جباية الضرائب الذين يتولون في الوقت نفسه التصرف في هذه النفقات، فيتسلم الموظفون رواتبهم من الجباة . وفي القرية كان جانب من الضرائب ينفق لسد الحاجات المحلية للقرية، وما يتبقى يرسل إلى خزانه الباجرك أو رئيس الأبروشية في حالة التمتع بحق الجباية الذاتية .



## العقوبات المتعلقة بالإدارة المالية :

أصبح الموظفون في الدولة - بفضل اصلاحات جستينان واستتباب الأمن - يعملون لصالحها في أمانة كبيرة، وأصبح الإمبراطور يثق في موظفيه بدرجة كبيرة، ولكن جستينان وضع في اعتباره من ناحية أخرى أن هؤلاء الموظفين سوف لا يغفلون مصالحتهم الخاصة، ولذلك فرض جستينان غرامات مالية وعقوبات على المخالفين من بينها الطرد من وظائفهم فضلاً عن مصادرة أملاكهم . ومن أمثلة ذلك ما يلي :

إذا لم يتم إرسال مندوبي والى الشرق في الميعاد المحدد من كل عام، يلتزم مستخدمو خزانة الوالى بدفع غرامة قدرها ثلاثون ديناراً ذهبياً، وإذا لم يعلن رئيس الأبروشية خبر قدوم المندوبين تحتم عليه أن يدفع عشرة دنانير ذهبية، وتقرر عزله، وأن يدفع ديوانه خمسة دنانير ذهبية وإذا تعرض مندوبو والى الشرق للمقاومة من قبل دافعي الضرائب، تحتم على الدوق الأوجستال وموظفى ديوانه من عسكريين ومدنيين، أن يبادروا باستخدام الشدة ضد المعارضين، حتى لا يتعرضوا للعزل ودفع الغرامات، وقد يصل العقاب إلى حد المصادرة وقد يصل إلى التعذيب حتى الموت .

والزم جستينان الموظفين الكنسيين والمدنيين بعدم منح دافعي الضرائب خطابات بالإعفاء إلا في الحالات التى تقرها القوانين الإمبراطورية، فإذا اتهم بطريك الإسكندرية بأنه أظهر الضعف حيال المدنيين لبيت المال، تحتم على موظفى الكنيسة أن يدفعوا تعويضاً لما أصاب الحكومة من الضرر، فإذا لم يتوفر لديهم المال اللازم، تقرر الحصول على التعويض اللازم من خزانة الكنيسة .

وتعرض الدوق الأوجستال والقادة العسكريين في حالة الأهمال للعزل

والغرامة، ويظلوا مدينين للحكومة حتى بعد وفاتهم، فيتعهد ورثتهم بسدادها بضمان أملاكهم .

ولم يسلم دافعوا الضرائب من العقوبات، إذا امتنعوا عن تأدية المقرر عليهم من الضرائب، فإذا قاوموا مندوبى والى الشرق تقرر مصادرتهم ونفيهم من مصر، فإذا تمادوا فى إثارة الفتن والقتل تقرر مصادرة أملاكهم ونفيهم إلى شواطئ البحر الأسود .

ولم يتردد كثير من دافعى الضرائب فى هجر أراضيهم تهرباً من تأدية الضرائب والتكاليف المطلوبة منهم، ولمنعهم من ذلك أجاز جستينان للدوق الأوجستال أن يتتبعهم ويبحث عنهم حتى فى الأقاليم التى لا تدخل فى نطاق ولايته، وهكذا حرص جستينان على أن يستخلص الضرائب كاملة .

### ضريبة القمح :

من الأعباء التى كانت مفروضة على مصر ما يعرف باسم الميرة المدنية أو الشحنة السعيدة، وهى عبارة عن القمح الذى يرسل من مصر إلى القسطنطينية لإطعام أهلها وكان جزء من هذا القمح يرسل إلى الإسكندرية لإطعام شعبها أيضاً. فقد كان لمدينة الاسكندرية ضريبة قمح خاصة بها توزع على أهلها، منذ عهد دقلديانوس وذلك تمييزاً لها، وكانت هذه الضريبة تزداد دائماً فى عهد من تبعه من أباطرة، حتى وصلت فى عهد جستينان إلى ما يعادل ٨٠٠٠ رغيف، ولم تتوقف هذه الضريبة إلا أثناء الاضطرابات التى أثارها أهالى المدينة عام ٥٤٠م لطرد أحد الأساقفة.

اهتم جستينان اهتماماً خاصاً بإدارة الميرة لأنه من المعروف أن أى تأخير فى تسليم القمح، وأى نقص فى الكمية المطلوبة إنما يؤدى إلى إثارة حوادث الشغب والاضطراب فى كل من القسطنطينية والإسكندرية . فقد كان



يوزع فى القسطنطينية يومياً ٨٠ ألف رغيف، وهى تحتاج إلى ألفين أردب قمح يومياً، لذلك كان أى تأخير فى وصول تلك الشحنة إلى القسطنطينية يؤدى إلى أحداث ثورة فى المدينة، مثلما حدث فى عام ٤٠٨م حين عجز والى مصر عن إيجاد السفن اللازمة لشحن القمح، فحدثت مجاعة فى القسطنطينية، وقام العامة فى المدينة بإحراق منزل والى القسطنطينية . أما بالنسبة للاسكندرية فيذكر المؤرخ يوحنا النقيوسى أن ثلاثة أخوة قاموا بثورة قرب الاسكندرية، وهاجموا مدينة بوصير، وأحرقوا السفن التى تحمل القمح إلى مدينة الاسكندرية، وحدثت مجاعة، وثأر أهل الاسكندرية على والى المدينة يوحنا، وأرادوا قتله، وتدخل الإمبراطور ، وعين والياً آخر وهو بولس، وعاد يوحنا إلى الإمبراطور ثانية الذى ما لبث أن أعاده إلى الإسكندرية مرة أخرى، وتم إخماد الثورة. لذلك لجأ جستيان إلى إعادة تنظيم إدارة الميرة (القمح) واهتم بجباية القمح ونقله من أنحاء مصر، ثم حمّله عن طريق النيل إلى الإسكندرية، وشحنه منها إلى القسطنطينية، وليس أدل على أهمية ضريبة القمح عند جستيان مما تضمنه قانون ١٣ من تفاصيل عن النظم المتعلقة بالقمح، وما اشتمل عليه هذا القانون من عقوبات، ينزلها الإمبراطور بكل من يتسبب فى الإهمال .

ويشترك فى توريد القمح كل من مصر الأولى ومصر الثانية وطيبة وإركاديا و اوجستامنيكا ما عدا ليبيا، لأنها لم تنتج القمح بوفرة مثلما تجود به مصر . وتوزع ضريبة القمح على أساس مساحة الأرض ودرجة خصوبتها . وفى السنوات التى يخيب فيها محصول القمح فى مصر، وضع الإمبراطور نظام خاصاً، يحصل بمقتضاه على ما تحتاجه البلاد من قمح تراقيا وبيثينيا وفريجيا . أما إذا زاد ما يرد من قمح مصر عن حاجة السكان، لجأ والى الشرق إلى أن يخزن فى الشئون الإمبراطورية الكميات الزائدة من القمح، ثم يلزم أهل الإقليم بشراء هذه الزيادة بأثمان مرتفعة. ومر نقل القمح الى القسطنطينية بثلاث مراحل هى: الأولى : نقل القمح من الحقول إلى الأجران



العامّة (الشون) ليتمّ درسه وذرّه وغربلته وتعبئته في أحواله، ثم ينقل من الشون المحليّة إلى سفن الشحن الرأسيّة على أقرب ميناء لها على النيل باستخدام الدواب، فقد كان يحدّد لكل أقلّيم ميناء معين. المرحلة الثانية : ويتمّ فيها نقل القمح عبر النهر من الأهراء الخاصّة بالأقليم إلى الأهراء الخاصّة بالإسكندرية تمهيداً لشحنه إلى القسطنطينيّة . المرحلة الثالثة : ويتمّ فيها نقل القمح بعد ذلك بواسطة الأسطول البحريّ إلى العاصمة البيزنطيّة عبر بحر الروم (البحر المتوسط).

ويراعى عند تحميل القمح على ظهر المراكب النيلية أن يقوم ربان كل مركب أو سفينة بتسلم الكميّة المنوط بنقلها من جباة الضرائب مقابل إيصال يفيد تسلّمه الكميّة المذكورة بعد قيامه بتكبيرها بالمكيال الحكومي، والتأكد من سلامتها وخلوها من الغشوش، ويتعهد بنقلها وتسليمها كاملة غير منقوصة إلى إدارة الشون المركزيّة سواء في الإسكندرية أو في القسطنطينيّة. وكان يراعى أيضاً لضمان وصول السفن سليمة وعدم تعرضها لقطاع الطرق، أن يصاحبها طاقم حراسة، وأحد مشرفي النقل منعاً لتسرب القمح سراً أثناء النقل، والتأكد من سلامة الكميّة من الغش عند تسليمها.

وكانت جباية القمح تجري وفقاً لشروط من بينها، التأكيد من جودة صنف القمح، وخلوه عند استلامه من الفلاحين من الغشوش، وأن يكون مغربلاً خالصاً من الفصالة وحصى الأرض، وغير مخلوط بحبوب أخرى رخيصة كالشعير وخلافه. وينبغي أن تتمّ جباية القمح في سرعة بالغة في سائر أنحاء مصر، حتى يتيسر على قوافل السفن أن تنقلها إلى الإسكندرية . على أن ما يتمّ جمعه من القمح من القرى والمدن بمصر لا يشحن كله إلى الإسكندرية، بل أن شطراً من هذا القمح يبقى بالإقليم، أما لدفع المرتبات العينية للموظفين المحليين، وأما للوفاء بما يمنحه الإمبراطور من الإعانات سنوياً للأديرة والكنائس،



وكانت كنيسة الإسكندرية من الكنائس التي أفادت من الميرة المدنية.

تحمل الدوق الأوجستال لمصر مسؤولية ثقيلة، إذ كان عليه أن يبادر إلى إعداد الأسطول اللازم لنقل ( الشحنة السعيدة ) إلى القسطنطينية بعد أن تتجمع في الإسكندرية حوالى منتصف سبتمبر، وذلك حتى لا تتعرض لأى تأخير بسبب خطأ ينسب إليه أو إلى إدارته . ونظراً لأن دوق مصر كان المسئول الأول عن انتظام وصول شحن القمح إلى القسطنطينية فقد صار له ولإدارته مكانة تعلق مكانه سائر الدوقات . ويوضح قانون ( ١٣ ) أن دوق مصر كان يهتم اهتماماً كبيراً بأن يرى خيرات مصر تتجمع وترسل فى شكل ضريبة القمح إلى القسطنطينية لإطعام أهلها .

وتحمل مسؤولية نقل القمح إلى القسطنطينية إلى جانب الدوق الأوجستال بحارة الإسكندرية، فقد ظل هؤلاء يتعهدون إعداد أسطول الميرة وتسييره مقابل امتيازات خاصة، ولم يشر قانون ١٣ إلى الأساطيل العامة، فلم تكن هيئة البحارة فيما يبدو سوى طائفة صغيرة من أرباب السفن، دفعت لهم الحكومة أجراً معتدلاً، وخضعت سفنهم باستمرار لأوامر الحكومة، إذ تحتم عليهم أن يحملوا كل سنة قمح الميرة إلى العاصمة الإمبراطورية .

وهكذا تحمل مسؤولية شحن القمح إلى القسطنطينية عدد من الموظفين بداية من والى الإسكندرية وحكام الإقليم وانتهاء بمسئولى الإهراء ( أى المخازن ) والجباة والملاحظين ونقابات النقل المختلفة مثل نقابة أصحاب السفن والملاحين والبحارة، ورباطه أصحاب دواب الحمل أو النقل .

## التنظيمات الحربية

تألفت القوى العسكرية فى القرن الرابع من فئتين رئيسيتين هما :

الجيش النظامى .. وجيش الأطراف أو الحدود ...

ويعرف الجيش النظامى باسم Comitateneses ويصاحب الإمبراطور فى كل تحركاته ويتولى الإمبراطور قيادته فى جميع الحروب الهامة، ويتألف الجيش النظامى من الفرسان والمشاة معًا . وأضيفت إلى الجيش النظامى فى أواخر القرن الرابع قوتين أخريتين ثم أضيف إليه جماعات من المشاة عرفت باسم ( القوات المساعدة Auxilia ) وجند هؤلاء من غاله ومن الفرنجة وسائر البرابرة الجرمان . وكان الجيش النظامى هذا أعلى مكانة من جند الأطراف المرابطين على حدود الإمبراطورية .

أما جيش الأطراف أو الحدود Limitanei فكما هو وضح من اسمه يربط على أطراف الإمبراطورية وحدودها وفى وقت السلم يقوم جنود هذا الجيش بزراعة الأرض الواقعة على امتداد الأطراف الإمبراطورية، ويحصلون عليها كنوع من الإقطاع الحربى، ويتوارثها أبناؤهم عند دخولهم الخدمة الحربية .

وإلى جانب الجيش النظامى وجيش الأطراف، نشأت فئات جديدة تعرف باسم قوات الحرس الإمبراطورى، فمنذ عهود الإمبراطورية الأولى، ويحيط بالإمبراطور حرس من المقربين، وتكون هذا الحرس فى بادئ الأمر من البرابرة الجرمان، ثم اشتمل على الجرمان والرومان من مختلف الطبقات العليا والدنيا . ثم أضاف دقلديانوس إليها فئة جديدة تألف جزء منها من الفرسان والجزء الآخر من المشاة ( وهى القوة المختارة ) واستخدمت هذه الفئة الجديدة فى تدريب القادة، والتحق بها أبناء وأفراد من مختلف الطبقات من أبناء الأسرات الشريفة والموسرة، واتخذت اسم « خواص الإمبراطور » ويرابط



أفراد هذه الفئة بالقصر الإمبراطوري، عهد إليهم الإمبراطور إحياناً بأداء أعمال خارج العاصمة، وتمتع أفراد هذه الفئة بمكانة خاصة، وذلك بما صار لهم من امتيازات وأجور خاصة .

ظلت الفرق الرومانية حتى أوائل القرن الثالث الميلادي تتألف من المواطنين الرومان، حتى تقرر منح حق المواطنة لكل سكان الولايات الرومانية. ومنذ ذلك الحين لم تعد الفرق الرومانية من المشاة والفرسان لها مكانة ممتازة، بل آلت هذه المكانة إلى القوات المساعدة التي كانت تتألف من المتبريرين .

ففي القرن الرابع جرى التخلي عن المبدأ الذي يفرض الخدمة العسكرية على المواطنين الرومان، فلا يجوز إرغام أحد من الرعايا الرومان على الخدمة العسكرية، إلا في حالة واحدة وهي الدفاع عن مدينة عند تعرضها للخطر، وتقرر كذلك إلغاء المبدأ الذي يقضى باستبعاد الأجانب من الخدمة، هذا في حين ظل المبدأ الذي يقضى بالألا يدخل الجيش إلا الأحرار باقياً، وأن لم يتم تطبيقه .

ولم يأت القرن الخامس الميلادي إلا وأصبح المجندون ينتمون إلى أربع فئات هي :

١ - عدد كبير من المغامرين الرومان أو الأجانب، يتقدمون من تلقاء أنفسهم للقائد المكلف بتجنيد العساكر .

٢ - فئة من المجندين يجمعهم كبار الملاك من بين فلاحهم ويتقدمون بهم إلى قائد التجنيد، ويعتبر ذلك من الإلتزامات المقررة على الضياع في بعض الولايات .

٣ - أبناء الجنود المسرحين وأبناء الجنود الذين لا يزالون تحت السلاح، فقد تم

فرض التجنيد الإجبارى بالميراث أى أن ابن الجندى يجند .

٤ - المعاهدون أو المحالفون، وهم القبائل الجرمانية التى استقرت على أطراف الإمبراطورية الرومانية، وارتبطوا معها بمعاهدات تحالف معينة، إلزاموا بمقتضاها بأن يدافعوا عن أنفسهم وعن الإمبراطورية، ضد أى عدو خارجى، وذلك لقاء الحصول على حماية الإمبراطورية، والإعفاء من الأتاوة المقررة .

وفى القرن السادس برزت قوة أخرى من المحاربين لعبت دوراً هاماً، وعرفت باسم ( البقلار أى الاتباع ) وتعتبر هذه الفئة حرساً خاصاً بكبار القادة أو كبار المدنيين، وتوقف عدد الاتباع على ثروة السيد الذى يقوم بتأليف حرساً خاصاً له، واتخذ صغار القادة أيضاً حرساً مسلحين .

### جيش مصر :

أما بالنسبة لمصر، فنظراً لأهميتها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية من حيث كونها مستودعاً للغلال والأموال، ونزوع أهلها إلى مقاومة الإمبراطورية، واشتداد الحاجة إلى حفظ الأمن بها، فقد تطلب الأمر إقامة حامية عسكرية قوية بها، ولذلك وضع أغسطس فى مصر مالا يقل عن ثلاث فرق رومانية فضلاً عن القوات المساعدة المسلحة بها، ثم سحبت إحدى هذه الفرق فى عهد خليفته تيبيريوس، بعد أن ظهر أن الحاجة ليست ماسة إلى هذا الجيش الضخم، نظراً لسهولة الدفاع عن مصر .

ولم يختلف الجيش الإقليمى فى تكوينه عن الجيش الأساسى للإمبراطورية إذ كان يتكون كذلك من ثلاث فئات أساسية فضلاً عن الاتباع، هذه الفئات الثلاث هى ( الجيش النظامى ) يعتبر أفراد من خيرة الجند، ويجرى تجنيدهم عن طريق الإلزام أو التطوع أو بالوراثة. أما الفئة الثانية فهى المعروفة ( بجيش الأطراف ) أو حرس الحدود :



Limitanei يطلق عليهم اسم الليميتاني أى قوات الحدود، ويطلق عليهم أيضا اسم (المرابطون فى القلاع) إذ كانوا يرابطون على امتداد حدود مصر الشرقية والغربية والجنوبية فى قلاع متقاربة. وحصل هؤلاء على أرض الحدود مقابل الوفاء بالتزاماتهم العسكرية، وكانوا يحصلون على الأرض لذلك كانت الخدمة العسكرية هنا وراثية، إذ أن جند الأطراف كانوا يخدمون فى الجهات التى ينزلون بها، ويجرى تجنيدهم بانتظام. وكان كل مجند جديد يسجل اسمه فى سجل الوحدة، التى يعمل بها بناء على أمر الدوق، ويخصص جزء منهم فقط للقيام بالتدريبات العسكرية. أما الباقون فيعملون بالزراعة.

أما عن واجبات حرس الحدود فهى حماية الحدود، حراسة الطرق، مراقبة القبائل المتمردة، منع رعايا الامبراطور من الهرب إلى بلاد البربر إلا بعد الحصول على إذن الدوق.

وقد حرص جستينيان على توفير الأمن والسلام على حدوده مع ليبيا فأنشأ فرقة جديدة من الجند عرفت باسم (فرقة ليبيا الجستينانية) كما عمر الأسوار هناك، وشيد المدن والحصون. كذلك اهتم البيزنطيون بصيانة استحكامات جزيرة فيلة وقلعتها، التى كان يربط فيها حامية عسكرية من أجل حماية الحد الجنوبى لمصر من خطر النوبيين، هذا فضلاً عن اهتمام البيزنطيين بحماية حدود مصر الشرقية.

أما الفئة الثالثة من الجيش فهى ( المعاهدون والمخالفون Foedrati) فكان بمصر فئة من المعاهدين، وكان من العسير التعرف على الدور الذى قام به هؤلاء فى مصر. أما المخالفون (السماخوى) الذين يمثلون الشعوب أو الأقوام المجاورة للإمبراطورية، وتعهدوا بمقتضى المعاهدات أن يقدموا للدولة عدد معين من الجند للاشتراك

فى الحروب ويتولى قيادتهم جماعة منهم . وكان يمثل هؤلاء (النوباد) على الطرف الجنوبى لمصر، وظل الأباطرة البيزنطيون يدفعون لهم ما قرره دقلديانوس لهم من الإعانات حتى يخلدوا إلى الهدوء والسلام، وليدافعوا عن الحدود الجنوبية لإقليم طيبة ضد غيرهم من المتبربرين خاصة وأنهم كانوا شديدي المراس. ومن حلفاء الدولة البيزنطية فى غرب مصر، قبائل البدو المعروفة باسم (المازيك Maziques)، وقد أفادت الدولة كثيراً من مساعدتهم الحربية. وعلى الحدود الغربية لمصر مع ليبيا كانت هناك قبيلة (الماكاى) وارتبطت مع البيزنطيين باتفاق صلح منحهم بعض التسهيلات التجارية.

أما الاتباع أو البقلار (\*) فهم من الجند الأجورين ومن ثم فهم يتألفون من أجناس عدة، ويتكونون من فريقين فريق ينتمى إلى كبار موظفى الإمبراطورية كدوقات الأقاليم وقادة الجيش، وفريق آخر يتألف من جند خاص لبعض الأفراد، ولم يكن لهؤلاء صلة بالجيش إلا فى حالة أذ ما عرض سيد هؤلاء الأفراد خدماتهم على الدولة نظير أجر خاص، فيسهمون بذلك فى الدفاع عن الإمبراطورية .

ومن الجدير بالذكر أن الفئات السابقة التى يتكون منها الجيش الإقليمى كانت ممثلة فى الجيش البيزنطى المرابط بمصر إذ حرصت الحكومة المركزية بالقسطنطينية على أن يكون لها بالقطر المصرى جيش قوى التنظيم، هذا إلى جانب وجود جيش لبيزنطه فى مصر .... لحفظ الأمن بها والقضاء على اغارات المغرين عليها، وجباية الضرائب والقضاء على المنازعات والثورات التى نتجت عن الخلافات الدينية .

(\*)البقلار نوع من الخبز المجفف بالإضافة إلى لوازمهم الأخرى مع جزء من الغنيمة أيضاً ويحصلون على ذلك ممن يعملون لهم كحرس خاص سواء أن كانوا أشخاص عاديين أم قادة أم ضباط أم سادة.



وفى القرن السادس لم يختلف تكوين الجيش فى الولايات البيزنطية ومنها مصر عن الجيش الرئيسى للدولة من حيث الفئات الأربع التى سبق الحديث عنها، وظل هذا التنظيم معروفاً فى مصر زمن جستينيان، غير أن الجند أصبحوا من المصريين، بعد أن كانوا يتخذون من سكان الأقاليم الأخرى فكان كل مالك مكلفاً بتقديم عدد من الأفراد يتفق مع مساحة ما يملكه من الأراضى وحسب ثروته . ويتضح من ذلك أن معظم عسكر الجيش البيزنطى فى مصر فى عهد جستينيان كانوا من المصريين سواء فى الجيش النظامى أو جيش الأطراف والحدود . ويجند هؤلاء عن طريق التجنيد الإجبارى أو بالتطوع والإلتزام المفروض على أبناء المقاتلين أو الجند المسرحين، ولم يكن بالجيش البيزنطى بمصر من الجند المتبربرين إلا قلة نادرة، ولم يكن بمصر من الجند المرتزقة إلا بعض كتائب ألفها جستينيان من العناصر الأجنبية .

تراوح عدد الجيش البيزنطى فى مصر بين ٢٥ و ٣٠ ألف جندى، انتظموا فى وحدات، يتراوح عدد الوحدة منها بين ٣٠٠ - ٥٠٠ جندى، ويتولى قيادة كل وحدة قائد عرف باسم ( التربيون Tribun ) وتشمل الوحدة على جميع فئات الجيش من فرسان وخيالة ومشاة.

وكان الجندى البيزنطى يتقاضى نوعين من المرتبات، راتب نقدى وجراية ( مؤنه ) وتتولى الحكومة أمداده بالسلاح والكسوة، واشتملت الجراية على القمح والشعير والنبيد والزيت، وعلوفات الخيل والدواب واللحم والدجاج والسك المملح، والسروج والماشية والبغال والفحم النباتى فضلاً عن الأموال .

وقد استخدم المقاتل فى مصر نوعين من الأسلحة الأول أسلحة هجومية والثانى أسلحة دفاعية، ومن الأسلحة الهجومية الرمح ومنه الطويل والقصير، والسيف والفأس أو البلطة، كما يطلق عليه البعض، والدبوس وهو آلة من الحديد لها رأس حديدية مربعة أو مستديرة وتستخدم لكسر الدروع واختراق الخوذات



المعدنية التي يرتدها المقاتلون. هذا فضلاً عن الحنجر أو السكين ومنها ما هو صغير أو منحني أو مستقيم أو عريض أو مستطيل، كبير القبضة أو صغيرها. وكان القوس أيضاً من الأسلحة الهجومية الرئيسية في الجيش في العصر البيزنطي، وقد استخدمه الفرسان والمشاة معاً، وكان للقوس أدوات أخرى ليتمكن قضاء الغرض منه، ومنها السهام والكنانة (أى جعبة السهام).

أما عن الأسلحة الدفاعية فيأتي على رأسها القوس يستخدمه المقاتل ليقى نفسه من الضربات الموجهة إليه بالسهم أو الرماح أو السيوف. والتروس متنوعة منها البيضاوى والدائرى أو المستدير وغيرها. والدرع وهو فى الأصل ثوب ينسج من زرد الحديد ويلبس فى وقت الحرب، ومن أنواع الدروع الزردية، والمصفح والرقائقى (الصدرية) والأخير كان السائد. ويتألف من شرائح صغيرة مستطيلة الشكل بدرجة رئيسية، وقد ربطت معا فى صفوف عن طريق انفاذ الثقوب الجلدية خلال الثقوب التى بها، ثم تشد الصفوف بعضها إلى بعض إلى أعلى. وكانت هناك دروع أخرى لأجزاء معينة من جسم المقاتل منها حاميات السيقان، وحاميات السواعد، وحاميات العنق والوجه والقفازات وأخيراً الأُحنية وقامتها حديدية أيضاً. وكانت الخوذة من أهم آلات الدفاع المعدنية تلبس لوقاية الرأس، وتصنع من الحديد، وكان يعلوها عقدة معدنية صغيرة، ويقويها إطار من الحديد مع أربطة تدور حولها من الحافة إلى التاج.

على أن النظام الحربى فى مصر ظهرت عدم كفايته رغم كون التحصينات قوية والحدود منيعة وعدد الجيش وفير .

فالجيش فى مصر لم يكن فى جوهره سوى جيش اقليمى، جرى تجنيده من سكان البلاد، وتولى قيادته أفراد من نفس سكان الأقليم، على أنه لم يؤد مهامه العسكرية، وأهمل التدريب والنظام العسكرى، واتخذ أفراده لأنفسهم مهنا مدنية إلى جانب مهنتهم الحربية فصاروا يستثمرون ما يملكون من منازل



وأراض، هذا فضلاً على أن معظم الجند في هذا الجيش كانوا من المصريين، لذلك كانوا يشاركون مواطنيهم في كراهية البيزنطيين، ولذلك لم يخلصوا للدولة البيزنطية، ولم يتحمسوا للدفاع عنها أو القتال لصالحها .

ولم يزد الجيش عن كونه قوة للشرطة، اختصت بحفظ الأمن ومساعدة جباة الضرائب . فمهمة الدوقات الذين تولوا السلطة العسكرية لم تعدو أكثر من جباية الضرائب وارسال القمح إلى الإسكندرية وشحنه منها إلى العاصمة البيزنطية القسطنطينية، وتنفيذ السياسة الدينية التي اتخذها الإمبراطور البيزنطي، ولم يكن الدوقات إلا رؤساء دواوين جهلوا فنون الحرب والقتال وذلك لأن مصر كانت بمأمن من الغارات الخارجية .

كذلك لم يكن الجيش يخضع لقيادة موحدة، فكل دوق يتولى قيادة الجند المرابطين في دوقيته، وعليه أن يقاتل وحده، ولم يكن له من الصفة ما يجعله يطلب المساعدة من الدوقات الآخرين، ومن ثم فقد الجيش روح التعاون بين قواته .

وعلى الرغم من الوفرة العددية التي تمتع بها الجيش إلا أنه كان سيئ القيادة والتنظيم والتدريب، فاشتهر القادة بالضعف وتفرق الكلمة، وعدم الاتفاق على خطة موحدة، هذا فضلاً عن المنافسات والمنازعات والأحقاد الشخصية التي كانت بينهم . ومما لا شك فيه أن كل هذه العوامل ساهمت في هزيمة بيزنطة في مصر .

### التنظيمات القضائية منذ زمن جستنيان :

#### محاكم القضاء العام :

حدث في القرن السادس الميلادي، ان تحمل مسئولية ادارة القضاء عادة ولاية (حكام) الاقاليم، ومن يخضع لسلطانهم من الموظفين. ولما كان الدوقات يقدون الوظائف المدنية، فأصبحوا يمارسون على هذا الأساس وظيفة القضاء.



وتعتبر محكمة الدوق أهم المحاكم المحلية، وكانت تعقد جلساتها فى عاصمة الدوقية. ويمارس الدوقات القضاء الجنائى العالى ويفصلون فى الخصومات التى تقع بين من يخضع لادارتهم، فينظرون مثلا فى الدعاوى المتعلقة بالادارة المالية ويحكمون فى القضايا المدنية الهامة، لاسيما تلك التى يشتهب فيها القادة والجنود.

وللدوق مستشار قضائى، رهن اشارته، وارتبط بمحكمة الدوق محامون وفى وسع المتقاضين أن يلجأوا فى بعض الحالات الى نائب عنه ينتدبه لهم الدوق، على الرغم من ان استخدام هذا النائب لم يكن مشروعاً (الا فى بعض الاحوال الاستثنائية). ولكن هل بعث الدوق بهؤلاء النواب الى المدن الواقعة بدوقيته أم اقاموا مكانه وفى مجلسه بالمحكمة المنعقدة فى عاصمة الدوقية ؟ . الحقيقة اننا لانستطيع ان نجزم بما جرى فى الحالتين، ويلاحظ ان الدوق كان يرسل مندوبا عنه الى سائر المدن والباجركات بالدوقية وهذا لا يتعارض بطبيعة الحال مع حقيقة أن الباجرك كان يقيم فى كل من هذه المدن التى يتوجه اليها مندوب الدوق، وان صلاحية الباجرك للنظر فى القضايا لا تتعارض مع صلاحية مندوب الدوق. ولعل الباجرك ومندوب الدوق هما اللذان يتوليان تنفيذ الاحكام الصادرة من محكمة الدوق، بين المتخاصمين الذين يقيمون فى دائرة الباجركية.

ونظرا لانه صار فى يد الدوق من السلطات المدنية ما اختص به رئيس الابروشية، فاصبح بذلك كبير القضاة فى اقليمه، وفقد رئيس الابروشية كل ماله من الامتيازات المتعلقة بالقضاء، اذ لم يعد حقيقة سوى مرعوس للدوق.

ولم يكن ثم محكمة متوسطة بين محكمة الدوق، التى تتعقد فى عاصمة الدوقية والتى كان للدوق فيها مباشرة القضاء الجنائى العالى بالاضافة الى القضاء المدنى، وبين محاكم الباجركية وحماة المدن، الذين لم يكن لهم من ولاية القضاء الجنائى آلا النظر فى القضايا الجنائية الصغيرة، وبعض القضايا المدنية.



ومن ثم قام بالباجركية محكمة الباجرك، وتدل النصوص على أن الباجرك لم يمارس من الوظائف القضائية الا وظيفة قاضى المصالحات فينظر فى عقود الضمان وفى الشكاوى، فيرد الحقوق الى أصحابها . وكان حامى المدينة ينظر فى قضايا المعاملات المالية التى تتجاوز قيمتها ٣٥٠ صولدا ذهبيا، على حين انه لم يكن ينظر قبل صدور الملحق ١٥ من قانون ١١٣ الا فى القضايا الصغيرة التى لم تتجاوز قيمتها ٥٠ صولدا ذهبيا .

وفى القرى يباشر رجال الشرطة المحلية Riparii السلطة القضائية فى بعض الامور، فيتسلمون من سكان القرى الشكاوى، ويبادرون الى فحص موضوع الشكوى ويجوز لهم بعد فحص الشكوى، ان يلزموا المتهمين باصلاح ما افسدوه، أو ما انزلوا به الاذى والضرر، فاذا امتنعوا عن تنفيذ ذلك بعثوا بهؤلاء المتهمين الى الباجركية، فيتولى الباجرك محاكمتهم حتى اذا مثل المتهمون امام المحكمة اصبحت مهمة رجال الشرطة قاصرة على مراقبتهم، والحرص على الا يختفوا قبيل المحاكمة. وفى المنازعات البسيطة، يجرى الاتفاق بين المتخاصمين على ان يحتكوا الى اشخاص يختارونهم من شيوخ القرية.

والى جانب المحاكم القائمة بالبلاد، صار لسكان مصر الحق فى ان يرفعوا مباشرة امورهم وقضاياهم الى محكمة الامبراطور بالقسطنطينية . فالمعروف ان المتخاصمين جاز لهم بمقتضى الاجراء المعروف بالالتماس، ان يرفعوا شكاوهم رأسا الى محكمة الامبراطور فى صورة ملتمس، فيصدر الحكم فى هذه الحالة فى صورة أمر واجب التنفيذ .

### محاكم القضاء الخاص

أما القضاء الخاص الذى يتمثل فى المحاكم العسكرية والمحاكم الكنسية، فكان ايضا معروفا فى القرن السادس . على انه فى الواقع، اختلط القضاء العسكرى بالقضاء المدنى فى محكمة الدوق، غير ان الامر لم يكن كذلك فى



الاحوال الاخرى، اذ قامت محاكم عسكرية خالصة تألفت من ضباط، تنظر فيما يرفع اليها من القضايا التي يكون الجند فيها احد الطرفين المتخاصمين .  
 اما القضاء الكنسى، فإنه نشأ منذ زمن الامبراطور قسطنطين الكبير .  
 للمتخاصمين فى الامور المدنية ان يلجأوا باختيارهم ايضا الى تحكيم الاسقف، حتى اصبحت اعباء القضاء والمحاكم تثقل كاهل الاسقف . وما صدره الاسقف فى مجلسه من الاحكام، جرى الاعتراف بها قانونا . ويخضع رجال الدين ايضا للقضاء الكنسى، فلا ينبغي مطلقا لاحد رجال الدين ان يمثل امام محكمة مدنية الا فى حالة اذا كانت الدعوى فيها جنائية، غير ان ما يصدره الاسقف من احكام، يتولى تنفيذها بالنيابة عن القاضى اذا وافق على ذلك الطرفان . وفى زمن هرقل " ٦١٠-٦٤١م " ازداد ما لرجال الدين من حصانة من الناحية القضائية، اذ صار للاسقف الحق فى تنفيذ الاحكام . يضاف الى ذلك ما جرى فى كل القضايا المتعلقة بأحد رجال الكنيسة، انه لا يجوز للمتهم ان يلجأ الى القضاء المدنى، بعد ان اعتبرته الكنيسة الاسقفية مذنباً .

#### الاستئناف :

كان للمتقاضين الحق فى استئناف الاحكام الصادرة من محكمة ادنى الى محكمة اعلى، فاحكام الباجرك وحمى المدينة كان من الممكن استئنافها أمام محكمة حاكم الدوقية. وكانت الاحكام التى يصدرها حكام الدوقيات تستأنف أمام محكمة والى الشرق أو أمام محكمة الامبراطور فى القسطنطينية خاصة اذا ما تجاوزت الدعوة سبعمائة صولدا ذهبيا. ويجوز للمتخاصمين أيضا أن يرفعوا أحكام القضاء، الى محكمة الاسقف، وذلك الى جانب ما كان لهم من الحق فى رفع هذه الأحكام إلى محكمة الامبراطور .

وقد ادخل الامبراطور جستنيان تعديلات جديدة فى نظام القضاء، اكثرها تتعلق او ترتبط بالاستئناف بالولاية القضائية ذاتها وذلك وفقا لقانون ١٣ الصادر فى سنة ٥٣٨م أو فى ٥٣٩م، ملحق رقم ٣٢ ودفعه الى ذلك ما



يلي:-

(١) بعد المسافة بين مصر والقسطنطينية أو بين قرى مصر ومدنها وعاصمتها مما يجعل المتقاضين مضطرين لان يسيروا مسافات طويلة، وان يتعرضوا لتكاليف باهظة. وان يدفعوا من النفقات ما يجعل مصاريف الدعوى فى بعض الاحيان تتبلغ المبلغ المتنازع عليه، وقد تفوقه.

(٢) عدم وجود محكمة استئناف وسط بين محكمة الدوق وبين محكمة الوالى الكبير بالقسطنطينية أو والى الشرق، أو بين محكمة الدوق ومحكمة الباجرك أو حامى المدينة.

(٣) ازدحام العاصمة بفئات من المتقاضين فى قضايا قد تكون تافهة.

(٤) اضطرار المتقاضين اذا كانوا من المزارعين الى ان يتركوا زراعتهم تتعرض للاهمال مدة طويلة انتظارا للحكم فى قضاياهم.، مما يؤثر على الزراعة والاقتصاد وبالتالي يؤثر على ضريبة القمح، التى تذهب الى العاصمة البيزنطية.

(٥) شعور المتقاضين بالقلق والاضطراب نتيجة لانشغالهم بقضاياهم حتى ولو كانت تافهة أو ضئيلة الاهمية.

ولذا قرر جستيان انشاء محاكم الاستئناف وهى محاكم متوسطة، بين محكمة والى الشرق فى بيزنطة، وبين محاكم الدوقات، وهذا الاصلاح جرى تطبيقه بمصر فى سنة ٥٣٩م فجعل جستيان، لاجستال الاسكندرية عاصمة دوقية مصر ان يفصل نهائيا فى كل القضايا التى لا تزيد قيمة الدعوى فيها على خمسمائة صولدا ذهبيا، فلا يجوز استئناف القضايا التى من هذا القبيل، او الالتجاء بها الى سلطة اخرى .

على ان هذه الصفة التى للاجستال، فيما يتعلق بالقضاء فى مصر، لم تلبث ان تعرضت للتغيير، حينما فقد الاجستال مكانته على انه نائب الامبراطور فى مصر، وصار مجرد حاكم مدنى وعسكرى لدوقية من الدوقيات.



والواقع انه اصبح يجوز الاستئناف الى الاوجستال دون الرجوع الى اية هيئة اخرى، فى كل الدعاوى التى لا تزيد قيمتها عن خمسمائة صولد. واتخذ الامبراطور جستينيان بعض الاجراءات التى من شأنها أن تجعل القضاء نزيها خاصة بعد أن أصبح القضاء سلعة يجرى بيعها لمن يدفع أعلى الاثمان . هذا فضلا عن أن بطء اجراءات القضايا لم يكن النقيصة الوحيدة التى شاعت فى القرن السادس . فما اتصف به القضاة من الفساد والاستخفاف بواجباتهم، وما غلب عليهم من الجشع والشراسة فى جمع المال، تطلب ايضا ما اورده جستينيان من الاصلاحات . فما اورده جستينيان من نصوص تتعلق بما ينبغى على الموظفين فى انحاء الامبراطورية ان يتبعوه من احكام، عند مباشرة القضاء، جرى حتما تطبيقها فى مصر، حيث كان القضاء يعتبر سلعة يجرى بيعها، مثلما حدث فى سائر الاقاليم لمن يدفع أعلى الاثمان .

الشرطة :

يعتبر الدوق فى إقليمه رئيس الشرطة، لأنه يقوم بمساعدة الجند على حفظ الامن العام، ويكفل انتظام جباية الضرائب، بما يبذله لعمال الخراج من المساعدة بالقوة العسكرية . ويؤدى رئيس الابروشية فى اقليمه مهمة قائد الشرطة فيصدر من ديوانه أوامر القبض والاعتقال، وفى اقليمه سجن يلقي فيه من يعيث فسادا، او يرتكب جرما .

وتضمن قانون ١٣ تفاصيل دقيقة عن تنظيم الشرطة، فى منطقتى مينيلاتيس ومريوط، اللتين تعرضتا بصفة خاصة للاضطراب والقلق، نظرا لقربهما من الاسكندرية . والمعروف أن هاتين الجهتين تدخلان فى اختصاص ليبيا . فدرج حاكم ليبيا على ان يرسل الى هاتين الجهتين نائبا عنه، عهد اليه بأن يقبض على من يلجأ الى هذين الموضوعين من مثيرى الفتن بالاسكندرية والذين ارادوا ان يتجنبوا مطاردة مندوبى الوالى الاوجستال لهم . ولمندوب الوالى القضائى ان يتصرف فى هذه الحالة، اما من تلقاء نفسه، او بناء على



طلب الاوجستال، بأن يسلم المذنبين الى نواب الدوق الاوجستال ولتتفيذ ما صدر عن محكمة نائب والى ليبيا من احكام ومن اجل القبض على المشبوهين وتسليمهم الى نائب الاوجستال، كان لدى نائب حاكم او والى ليبيا، الى جانب الموظفين المدنيين الذين يؤلفون ديوانه، خمسون جنديا اتخذهم من الحامية المعسكرة أو المرابطة بالمنطقة ذاتها .

ومهما يكن من الاهمية لما قام به الجيش المرابط بمصر من أعمال الشرطة فأن الجند لم يكونوا وحدهم هم المكلفون بالسهر على حفظ الامن فى البلاد، اذ ان فئة خاصة من الموظفين تولت ايضا تأدية اعمال الشرطة فى المدن والقرى . . . فى المدن صارت ادارة الشرطة فى القرن السادس، موكولة دائما الى حامى المدينة، والى من يخضع لسلطاته من رجال الشرطة . والراجع ان مهمة هؤلاء المساعدين كانت فى القرن السادس، مثلما كانت فى القرن الخامس، من قبيل السخرة والتكليف، على الرغم من ان متوليها حصلوا على اجر وراتب. اما من باشر منهم مهمة الشرطة العادية، فقد جرى تكليفهم بحفظ الامن فى المدينة، وفى الاحتراز والتحفظ على أشخاص المتهمين وجعلهم يمثلون أمام القضاء .

وفى القرى أيضا جماعة من رجال الشرطة، بينما اهتم أعيان القرية بالقبض على المتهمين، وارسالهم للمثول أمام المحاكم، مثل محكمة الباجرك، وذلك اذا تلقوا من المحكمة المذكورة امرا بذلك .

ولا شك أن أعيان القرية، برغم ما بيدهم من السلطة العامة، كانوا يلجأون فى القبض على المذنبين إلى الموظفين المكلفين باعمال الشرطة، امثال الحراس فى القرية الذين يخضعون لأوامر التربيون، والذين جرى تعيينهم من قبل رئيس الابروشية .

وإذا حدث انه لم يكن فى وسع اعيان القرية، وقوات الشرطة المحلية ان يقوموا بتسليم المجرمين، او اهملوا تأدية ذلك الواجب، نتيجة سوء قصد ظاهر



جرى الالتجاء إلى الاستعانة بالعساكر الامبراطورية . اذ ان السلطات المسئولة قد تبادر، في بعض الاحوال، الى استدعاء قائد العساكر من مدينة مجاورة، فلا يلبث أن يأتي على رأس تلة من العساكر، تعيد السكان الى رشدهم .

وفي الجهات الواقعة على أطراف الصحراء، لاسيما ما كان تابعا منها لطيبه، حيث تتعرض القوافل لهجمات المغيرين، جرت اقامة أبراج منيعة، يصح الالتجاء اليها والاحتماء بها، عند حدوث خطر شديد، ويعتبر حارث البرج في هذه الحالة مندوب الشرطة، جرى تعيينه بصفة خاصة في هذه المواضع .

وعلى الرغم من أن كبار الملاك صار لهم في مصر نفوذ قوى، واستقلال داخلي كبير، وانشأوا لانفسهم في ضياعهم جيوشا خاصة (البقلار)، واخذوا ينفقون عليها، فالواقع انه لم تكن لهم ولاية قضائية على املاكهم ومع ذلك كانت لهم شرطة خاصة بهم .

### الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية :

ازدهرت الحياة الاقتصادية في مصر في العصر البيزنطي ونشطت الزراعة والصناعة والتجارة نشاطاً كبيراً وملحوظاً .

### في مجال الزراعة والرى :

من المعروف أن الزراعة قامت في مصر أساساً على نظام الرى، حيث لعب النيل دوراً هاماً في زراعة مختلف أراضي مصر، يقول بليني Pliny في كتابه Natural History أن ارتفاع الفيضان إلى ١٦ ذراع هو الفيضان الأمثل فإذا قل عن ذلك لا يكتمل رى الأرض وإذا زاد عن ذلك تظل الأرض مغمورة بالمياه ويضيع الموسم الملائم لبذر البنور. وقد تم تقدير مقاييس النيل على النحو التالي : منسوب ١٢ ذراعاً يؤدي إلى حدوث المجاعة، منسوب ١٣ ذراعاً تظل المجاعة قائمة، منسوب ١٤ ذراعاً يجلب السعادة، منسوب ١٥ ذراعاً يبعد



القلق، منسوب ١٦ ذراعاً يجلب البهجة والسرور. لذلك كان من الضروري توجيه الاهتمام نحو مشروعات الري.

ولذلك اهتمت الإدارة البيزنطية في مصر وركزت جهودها نحو إصلاح القنوات وتطهير الترغ من الطمي الزائد، وذلك لضمان وصول المياه إلى كافة الأراضي. كما كان يتطلب تنظيم مياه فيضان نهر النيل إقامة أحواض لكي يترسب فيها الغرين أو الطمي على مساحة الأراضي القابلة للزراعة، ثم إنشاء شبكة من قنوات الري والصرف لكي تمتد هذه الاحواض بالمياه ولتسحب منها المياه بعد أن تترك الطمي. وقد تطلب ذلك وجود جماعة من المهندسين ذوي الخبرة والتدريب العالي للإشراف على الاحواض والقنوات خلال موسم الفيضان، مع المحافظة على القنوات نظيفة من الطمي الذي قد يحمله التيار سواء كان بطيئاً أم سريعاً. كما كان هناك حراس للجسور، يتولى الكومارك (الكومارخ) في كل قرية تحديد اختصاصاتهم، وتتمثل في ملاحظة بوابات الفيضان ليمنعوا تحويل الفيضان عن منطقتهم.

وهكذا كانت عملية الري تتم تحت إشراف موظفين عرفوا باسم ريباري Riparii، منهم مراقب الجسور، ومساح، وموزع العمل، وحارس الطريق العام، ويبدو أن هذه الوظيفة الأخيرة كان متوليها يقوم بحراسة القنوات، حيث أن الطرق كانت تتبع شواطئ القنوات وكان هؤلاء الموظفون يحصلون على أجر مقابل قيامهم بهذا العمل، وذلك من الضريبة التي تفرض لعمليات أو لمشروعات الري، إذا كان مشرف الجسور يقوم بتحصيل مبلغ من المال من مستأجرى الأرض ومزارعيها. كما قام حكام الأقاليم أو الباجركات بمتابعة العمل في شبكة الري حتى يتم الحصول على محصول وفير، ويظهر ذلك من خلال إحدى البرديات التي تحتوى على أوامر صادرة من أحد الباجركات جاء فيها "لقد وصلنا إلى موسم إصلاح الجسور وتطهير القنوات... لذلك فعلى أهالي المنطقة

أن يبدأوا العمل المكلفين به بكل حماس.. وعلى المراقبين أن يلزموا كل فرد، دون تعنت أو تحيز، لإنجاز العمل المكلف به حتى تصل الجسور إلى ارتفاعها... وكذلك يتم تطهير الترع حتى تتدفق المياه وتروى الحقول ويعم الخير على الجميع. ومع ذلك فقد ظهر ضعف الحكومة في السيطرة على توزيع المياه واضحا في القرن السادس على الرغم من أن جستنيان، نص في مجموعته القانونية على عقوبة سرقة المياه وكسر القنوات قبل الفيضان. ونظراً لأن حراسة المياه أصبحت عمل جد خطير في ذلك الحين فقد جرى تعيين عشرة رجال لهذه الوظيفة.

وانقسمت الأراضي الزراعية في مصر إلى قسمين : - أراض تروى رياً دائماً وهي القريبة من النيل، وتزرع أكثر من محصول فى العام الواحد، وأراضى لا تروى سوى مرة واحدة فى العام لذلك فهى لا تزرع سوى محصول واحد وهو المحصول الشتوى .

ومن أهم المحاصيل الزراعية التى اشتهرت مصر بإنتاجها فى هذه الفترة محصول القمح ثم يليه الفول والشعير والعدس والحمص والتمرس . والذرة الرفيعة والبرسيم، وزرعت بمصر كذلك مجموعة من الخضروات والفاكهة، ومن بين الخضروات الفاصولية والبسلة والقلقاس، ومن أهم أنواع الفاكهة والكروم والزيتون والنخيل .

### الصناعة والتعدين :

نشطت الحركة الصناعية فى مصر فى العصر البيزنطى نشاطاً كبيراً وكانت مدينه الإسكندرية مركزاً رئيسياً لهذا النشاط وعد الإنتاج المصرى من المصنوعات الراقية أرقى إنتاج فى العالم القديم .

ويأتى على رأس الصناعات التى اشتهرت بها مصر فى ذلك الوقت



صناعة ( ورق البردى ) الذى يزرع فى مستنقعات الدلتا وأحراشها وفى الفيوم. وكان لهذا النبات أهمية كبيرة بالنسبة للمصريين فقد بنوا من سيقانه منازلهم الأولى، وقلدوا صورته فى نقوش أعمدة معابدهم، واتخذوا منه طعاماً يستخلصونه من جذوره ويطحنونه، كما اتخذوا منه أكفانهم الأولى، وبنوا منه مراكبهم الخفيفة، وأهم ما صنع من سيقان البردى ورق الكتابة، لم يصنع الورق من لحاء النبات كما قد يتبادر إلى الذهن، بل من اللبالب الليفى اللزج الموجود بساق نبات البردى، وهى ساق عريضة من أسفل ومدببة من أعلى. وهذا اللبالب كان يقطع بمدية حادة إلى شرائح رقيقة طويلة ومنتظمة، ثم توضع هذه الشرائح جنباً إلى جنب فى اتجاه رأسى، وتوضع فوقها طبقة ثانية من الشرائح متقاطعة معها أى فى اتجاه أفقى، ثم تضغط الطبقتان ضغطاً شديداً فتلتصقان بفضل العصارة اللزجة بعد إضافة قليل من ماء النيل (دون أى صمغ). وتترك فى الشمس لتجف، وبذلك تظهر الألياف على وجهها أفقية، وعلى ظهرها رأسية. ويسوى وجه الورقة بعد ذلك بمطرقة خشبية أو يدعك بصدفة أو قطعة من العاج أو الحجر الخفاف حتى يصبح ناعماً ومصقولاً.

وكان وجه الورقة وهو ما تكون فيه الألياف أفقية هو المخصص أصلاً للكتابة، وقلما كان النص المدون على الوجه يستكمل على الظهر، غير أنه كان من السهل أن يكتب أيضاً على ظهر الورقة، إذ كان ورق البردى "المستعمل" كثيراً ما يستخدم، بعد الاستغناء عن النص المكتوب على الوجه، لتدوين الرسائل الخاصة والحسابات والمسودات، وصور الوثائق الرسمية والقانونية أو لنسخ المخطوطات الأدبية الرخيصة لتعليم الأولاد فى المدارس.

وكانت أطراف الأفرخ تلتصق بعضها ببعض الآخر بمعجون خاص



فتتكون من ذلك لفافة طويلة، وغالباً ما كانت لفافة البردى تحتوى على عشرين فرخاً، وعلى هذه الصورة كان البردى يخرج من المصنع. وعند تاجر البردى بالتجزئة كان المشتري يقطع من هذه اللفافة الحجم الذى يحتاجه لتأدية غرضه. ولما كانت اللفافة العادية التى تشمل عشرين فرخاً لا تكفى أحياناً لتدوين السجلات الرسمية فكانت تلتصق هذه اللفائف الكبيرة بعضها ببعض الآخر فيتكون منها كشف جامع. وكانت الكتابة على فرخ اللفافة تجرى فى أعمدة كل منها يسمى (Selis) وهو ما يقابل الصفحة فى الوقت الحاضر. وكانت الأعمدة ترقم بالحروف الأبجدية اليونانية لتسهيل الرجوع إليها. كذلك كانت اللفائف ترقم أبجدياً حسب الحروف الأولى من أسماء أصحاب المستندات.

شجع الأباطرة البيزنطيون هذه الصناعة، التى كانت تصدر إلى جميع أنحاء العالم، وأطلقت الحكومة البيزنطية حرية صناعة وتجارة ورق البردى، ذلك فى مقابل بعض الضرائب النقدية على صناعاتها وتجارتها، هذا بالإضافة إلى فرض ضريبة عينيه على صناعة ورق البردى، تكفى لسد حاجة القسطنطينية منه طوال العام. ومما يدل على أن البردى المصرى كان سلعة عالمية أنه ذكر فى نقش يحتوى على جزء من قائمة الأسعار، التى أصدرها دقلديانوس، ولكن الثمن غير موجود لسوء الحظ.

واستمرت صناعة البردى وتصديره إلى الخارج بكميات كبيرة، كما كان الحال من قبل، ويثبت ذلك ما جاء فى حسابات كنيسة روما، التى كانت لها ممتلكات بالقرب من الإسكندرية، ومن بين هذه الممتلكات مصانع تنتج أوراق البردى.

ومن الصناعات الهامة الى اشتهرت بها مصر كذلك ( صناعة النسيج ) وكانت من أكثر الصناعات انتشاراً بمصر، سواء كانت منسوجات كتانية أم صوفية. واشتهر عدد من المدن المصرية بإنتاجه الوفير من هذه الصناعة



ومن بين هذه المدن وأهمها مدينة ( الأشمونين ) التي كان بها أكبر مصنع لنسيج التيل، كذلك اشتهرت الإسكندرية بنوع معين من التيل المزين بالرسوم، الذي كان يصنع بنسج عدد من الخيوط معًا، ويذكر دقلديانوس في قائمة أسعاره كتان الإسكندرية، وأنه كان ضمن أفضل خمسة أنواع من الكتان في الإمبراطورية بأسرها .

وإنتجت مصر من الكتان في العصر البيزنطي أنواعًا رقيقة وجميلة، وكان الكتان الخام يوزن بالرطل، أما المنسوج منه فيباع بالمقطع أو الفرخ ومن أشهر الألوان لتي استخدمت في صبغه الأبيض والإرجواني والأزرق، وإلى جانب استخدام الكتان في صناعة الثياب فقد استخدم أيضًا في صناعة الأغذية والفرش والسائر .

وقامت مصر بتصدير منسوجاتها الكتانية إلى الأسواق الشرقية في بلاد العرب والهند، ووجدت هذه المنسوجات سوقًا رائجًا لها في تلك الأسواق وذلك لرخص ثمنها ودقة صنعها .

أما عن المنسوجات الصوفية فقد تقدمت صناعتها في مصر في القرن الرابع الميلادي، واستخدم الصوف في الأردية والمعاطف، وصنعت منه السجاجيد والسائر، وصبغ كذلك بالأرجواني والأزرق والأبيض، غير أن المنسوجات الصوفية كانت قاصرة في بداية الأمر على الاستهلاك المحلي، ولم تتعداه إلى مجال التصدير، ثم أخذت صناعة هذا النوع من المنسوجات تتحسن وتتطور في أواخر العصر البيزنطي، لذلك بدأت تصدر إلى أسواق الشرق الأقصى . وتجدر الإشارة إلى أن سجاد الاسكندرية نال شهرة كبيرة، وكانت أسعاره مرتفعة، يذكر أحد الكتاب أنه يمكن أن تستخدم الواحدة منه كملاء سرير وقد استخدمها هكذا في القسطنطينية وأحضرها معه إلى برقة وأعطاهها هدية.

أما القطن فكان نادر الاستعمال، واستورد من الهند فى القرن الثالث الميلادى، واقتصر استخدامه فى العصر البيزنطى على التطريز .

أما الحرير فقد تم استيراده من الصين، وكان استعماله قاصراً على الطبقات العليا، التى تستطيع اقتناؤه لارتفاع أثمانه . وفى بداية الأمر كان الحرير ينسج فى مصانع الكتان والصوف، ولكن خلال القرن الرابع الميلادى أصبحت له مصانعه فى الإسكندرية، وعمل بها عدد كبير من النساء، وإلى جانب الإسكندرية كانت أخميم من أهم مراكز صناعته .

وفرض الأباطرة قيوداً شديدة على صناعة الحرير، فأصدروا سلسلة من المراسيم منها مرسوم عام ٣٩٦م، ٤٠٦م، ومرسوم عام ٤٢٤م وقد نصت هذه المراسيم على الحد من صناعة المنسوجات الحريرية ونتاجها إلا إنتاج ما يخص القصر الإمبراطورى. كما صدر مرسوم فى عام ٤٣٨م ينص على تحريم إنتاج المنسوجات الحريرية الأرجوانية اللون بمصانع الاسكندرية خاصة.

أصدر جستينيان أثناء حكمه ( ٥٢٧ - ٥٦٥ م ) قرارات بتحريم نسج الحرير الأرجوانى (القرمزى) فى مصانع الإسكندرية، لأن الحرير خاص بالأباطرة وبالتالي لا يصنع إلا فى المصانع الإمبراطورية علاوة على قلة خام الحرير وغلاء سعره لسوء العلاقات بين الروم والفرس الذين كانوا يتحكمون فى طرق جلبه. ومن ثم أصبحت صناعة الحرير احتكاراً للإمبراطورية . ومع ذلك فقد كانت هناك العديد من المصانع الخاصة بعضها أقيم فى المنازل للاستهلاك الشخصى كما وجدت عدة مصانع للنسيج فى القرى.

وجرى استخدام الصبغات سواء فى المنسوجات التى تستهلك محلياً أو تلك التى تصدر إلى الخارج، فكانت الصبغة الأرجوانية تستخرج من أصداف السمك، أو من بعض الجذور أو أغلفة السقط والقرطم.

ومما تجدر الإشارة إليه انه كان لا يمكن للشخص العمل بصناعة النسيج



إلا بعد فترة تدريب، والحصول على شهادة ممن قام بتدريبه، يذكر فيها أنه انهى فترة التدريب، وكانت تتراوح بين ١ - ٤ أعوام وحصوله أيضاً على رخصة من النقابة لممارسة العمل . كان سن التدريب يبدأ في العادة فيما بين العاشرة والثالثة عشر من العمر، وأثناء فترة التدريب كانت إقامة الصبية وكسوتهم على المعلم وهو الاسطى وكذلك يدفع المعلم خلالها ما على الصبى من ضرائب مثل ضريبة الرأس وغيرها وإذا كان الصبى لا يرغب فى الإقامة عند معلمه فإن الأخير يدفع لأمه أو أبيه مبلغاً من المال كل شهر خلال سنوات التدريب. أما إذا انسحب الصبى خلال فترة التدريب فعلى من يعوله أن يدفع غرامة مالية كبيرة لمعلمه.

ومن الجدير بالذكر أن صناعة النسيج كانت من الحرف المألوفة عند الرهبان والراهبات، فهى لا تتعارض مع تأدية الواجبات الروحية . كما ان مصانع النسيج والصباعة، كانت ملكاً للحكومة، ووضعت تحت أشرفها، بعكس ورق البردى، وفرضت عليها كذلك ضرائب نقدية وأخرى عينية يدفعها النساجون وأصحاب المصانع للدولة .

واشتهرت مصر كذلك ( بصناعة الزجاج ) إذ توفر لديها بعض المواد التى تدخل فى صناعته، وخاصة الرمل، ومناجم ملح النطرون (الصودا) مع توافر مواد الحرق مثل جذور البردى التى قدمت الوقود اللازم لصهر كل من الرمل وملح النطرون. هذا إلى جانب توافر الأيدى العاملة الحاذقة، مما ساعد على ازدهار هذه الصناعة بمصر، واشتهر الزجاج المصرى بألوانه الجميلة وصناعته الدقيقة ومن أهم مراكز صناعته الإسكندرية ووادى النطرون وأديرته وأرسينوى (الفيوم) وأكسير ينخوس (البهنسا). وصنع من الزجاج الأكواب والأطباق، وزجاجات والقوارير لأدوات الزينة والدوارق والشمعدانات والقناديل وغير ذلك، وتم تصدير المنتجات الزجاجية المصرية إلى الخارج، وخاصة إلى



بلاد البحر المتوسط . ويحتوى المتحف القبطى على عدد من الأوانى الزجاجية ترجع إلى العصر البيزنطى، ولكنها ليست من الزجاج الشفاف الرقيق الذى كان يصدر إلى الخارج بل من الزجاج السميك .

واشتهرت مصر أيضاً (بصناعة الفخار)، ويرجع ذلك إلى أن تربتها كانت غنية بالطمى اللازم لصناعته، مع وجود الأفران اللازمة للحرق ووفرة الأيدي العاملة المدربة، واستخدم الفخار فى العصر البيزنطى فى اغراض متنوعة فصنعت منه جرار النبيذ والزيت، وجرار لحفظ الغلال وأوعية يبيع فيها الباعة بضائعهم فى الأسواق . كما استخدم الفخار فى الاستعمالات المنزلية كقدور الطهى والأكواب والأطباق، والآنية والأباريق والمسارج والقوارير ذات الاستخدامات الدينية أى التى يوضع فيها الماء المقدس . وكان ما يستعمل منها لحفظ الأطعمة يدهن بالقار، ليخفف الترشيح كذلك استخدم الفخار فى حفظ العطور .

واتخذت الأوانى الفخارية صوراً وأشكالاً مختلفة، وتفنن المصريون فى زخرفتها بالألوان المختلفة كالبنى والأحمر والأصفر والأرجوانى، واتخذت هذه الزخارف صور الحيوانات والأسماك .

وانتشرت مصانع الفخار على طول أقاليم وادى النيل، كما وجد عدد منها يحيط بالأديرة أذ عثر على أفران بجوار أديرة الفيوم وسقارة ودير ميناى فى مريوط على مقربة من الإسكندرية . ونتيجة لوفرة الإنتاج من الأوانى الفخارية وغيرها وكثرة استعمالها، انخفضت أسعارها وصدرت إلى الخارج، إذ يشير قانون ( ١٣ ) المادة رقم ١٥ الذى اصدره الإمبراطور جستنيان إلى أن الضريبة المقررة على تصدير الفخار من الإسكندرية تضاف إلى موارد البلدية .

ازدهرت أيضاً بمصر (صناعة العطور والتوابل) التى كانت تستورد من الأسواق الشرقية ثم تصنع فى مصر، ويعاد تصديرها ثانيه . ويذكر كشف



حساب ممتلكات كنيسة روما في مصر، المشار إليه سابقاً، أن مئات الأبطال من الزيوت والتوابل والعمور بأنواعها كانت تصنع في مصانعهم بالقرب من الإسكندرية .

وكان جزء كبير من المواد الأولية المستعملة في صناعة العمور والعقاقير الطبية موجودة بمصر ومتوفرة فيها، ومن النباتات المصرية ذات الشهرة الطبية: البلسم والخروج والكرم والكمون والزعفران وشجر اللبان وبذور اللوتس، وكانت هذه المواد تصنع وتصدر في شكل عقاقير فتذكر إحدى البرديات أنه كان هناك (١٩٢) مادة مختلفة ما بين نباتية وحيوانية ومعادن كانت تستخدم في إنتاج العقاقير والعمور وأغلبها من المنتجات المحلية. وكانت العقاقير تصدر إلى الخارج فيذكر سينسيوس أسقف كنيسة قورينه في ليبيا أنه تسلم في برقة شراب السلفيوم Silvia المرسل إليه من الإسكندرية. أما العمور فقد كان للمصريين دراية هائلة بصناعتها، ووجدت لها حوانيت في الفيوم وغيرها. وقد قام الصانع المصري في الإسكندرية بإعادة تصنيع ما كان يستورد من طيوب خام وبعد خلطها بالزيوت العطرية المصرية ينتج منها عطوراً ذكية الرائحة، تصدر إلى كل أنحاء العالم.

ومن الصناعات الأخرى التي انتشرت بمصر صناعة التماثيل والعاج والخمور والآلات الموسيقية والصناعات الخشبية حيث توفرت في مصر ثروة خشبية، متمثلة في أشجار السنط والنخيل والجميز والدوم وغيرها، إلا أن تلك الأخشاب لم تكن تفي لتغطية صناعات البناء والأثاث والسفن لذلك استوردت مصر الخشب من الخارج . وكانت الصناعات المعدنية من الحرف الرائجة أيضاً؛ فقد وجدت منتجات معدنية من ذهب وفضة وبرونز ونحاس محفوظة الآن في المتحف القبطي المصري، ومنها حلبي من العقيق والفضة، واقراط من الفضة مطعمة بالمرجان على شكل حلقات، وقلائد من ذهب، وصلبان وخواتم



ذات فصوص ملونة، وسوار فضى مطعم بالعقيق، إلى جانب مجموعة من العقود خرزها مصنوع من مواد مختلفة كالعقيق وعجينة الزجاج الملون والودع والقاشاني.

ومن أهم مراكز الصناعة في مصر مدينة الإسكندرية - عاصمة مصر - فقد اشتهرت بالعديد من الصناعات من بينها ( صناعة العقاقير ) فما كان يرد إلى الإسكندرية من المواد الخام من الهند ومن الشرق الأدنى بل ومن مصر ذاتها وبصفة خاصة من طيبة والواحات، كان يتم تحويله بالإسكندرية إلى سلع تجارية وأظهر صناع الإسكندرية براعة وحذق في صناعة الأدوية والعطور، وفي تعبئتها وتسويقها، ومن ثم أصبح لها شهرة ذائعة وارتفعت أسعارها وحصل صناعها من أهالي الإسكندرية على أرباح وفيرة . وازدهرت كذلك بالإسكندرية ( صناعة السفن ) إذ كانت الإسكندرية ميناء تجاريًا هامًا، ومن ثم كان من الضروري أن تقوم بها هذه الصناعة الهامة، وكانت مصر تستورد الأخشاب من الشام وأفريقيا وآسيا الصغرى وغيرها، وفي نفس الوقت كان يصنع الكتان بمصر، والذي يدخل في صناعة الحبال المستخدمة في صناعة السفن، واشتهرت الإسكندرية أيضًا بصناعة (الأحجار الكريمة) وصقلها وتهذيبها، كما ازدهرت بها كذلك صناعة (الأطباق من الفضة) والتي كانت تصدر إلى القسطنطينية .

### أما التعدين :

فقد ذخرت مصر بمناجم الذهب وبعض الأحجار الكريمة والمرمر والبازلت والجرانيت وغيرها، واهتم الأباطرة البيزنطيون باستخراج المرمر الذي استخدم في صناعة الآنية والتوابيت والتمائيل والقدور والصحاف..الخ والبازلت والجرانيت والرخام الأحمر، وقد استخدم في بناء الأعمدة وصناعة الآنية والتمائيل، كذلك الحجر الجيري وقد انتشرت محاجره في سلسلة جبال



البحر الأحمر وفي أسوان، واستخدمه المصريون كمادة للبناء، كما استغل المصريون مناجم وملاحات الملح، وأهمها ملح النظرون.

كذلك اهتم البيزنطيون باستغلال مناجم الأحجار الكريمة كالزبرجد (قرب سيناء) والزمرد (بالقرب من أسوان على الجانب الشرقى من النيل) والفيروز (في سيناء)، وكذلك الأحجار نصف الكريمة كالعقيق الأحمر (بأرمنت) واستخدمه المصري في عمل التمايم، والبلور (بالبحر الأحمر)، كذلك اهتم البيزنطيون بمناجم المعادن الثمينة كالذهب والفضة، التي استخلصها المصريون من خامات الذهب والرصاص والنيكل، ولم يكن لها مناجم منفصلة، تستخرج منها الفضة الخالصة. والمعادن التي تستخدم في الصناعات المختلفة ومنها النحاس والحديد الذي استخرجه المصريون من مناجمه الواقعة في شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية في وادي الحمامات وجوار أسوان، وفي الصحراء الغربية في الواحات، واستخرج المصريون أيضاً الرصاص من مناجمه الواقعة بجوار أسوان.

وتجدر الإشارة إلى أنه عمل بصهر المعادن وصياغتها عدد من العمال منهم "صاهر المعادن"، و"المشرف" على طحن وجرش الصخور خاصة المحتوية على خامات الذهب والفضة، و"صاغ الذهب" الذي يقوم بصياغة كافة أنواع الحلى الذهبية، والحلى المطعمة بالأحجار الكريمة مثل الزمرد واللؤلؤ، والعقود والأقراط والخواتم والأساور، والتيجان الذهبية وغيرها. وكذلك "صاغ الفضة" الذي يقوم بتنقية خام الفضة من الشوائب، وإنتاج الأطقم الفضية المنزلية، والأكواب والشمعدانات والمباخر علاوة على الحلى الفضية. ومن عمال المعادن أيضاً الحداد وصانع الأقفال والمفاتيح والحلقات المعدنية والأسلحة والأدوات الزراعية مثل الفئوس والمناجل وغيرها.



## التجارة :

### أولا التجارة الخارجية :

صحب النشاط الزراعى والصناعى فى مصر فى العصر البيزنطى رواجًا تجاريًا، ويرجع ذلك الرواج التجارى إلى :

أولاً : اهتمام الدولة البيزنطية بتجارة الشرق وبالمنتجات الشرقية، حيث اعتمدت اعتمادًا كليًا على بعض هذه المنتجات وعلى رأسها الحرير والتوابل.

ثانيًا : عدااء الفرس للدولة البيزنطية، وما ترتب عليه من عدم سماح الفرس للتجارة البيزنطية بالمرور عبر أراضيهم ولذا سعى البيزنطيون إلى إعادة النشاط التجارى فى البحر الأحمر إلى سابق عهده . فعن طريق هذا البحر وعبر الأراضى المصرية يمكن الوصول إلى موانئ البحر المتوسط، ومن موانئ البحر المتوسط، يمكن الوصول بحرًا إلى القسطنطينية . واستخدم البيزنطيون هذا الطريق بدلاً من الطريق الذى يعبر الخليج الفارسى ثم إلى البلاد الفارسية ومنها إلى آسيا الصغرى ثم إلى القسطنطينية . ونظرًا لأهمية طريق بحر القلزم " الأحمر " بالنسبة للدولة البيزنطية، وكان طبيعيًا أن يسعى الأباطرة البيزنطيون إلى تأمين هذا الطريق، الذى أصبح هو الطريق الوحيد أمامهم لنقل متاجر الشرق مما ترتب عليه تنشيط الحركة التجارية بمصر .

وكانت مدينة الإسكندرية بحكم موقعها الممتاز فى شرق بحر الروم "المتوسط" ، مركزًا من مراكز التجارة العالمية، واحتكر تجار الإسكندرية التجارة الشرقية لأنفسهم إلى حد بعيد كما كان أسطولهم التجارى فى بحر الروم "المتوسط" يعتبر الأول بين الولايات جميعًا، فمن الإسكندرية وعلى أسطولها كان يصدر القمح إلى البلاد الواقعة شرقى البحر المتوسط وإلى بلاد العرب بل وإلى الغرب كذلك . وبفضل الملاحين المصريين انتظمت طرق الملاحة بين



مصر والقسطنطينية وأيطاليا، وتوغل التجار المصريون في البحر الأديراتي، وانتظمت العلاقة بين مصر وبلاد الغال (فرنسا)، وحملت السفن المصرية البردي إلى مارسيليا، كما اتصلت مصر بأسبانيا، وقدم تجارها إلى مصر وكذلك تجار بلاد الغال .

وتردد تجار الإسكندرية على جزيرة تابروبان (سيلان) مستودع الهند الكبير، الذي حفل بالحريير، وعود الند والقرنفل، وخشب الصندل والمسك، والفلل والسمسم والعطور، والنحاس، والقطن، فضلا عما توافر بها من الأحجار الكريمة.

وتثبتت رحلات الراهب المصري السكندري كوزماس<sup>(\*)</sup> - الذي كان يعمل في التجارة الشرقية على ظهر سفينة حملت عدد كبير من البحارة المصريين - أن التجارة الشرقية المباشرة مع كل من الهند وسيلان لم تتوقف. وقد ذكر ذلك في الفصل الأخير من كتابه الذي كتبه حوالى عام ٥٤٥ - ٥٥٠م في وصف البلدان، وفي دير سيناء الذي أكمل حياته فيه يمارس الرهبانية، وسجل أخبار رحلته في هذا الكتاب . وأخذت الإسكندرية تصدر إلى بلدان البحر المتوسط منتجات مصر، وما يصنع بالإسكندرية من السلع، وما يرد إليها من ثروات الهند والشرق الأقصى . ولذلك حقق تجار الإسكندرية أرباحا وفيرة من وراء التجارة مثال ذلك التاجر فيرموس، الذي تمكن من أن يكون جيشاً من أرباح تجارته ومن دخله من تجارة البردي والصبغ، بل تطلع إلى منصب الإمبراطور ذاته. لذلك ليس بمستغرب أن يتمسك أهل الإسكندرية بممارسة التجارة بكل ما أتوا من قوة. ويبدو أنهم نجحوا في الحفاظ على مركزهم على رأس التجارة العالمية في العصر البيزنطي .

(\*) يعرف بالبحار الهندي، وعاش في الإسكندرية في القرن السادس، وقام برحلة إلى الهند عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي، وذهب إلى جزيرة سيلان .



ومن الجدير بالذكر أنه كان لكنيسة الإسكندرية نشاطها في مجال التجارة الخارجية، ويتضح هذا النشاط من خلال سيرة القديس يوحنا الذى تولى أمر الكنيسة فى مطلع القرن السابع، والتي يتضح من خلالها أن الكنيسة كانت تملك ثلاث عشرة وقيل ثلاثين سفينة، فضلا عن سفنها التي كانت تنقل المتاجر فى نهر النيل، هذا واستخدم أسطول الكنيسة فى استيراد القمح من صقلية أثناء مجاعة حلت بالبلاد نتيجة لهجوم الفرس على مدينة الإسكندرية، وعدم وصول القمح من الريف إليها وذلك فى عام ٦١٨ م . واستخدام كذلك فى إرسال الإمدادات إلى بيت المقدس حينما هاجمها الفرس فى عام ٦١٤ م . وبالإضافة إلى القمح حملت هذه السفن الحرير والأواني الفضية وغيرها ووصلت حتى بريطانيا والبحر الادرياتي .

### التجارة الداخلية :-

نشطت حركة التجارة كذلك فى أسواق مصر الداخلية وكانت السوق أكثر أجزاء المدينة أهمية وحيوية ونشاط، وكان فى كل مدينة سوق توسطها وعلى جانبيه تقام الحوانيت التي عمرت بمختلف أنواع السلع المصنوعة داخل مصر أو الواردة إليها من الخارج كالأسلحة والثياب الدلماشية والطرسوسية. وكانت كل فئة من التجار تعمل فى تجارة معينة، تجتمع فى مكان خاص بها فى السوق، فتجار الفخار لهم منطقتهم، التي يعرضون فيها أوانيهم وجرارهم، وتجار الأقمشة لهم مكان مخصص بالسوق، يعرضون فيه منتجاتهم من الثياب الكتانية والصوفية وهكذا. كذلك انتظم التجار كغيرهم من الطوائف فى نقابات منها نقابة تجار الخبز، وأخرى لتجار الزيت والنبيذ وثالثه لتجار التوابل ونقابة تجار المنسوجات وغيرها من النقابات. وسوف نفضل لهذه النقابات فيما بعد.

وكان العمل بالتجارة يتطلب موافقة الدولة، فعلى الشخص الذى يرغب فى



مزاولة التجارة، أن يتقدم بطلب رسمي إلى كاتب المدينة يطلب فيه السماح له بمزاولة تجارته، ويحدد نوعيتها، وكان الهدف من هذا الأجراء، هو حصر عدد التجار، وفرض الضرائب عليهم . كذلك كان على من يريد، أن يفتح حانوتاً للبيع والشراء، أن يخطر الدولة بذلك، بل أن الدولة كانت تمتلك بعض الحوانيت والأماكن، وتقوم بتأجيرها للأفراد وفقاً لمزاد عام.

كذلك اهتمت الدولة بتوفير المواد والسلع الغذائية في الأسواق وخاصة الخبز، وعملت على الحد من جشع التجار، وضمان حصولها على الضرائب في نفس الوقت ولذلك أجبرت الدولة التجار على عرض سلعهم بالأسواق وإعلان قائمة شهرية بالأسعار ترفع إلى ( مراقب السوق Logistis ) فهو المسئول الأول عن إمداد المدينة بالطعام.

وكان التجار يدفعون على بضائعهم التي تباع بالأسواق مكوساً تسدد شهرياً وقد بلغت  $\frac{1}{12}$  من ثمن البضائع .

وقد اكتظت أسواق مصر التجارية بمختلف التجار الذين جاءوا إلى مصر من شتى جهات العالم خاصة من القسطنطينية وبلاد الشام، وبلاد العرب . وهكذا شهدت مصر في العصر البيزنطي ازدهاراً في النواحي الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة .

## الحياة الاجتماعية

تجدر الإشارة بداية إلى أن مصر شهدت خلال فترة الحكم البيزنطى لها عددًا كبيرًا من فئات السكان ومن بين تلك الفئات :

### ١ - اليونانيون ( الإغريق ) :

وهم الذين وجدوا بمصر منذ الفتح المقدونى لها، فقد حضروا إلى مصر بصحبة الإسكندر الأكبر، وكونوا جالية كبيرة بها وبصفة خاصة الإسكندرية زمن الحكم البطلمى، ويلاحظ أن الجالية اليونانية فى مصر تمتعت فى ظل حكم البطالمة والرومان بمميزات كثيرة منها: أنهم اعفوا من الضرائب خاصة ضريبة الرأس، وكان الطريق مفتوحًا أمامهم لتولى المناصب الكبيرة فى الجهاز الحكومى، كما كانت لهم ضياع كبيرة، ومنهم من اشتغل بالصناعة والتجارة إلى جانب امتلاك الأراضى. وأصبح اليونانيون يشكلون فى مصر جالية ارسقراطية، وكان معظم رجال السناتو ينتخبون من هذه الجالية اليونانية . وأزاد نفوذ هذه الجالية وسلطانها فى مصر نظرًا لما تمتعت به من ثروة وما ارتبطت به من صلات وعلاقات، فضلاً عن كونها جالية الحكام . وليس أدل على نفوذ هذه الفئة من أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية أما اللغة اللاتينية فقد اقتصر استخدامها على الجيش واللوائح الخاصة بالقانون الرومانى .

### ٢ - اليهود :

يمثل اليهود الفئة الثانية من فئات سكان مصر فى العصر البيزنطى، وعاش اليهود بمصر وكونوا بها جالية كبيرة، وكانت الإسكندرية تمثل أكبر تجمع لهم. وكان لهم بها وضع خاص، فقد تمتعوا بالحرية الدينية، وأعفوا من



تقديم القرابين للامبراطور، وسمح لهم بإقامة معابدهم الخاصة بهم، وأن يحاكموا أمام محاكم خاصة بهم وعلى الرغم من أنهم رفضوا أن يضعوا تماثيل الأباطرة في معابدهم كما أنهم ظلوا يمارسون عادة "الختان" التي لم يكن الرومان يمارسونها رغم ذلك كله تسامح الرومان معهم، بل مالوا إلى حمايتهم وإزالة أى تجاوزات قد تؤدي إلى الأضرار بالعلاقة معهم، وذلك لأنهم اتباع لهم، يقفون إلى جانبهم ضد السكندريين. ومع ذلك كان اليهود أقل منزلة من اليونانيين، إذا لم يتمتعوا بالحقوق المدنية في الإسكندرية . كما كان اليهود من الفئات التي فرض عليها الرومان ضريبة الرأس، مثل سائر الخاضعين للحكم الروماني، وباعت محاولات اليهود للتخلص من هذه الضريبة بالفشل . و كما هي العادة أهتم اليهود بالاقتصاد والتجارة وجمع الثروات . وظل اليهود يشكلون طائفة كبيرة من طوائف المجتمع المصري حتى عام ٤١٥م، ففي هذا العام قام الشعب في المدن والرهبان الوافدون من الصحارى الغربية بثورة ضد اليهود بالاسكندرية والمدن الاخرى، ونهب العامة اموال اليهود وممتلكاتهم، وطردهم من بيوتهم، وعمت المدينة الفوضى .

أما عن سبب هذه الثورة فقد حدث خلاف بين البطريرك كيرلس وبين والى البيزنطى أورستيس Orestes، وأصر كل منهما على أن تكون له دون غيره السيادة بمدينة الإسكندرية، وازدادت الكراهية بين الرجلين بعد مقتل الفليسوفة الوثنية هيباشيا عام ٤١٥م على يد المسيحيين بإيعاز من كيرلس وكان والى البيزنطى شديد الإعجاب بشخصها. استخدم كيرلس أول الأمر ما له من سلطة على رجال الكنائس، فأمر بإغلاق إحدى الكنائس التي تدين بمذهب الكنيسة البيزنطية، فازداد الحالة سوء بينه وبين والى البيزنطى في ذات العام (٤١٥م) خاصة حينما أمر أورستيس بالقبض على أحد أنصار كيرلس، وأمعن في تعذيبه والتكيل به، وكان اورستيس يميل إلى اليهود الذين أفلحوا فى خداع المسيحيين. ولم يلبث أن نشب القتال بين اليهود والمسيحيين، ودارت مذبحة



رهيبة، وغضب كيرلس، وعزم على الانتقام من اليهود، ولكنه اكتفى بطردهم من المدينة، وسمح للمسيحيين بنهب ممتلكاتهم، دون أن يكثرث بالوالى البيزنطى، الذى لم يسعه الا أن قدم شكوى إلى الإمبراطورية ثيودوسيوس الثانى صد كيرلس، لأنه اعتدى على سلطته، وتجدر الإشارة إلى أن رهبان وادى لنظرون وقفوا فى هذا الصراع إلى جوار كيرلس، فجاءوا - كما سبق أن ذكرنا - إلى الإسكندرية، وتظاهروا ضد الوالى فى الشارع، بل أن أحدهم قذفه بحجر أوجعه، ولم ينج الا بعد عناء شديد.

واصل اليهود سياسة إثارة الفتن والقلاقل، ففى عام ٤٣٥م تجمعوا فى مدينة الإسكندرية، وصلبوا تمثال على هيئة المسيح عليه السلام، وعبثوا به، فثار عليهم المسيحيون، واندلع قتال بين الجانبين، قتل فيه العديد منهم، وبعث الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) جيشاً إلى مصر، انتقم من اليهود وقتل الكثير منهم. وبادر بإتخاذ إجراءات صارمة ضد اليهود فأصدر سنة ٤٣٨م مرسوماً خاصاً باليهود جعلهم طبقة أقل من الشعب البيزنطى، وفى العام التالى (٤٣٩م) أصدر مرسوماً آخر حرم فيه تعيين اليهود فى الوظائف القضائية، التى من حق شاغلها أن يوقع العقوبة على المسيحيين.

وكان التطور الوحيد الذى طرأ على أفكارهم هو ظهور طائفة النساك التى أنشأت لنفسها بيعة بالقرب من بحيرة مريوط (بالإسكندرية) والتى عرف أفرادها (بالمتأملين فى الإلهيات) . ويصف الفيلسوف اليهودى فيلو نظام حياتهم بقوله : "أنهم يبدأون بالصلاة من الفجر، ثم يقضون يومهم فى التأمل فى التوراة ثم يختمونه بالصلاة عند المساء، عرف عنهم مداومة الصوم، لا يذوقون الخمر على الإطلاق، ولا اللحم، بل الماء شربهم الوحيد، واطايبهم مع الخبز الملح والأعشاب .. يجتمعون أيام السبت للعبادة معاً داخل معبد عام وسط منازلهم وأكواخهم".



### ٣ - الأجانب من العلماء أو التجار :

تمثل الجاليات الأجنبية الفئة الثالثة من فئات المجتمع المصرى فى العصر البيزنطى، فقد قدم إلى الإسكندرية عدد كبير من الأجانب سواء من العلماء الذين جذبتهم المدينة بجامعتها زائفة الصيت وبمدارسها الشهيرة، ف جاءوا إليها طالبين العلم فى مدارسها ومكتباتها، كذلك جذبت الإسكندرية - كسوق تجارى رائج وكميناء هام ترد إليه السفن التجارية من كل مكان - أنظار التجار، الذين سعوا إليها طمعاً فى الحسب المادى، ف جاء إليها تجار من إثيوبيا ومن بلاد العرب بل ومن الهند، مما جعل للإسكندرية طابعاً مختلفاً كالذى اشتهرت به مدن شرقى البحر المتوسط .

### ٤ - المصريون :

وهم السكان الوطنيون أو الأصليون، الذين شكلوا الغالبية العظمى بالنسبة لباقي الفئات الأخرى . وقد وقع على هؤلاء المصريين العبء الأكبر من العمل والشقاء وأثقل كأهلهم بالضرائب سواء كانت نقدية أم عينية، ولهذا سارعت هذه الفئة باعتراف الديانة المسيحية عقب ظهورها وانتشارها فى مصر رغبة منهم فى التخلص من الذل والهوان والسخرة والعذاب الذى تعرضوا له على يد الحكام الرومان .

ولكن تجدر الإشارة إلى أن زعماء الكنيسة المصريين كانوا يتمتعون بسلطان واسع ونفوذ كبير نظراً لوضعهم الدينى والاقتصادى، كما برز من بين المصريين طائفة عرفت باسم ( المصريين المتأغريقيين )، وذلك لأنهم اختلطوا بالإغريق، وحاكوه فى لغتهم وملبسهم وأسمائهم، وقد امتلك هؤلاء الأراضى واشتغلوا بالحرف المختلفة وأعفوا من ضريبة الرأس .

ولا تختلف الحياة الاجتماعية مصر عنها فى سائر مدن

الإمبراطورية، فقد صارت بالإسكندرية - عاصمة مصر - حياة اجتماعية صاخبة اختلفت كثيراً عن تلك الحياة التي سادت المجتمع في الريف أو في القرية .

### الحياة الاجتماعية بالعاصمة الإسكندرية :

اشتهرت الإسكندرية وأهلها من قديم الزمن بسرعة الإثارة وعدم الاكتراث بالسلطة والحكومة، والميل إلى الشغب والتمرد والثورة، هذا إلى جانب ما عرف عنهم من النزوح إلى المسرح والميل إلى السرور والعبث واللهو . كان لهذه الصفات التي اتصف بها أهل الإسكندرية أثر كبير في الفترة التي عاشتها مصر في العصر البيزنطي . فقد شهدت هذه الفترة انتصار المسيحية وانتشارها بمصر، وظهور بعض المذاهب الكنسية وتعصب أهل الإسكندرية بشدة لهذه المذاهب، التي ارتبط معظمها بتفسير طبيعة السيد المسيح، واشتد النزاع بين الأحزاب المتنازعة المتعادية من يهود ووثنيين وأرثوذكس ومونوفيزيتيين وادى ذلك إلى حدوث مناوشات ومشاحنات بينهم، وامتلات الإسكندرية وسائر الأقاليم المصرية بالاضطرابات والمعارك، خاصة في القرنين الخامس والسادس، وعلى هذا النحو كانت الإسكندرية مسرحاً للمعارك والمشاحنات والاضطرابات وشهدت تلك المدينة حياة صاخبة من جراء ذلك .

حرصت الحكومة البيزنطية على استتباب الأمن، وقرار السلام في مدينة الإسكندرية، ولهذا اتبعت نفس الوسائل التي كانت سائدة في القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، بأن درجت على توزيع الطعام والخبز بالمجان على العامة، وحرصت كذلك على أن توفر لهم وسائل التسلية واللهو، وكذلك مشاهدة المسارح ؛ من ذلك ما قرره الإمبراطور دقلديانوس في عام ٣٠٢م من توزيع القمح بالمجان على فقراء الإسكندرية، وقد أبقى من خلفه من الأباطرة على ذلك



الامتياز، الذى تمتعت به مدينة الإسكندرية . فقد قام قسطنطين بعد أن نقل عاصمة الإمبراطورية إلى الشرق بزيادة كمية القمح التى سمح بها سلفه دقلديانوس، وذلك لاسترضاء الشرق وأهله وخاصة مصر، التى كانت مستودع الغلال بالنسبة للإمبراطورية، وأكثر من ذلك سمح قسطنطين بتوزيع الذبيذ على أهل الإسكندرية وبمشاهدة الملاحى، وذلك لتكون الإسكندرية كالقسطنطينية فى ذلك . وحرص الإمبراطورية جستينيان أيضاً على منع تأخير توزيع القمح، مما يدل على حذر الإمبراطور من أن يؤدى هذا التأخير إلى أن يقع بالمدينة ما يثير أهلها المشهورين بحدة المزاج .

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية أيضاً بمدينة الإسكندرية انتشار الحمامات العامة بها، وقد تولت الحكومة الانفاق على جزء من هذه الحمامات إذ تكلفت بوقودها مع بعض النفقات النثرية، وتحمل كبار الاقطاعيين الجزء الآخر . وتردد الأهالى على الحمامات العامة، واهتموا بتزيينها وإمدادها بالماء الساخن وغرف البخار، واحتوت هذه الحمامات على غرف خاصة بالنساء.

ويتكون الحمام من عدة حجرات مزينة بالأعمدة ذات التيجان الجميلة، وبه صنادير للمياه الباردة وأخرى للماء الساخن وغرف للبخار . وفى بعض الحمامات خصصت أماكن للنساء كما سبق أن ذكرنا . وجرى تزيين حوائط الحمام بنقوش بارزة، ولونت بألوان ومع غلبة الديانة المسيحية والفن القبطى، ظهرت أنواع من الحمامات تعرف بالدعامات التى ترفع حجرات الحمام المختلفة عن الأرض.

ومن أشهر الحمامات حمام كوم الدكة بالإسكندرية، وهو حمام خاص استخدم فى فترات من اليوم للنساء، وفترة للرجال، وبه حمام خاص لصاحبه وحمام أطفال . وقد تعرضت بعض الحمامات للزلازل منها زلزال عام ٥٣٥م

ولكن ما لبث أن أعيد ترميمها.

وكذلك انتشرت بالإسكندرية المسارح والملاهي وفرق الرقص والتمثيل والموسيقى وحرصت الحكومة على أن توفر لأهل الإسكندرية هذه المتعة، فعندما قرر جستين أن يطرد من بلاد الشرق المشتغلين بالرقص، استثنى الإسكندرية من هذا القرار .

وكما حدث في القسطنطينية من ظهور الأحزاب السياسية التي لعبت دوراً هاماً في السياسة الدينية للإمبراطورية كذلك كان الحال في الإسكندرية فقد كان بها حزبين كبيرين هما حزب الزرق وحزب الخضر، ولعب هذان الحزبان دوراً كبيراً في مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والدينية، وتسببا في أحداث العديد من الاضطرابات في الإسكندرية وإشاعة الفوضى بها، ولذلك حرصت الحكومة البيزنطية على عدم بيع الأسلحة التي تنتجها مصانع الحكومة للأفراد، كما فرضت غرامة كبيرة على كل موظف يهمل في تنفيذ هذا القرار، بل وتقرر مضاعفة الغرامة على الدوق الالوجستال بالإسكندرية بصفة خاصة وذلك حرصاً على عدم وقوع الفتن والثورات في مدينة الإسكندرية .

وحرص أهالي الإسكندرية على الاحتفال بالأعياد والمناسبات وخاصة الأعياد الدينية، وأهمها أعياد القديسين ومن أمثلتها الاحتفال بعيد القديس شنودة، يوحنا الانجيلي، والقديس ميخائيل، والقديس كوزماس، والعذراء وغيرهم. وأشرف رجال الدين على هذه الاحتفالات والأعياد، وقام الأهالي بتقديم هبات للكنائس في تلك المناسبات.

أما عن الطبقات الاجتماعية التي عاشت في مدينة الإسكندرية، فيأتى على رأسها ( طبقة الارستقراطية ) أو ( كبار الاقطاعيين ) . لعبت هذه الطبقة دوراً كبيراً في المجتمع في العصر البيزنطي، وتمتع أفرادها بدرجة كبيرة من النفوذ



والسلطان، كما كان لها نظامًا اجتماعيًا خاصًا بها . ويتضح نظام حياة كبار الاقطاعيين من خلال المعلومات التي وصلتنا عن إحدى الأسر الاقطاعية الكبيرة وهي أسرة ( أبيون )<sup>(\*)</sup> وكانت تتألف من ثلاثة أجيال متعاقبة أبيون الكبير ثم ابنه فلافيوس ( أبيون الثانى ) الذى شغل منصبًا هامًا فى الفيوم (أرسينوى ) فى عام ٥٥٦م، ربما كان منصب ( الباجرك أى المحافظ ) وتوفى فى عام ٥٧٧ أو ٥٧٩م، ثم ظهر ابين الثالث فى الفترة من ( ٦١٥ - ٦٢٥م ) وهو اخر افراد هذه العائلة، وقد لعب دورا هاما وبارزا فى تاريخ الكنيسة خلال تلك الفترة حيث حاول التوفيق بين الكنيسة المونوفيزيتية والخلقونية، وقد أقامت هذه الأسرة بمدينة البهنسا وعاشت بها نحو ١٥٠ عامًا، واشتهر افرادها بأنهم من كبار الأعيان ومن أصحاب الشهرة والصيت بل ومن كبار السادة، وشاد الناس بمجدهم العريق، وكانوا ينادونهم بألقاب (أصحاب السعادة).

شغل كبار الاقطاعيين الوظائف العليا، وحظوا بالمراتب الرفيعة ومن بينها وظيفة الوالى الكبير، والوالى الاوجستال، ومتولى الخزانة الإمبراطورية ومنصب حامى المدينة، وأمير المنح والعطايا المقدسة والاستراتيجوس ومنصب القنصل (المستشار)، ومنهم من عمل كرسول للإمبراطور، وذهب إلى بلاد فارس لعقد صلح واتفق معهم مثلما حدث لابيون الاكبر فى عام ٥٠٣م إذا كان رسول الإمبراطور لحسم الخلاف بين العرب سواء كانوا إتباعًا للفرس أم

(\*) ظهرت عائلة أبيون فى عام ٤٩٧م، وكان أبيون مؤسسها مصريًا من كبار ملاك الأراضى وكان كما يصفه البعض رجلاً مصريًا نشيطًا، بارزًا بين النبلاء، ورغم أنه كان يؤمن بمذهب الطبيعة الواحدة المخالف لمذهب الإمبراطورية البيزنطية إلا أن الإمبراطور انستاسيوس خول له السلطة لتصريف شئون الإمبراطورية، كما عمل له سفيراً لدى الفرس فى عام ٥٠٣م. وعاش أبيون حتى عام ٥١٨م ويرجع له الفضل فى المركز السامى الذى تبوأته أسرته فى القرنين السادس والسابع .



العرب إتباع الروم ومنهم من لعب دورًا في مجال توحيد الكنيسة المونوفيزتية والخلقدونية، ومنهم من اشترك في بعض المجامع التي عقدت القسطنطينية لإعادة الوحدة بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية كنائب عن الإمبراطور .

وكان يخلع على أفراد كبار الاقطاعيين كذلك إلقابا شرفية مثل لقب قنصل ولقب بطريق<sup>(٥)</sup>، وذلك لما تمتعوا به من ثروة طائلة . وكان أصحاب هذه الألقاب ذوى وضع اجتماعى متميز فى المجتمع .

حاز أفراد هذه الطبقة أملاكًا شاسعة لا فى البهنسا فحسب بل فى سائر أنحاء الفيوم ( ارسينوى ) ومصر كلها، وامتلكوا قرى بأكملها، هذا إلى جانب قصورهم التى كانوا يعيشون فيها بالمدينة على نحو ما يعيش الإمراء . إذ كانت قصورًا عامرة بالخدم والحشم وزاخرة بكل إوان البزخ والترف . ومن الملاحظ أن افراد هذه الأسر سكنوا بالمدن، وليس بالريف حيث مزارعهم واقطاعاتهم، وذلك على الرغم من أنه كان لديهم منازل بالريف .

كان لتلك الأسر الإقطاعية جيوشًا خاصة بها، تتألف من الجنود المأجورين المعروفين باسم ( بقلار أى الإبتاع ) وذلك للدفاع عن ممتلكاتهم من كافة الإعداء كما كان لديهم سجونًا خاصة بهم، ويودعون بها من يروونه مخلصًا بالأمن . وعلى الرغم من أن القانون كان يحرم اتخاذ الجند الخاص المأجورين وإقامة السجون داخل الضياع الخاصة وذلك حرصًا على أن تكون السلطة

(٥) البطريرق Patrician رتبة عسكرية أنشأها قسطنطين العظيم، وجعلها وظيفة شرفية ذات نطاق محدود جدا، ثم زادت أهميتها فى الدولة البيزنطية فى القرن الخامس الميلادى . وكان البطريرق قائد عسكري يتولى قيادة عشرة آلاف رجل، ويعرف كبير البطارقة باسم الديمستق؛ وفى عهد الإمبراطور جستنيان اهتم بها وأعطاه رونقها العسكري والأدبى بعد ذلك .



السياسية والعسكرية مركزه فى يد الوالى البيزنطى، وحتى لا تشكل هذه الأسر خطراً فيما بعد على الحكم البيزنطى إلا أنهم ضربوا بالقانون عرض الحائط إذ أن العرف والتقاليد أقوى من القانون، فأضحى لسائر كبار الشخصيات بمصر حرس خاص، وجعل كل مالك لضيعة شرطه خاصة به، فكان لأسرة ( أببون ) رئيس للشرطة تولى حراسة الماشية والآلات الزراعية وتعهد بالقبض على اللصوص .

بلغت هذه الأسر الاقطاعية من السلطة والنفوذ لدرجة أن سكت بأسمها عملة خاصة، كما كان لها بريدًا خاصًا بها . ولما كانت الخيول هى المستخدمة فى البريد فى تلك الفترة، فقد انشأت الأسر الاقطاعية محطات للخيل على ممرات الطرق وذلك لتزويد الخيل بما يحتاج إليه من مؤن وعلوفات، وبما يحتاج إليه صاحب البريد من ماء وطعام .

كان لتلك الأسر الاقطاعية أيضًا جهاز إدارى وموظفين وكتبة ومحاسبين ومحصلى ضرائب، يقومون بخدمتهم ويعاونهم فى تحصيل الضرائب وفى ضبط حساباتهم - كما كانت لهم أساطيل تجارية خاصة بهم لنقل محمولاتهم عبر النيل .

تميزت هذه الأسر عن سائر طبقات المجتمع فى كونها لا تؤدى الضرائب لخزانة الولاية الواقعة فى نطاق الأراضى الزراعية الخاصة بها، بل تؤديها للخزانة العامة بالإسكندرية مباشرة، وأن دل ذلك على شئ إنما يدل على ما تمتعت به هذه الأسر من هيبة ومكانة عالية، فصلتها كانت مباشرة مع والى مصر البيزنطى .

شاركت هذه الأسر الاقطاعية فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية من ذلك أنها شجعت سباق العربات أو سباق الخيل، وأخذ أفراد هذه الأسر على عانقهم - خاصة الأثرياء منهم - انشاء الاصطبلات لتربية خيول السباق



والانفاق عليها . كذلك أقامت هذه الأسر الحمامات العامة فى مختلف أنحاء العاصمة ( الإسكندرية ) ، كذلك انشأوا المستشفيات والمصارف والكنائس والأديرة وغيرها من المنشآت التى تخدم المجتمع ، وتولوا الانفاق عليها .

يتضح مما سبق أن طبقة الارستقراطية أو كبار الاقطاعيين تمتعت بكل خصائص الدولة ، فكان لها جيش وأسطول وبريد وجهاز إدارى وموظفين . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى شارك أفراد هذه الطبقة فى الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر البيزنطى .

ومن الطبقات الأخرى التى لعبت دورًا هامًا فى الحياة الاجتماعية بمدينة الإسكندرية ( طبقة رجال الكنيسة أو رجال الدين ) وعلى رأسها بطريرك الإسكندرية الذى تمتع بثروة طائلة ، استمدها من املاكه الشاسعة ممثلة فى الأراضى والعقارات ، ومن هبات الأباطرة وسائر الناس ، ومن ضياع الكنيسة الواقعة خارج مدينة الإسكندرية ، فقد كان للبطريرك ضياع فى إقليم الفيوم .

كما كان لكنيسة الإسكندرية أسطول مؤلف من ١٣-٣٠ سفينة كبيرة ، استخدمت فى تجارة البحر المتوسط والبحر الادرياتي التى حققت للكنيسة ارباحاً وفيرة .

وكانت خزانة الكنيسة عامرة بالأموال مما أتاح الفرصة للبطريرك لأن يوزع الأموال على من يقصدونه ، ويقوم بأطعام فقراء المدينة ، بل كثرت لديه الأموال لدرجة أنه كان يقرض الحكومة البيزنطية إذ اقتضت الحاجة ذلك . ولهذا أثارت الثروات الطائلة التى تمتع بها رجال الكنيسة ، وامتلأت بها خزائنها مخاوف الأباطرة وقلقهم ، ولذلك أعطى جستنيان لنفسه الحق فى الإشراف على اختيار الموظف الموكل بالخزانة هذا فى حين أنه كان يتبع البطريرك فى واقع الأمر .



ولم تكن مكانة البطريك الروحية أقل من مكانته الدنيوية فهو سيد الكنيسة لا منازع، وأقوى شخصية بالإسكندرية ولذلك كان من الضروري أن تهتم الحكومة البيزنطية بشخصية البطريك، وكان الإمبراطور إذا اطمأن إلى شخصية البطريك يجرى الاتفاق بينهما وتستقيم الأمور، وتستقر أحوال البلاد .  
والحقيقة أنه بانتشار المسيحية في مصر اصطبغت الحياة الاجتماعية بها بصبغة مسيحية، ولعبت الكنيسة دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية سواء بالعاصمة الإسكندرية أم بمختلف قرى الريف حيث انتشرت الكنائس في شتى أنحاء القطر المصري كما انتشرت الأديرة والرهبانية في أنحاء مصر وكان لانتشارها آثار اجتماعية كبيرة على المجتمع المصري، كما سبق أن ذكرنا.

وإلى جانب طبقة الارستقراطية وكبار الاقطاعيين وظهر قوة الكنيسة وطبقة رجال الدين، عاشت بالإسكندرية (طبقة ثالثة متوسطة الحال)، تمتعت في مصر بمستوى طيب. كما شملت هذه الطبقة :

- (١) فئة الموظفين الإداريين الذين تونوا الوظائف الصغرى في الأقاليم مثل كتبة السجلات، ومسئولى المصارف والمشرفين على جمع الضرائب
- (٢) صغار الملاك (أعيان القرى) وقد تولوا مجالس القرية، وخضعوا لتعسف الإدارة البيزنطية.
- (٣) فئة التجار الذين انتظموا في شكل نقابات، والصناع والحرفيين، وكانت لهم نقابات تضمهم كذلك مما يدفعنا إلى الحديث عن نقابات طوائف الحرف.

### نقابات طوائف الحرف

لم يكن للحرف في بداية ظهورها مراكز إعداد تعلم أصولها، إنما كانت

وراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء الذين ينقلونها بدورهم إلى أحفادهم. وتظل قاصرة على أسرة أو أسر معينة تحتكر أسرارها ولا تفرط فيها. وقد تتوعت الحرف وتعددت كما اتضح من أوراق البردى فمنها : صائدى الأسماك، انحباريين، الجزارين، السفائين، الطباخين كذلك يتبع هؤلاء تجار هذه السلع مثل بائعو الأسماك، وبائعو الخبز، وبائعو الزيت، وبائعو الفاكهة وتجار الغلال وتجار الملح وغيرهم. وصناعة الأقمشة الكتانية والصوفية وتضم مجموعة كبيرة من الحرف منها : الجزازون ومهمتهم قص صوف الأغنام، والنساجون الذين يقومون بنسجه وكذلك من يقومون بغزل الكتان ونسجه وبائعوه. وصناع الفخار، البناعون، النجارون، الحلاقون، صانعو الزجاج.

### تعريف النقابة :

جماعة من الأفراد، تجمعوا بإرادتهم الحرة، لتحقيق مصلحة متبادلة ودائمة لهم في مجالات الاقتصاد والاجتماع والدين .

وأصل هذه النقابات مصرى، وتأثر بالنظم اليونانية الوافدة إلى مصر منذ أيام الإسكندر. واتخذت هذه النقابات صبغة الشرعية إذ يوقع على ميثاقها أعضائها تعبيراً عن موافقتهم إقامتها أو إنشائها فهناك قائمة لخمسة توقيعات في قانون أحدث النقابات ترجع إلى القرن الخامس الميلادى توضح أنها قامت باختيارهم الحر - تظهر موافقتهم على الالتزام بقوانينها وعلى هذا تستمد النقابات شرعيتها من مبدئين مهمين :

الأول : أن أعضاء النقابة اتفقوا بإرادتهم الحرة فيما بينهم على قواعد عامة ملزمة للجميع.

الثانى : أن هذا القانون الذى اتفقوا عليه يجرى تسجيله فى السجلات الحكومية الرسمية. لذلك يوقعوا على قانون نقابتهم فى آخره، وهذا يعنى الموافقة عليه.



ويختار لكل نقابة رئيس من بين أعضائها، ويستمر في منصبه لمدة عام، قابل للتجديد، ويفوض إليه تنفيذ النظم والقواعد المتفق على احترامها. كما يختار للنقابة كاتب في حالة واحدة وهي إذا كان رئيس النقابة لا يعرف الكتابة. ومن ألقاب رئيس النقابة (المشرف، القائد، الحاكم).

### أغراض النقابة : (مالي)

تقوم النقابة بتوفير المال لمواجهة مطالب الحكومة، ويتولى رئيس النقابة جمع الأموال من أعضائها وتحصيلها وحفظها، وعليه أن يحاكم المقصرين ويضعهم في السجن، كما أن عليه أن يسدد ما على النقابة من أموال شهرياً. ويقوم أعضاء النقابة بتقديم مبالغ مالية للمساهمة في مصاريف النقابة وهي أشبه باشتراكات منتظمة.

يتضح من ذلك أن الواجبات المالية المفروضة على أعضاء النقابة هي:

- سداد الضرائب العامة، ومواجهة طلبات الدولة شبه الإجبارية.
- سداد مصاريف النقابة نفسها وهي أشبه باشتراكات منتظمة (على الولايم الشهرية - احتفال النقابة مع الرئيس بعيد ميلاد الإمبراطور وما يقدم فيه من طعام أو شراب).
- النفقة على اجتماعات الرئيس مع أعضاء النقابة.

### الواجبات الاجتماعية :

تظهر الواجبات الاجتماعية المفروضة على أعضاء النقابات في :

- تقديم المعونات لمن يحتاجها من زملائهم في النقابة وعدم تركهم في حالة العسرة، هناك وثيقة فريدة ترجع إلى عام ٤٢٦م تنص على ضرورة التضامن والتعاون بين أعضاء النقابة جاء فيها : " إذا حدث لأى منا أن وجد نفسه مديناً

أو تحت ضغط طلبات أخرى، فيجب علينا .. الا نتركه إلا بعد أن يحصل على المساعدة وإذا تخلى عنه أحد، يخضع أو يتعرض للعقوبة التي تنص عليها الأعراف..."

- الامتناع عن انتهاك حرمة الأعضاء الآخرين، عدم اتهام عضو لعضو آخر أو تشويه سمعته، عدم التآمر ضد أحد أعضاء النقابة.

- المشاركة في المآدب العامة والاحتفالات الدينية والعائلية والجنائزات ففي حالة وفاة أى عضو من أعضاء النقابة، فعلى الجميع مشاركته في أحزانه فكان قانون النقابة يشترط عليهم حلق رؤوسهم، وإقامة جنازة على شرفه لمدة يوم واحد، ويساهم كل عضو من أعضاء النقابة بمقدار من الطعام والمال لإقامة وليمة؛ وعلى كل عضو احترام جنازة المتوفى، وعليه أن يضع على قبره اكليلاً من الزهور. لذلك لا تعجب من أن أعضاء النقابة كانوا يدعون زملاءهم في النقابة بالأخ.

- المشاركة في الاحتفال بالعيد السنوى للنقابة وكان يتم فى اليوم الأول والثانى من شهر طوبة.

أما (الطبقة الرابعة) التى عاشت بمدينة الإسكندرية فهى (طبقة العامة)، وكانت هذه الطبقة أحسن حالاً من فقراء الريف، إذ كانت تحصل على الطعام والشراب بالمجان وتشاهد الملاهى والمسارح بالمجان أيضاً.

### الحياة الاجتماعية فى الريف :

الحياة الاجتماعية بالريف دارت أساساً حول الفلاح المصرى، وقد عاش الفلاح المصرى فى العصر البيزنطى فى حالة يرثى لها، إذ وقع على عاتقه مجموعة كبيرة من الضرائب بالإضافة إلى أعمال السخرة المستمرة . واعتاد



الفلاح المصرى فى هذا العصر أن يحيا حياة النذل والاستكانة والخضوع، وذلك على عكس ما كان عليه الفلاح المصرى فى عصر البطالمة، فقد تمتع الفلاح فى العصر البطلمى بشخصية قوية ويظهر ذلك من خلال مخاطبة أحد الفلاحين لبطليموس الأول فى إحدى شكاواه والتى يقول فيها : " من انتيجونوس إلى الملك بطليموس، سلامًا . أن باترون رئيس الشرطة فى المركز الشمالى يتعسف معى " ويتضح من ذلك أن مقدم الشكوى إنما كان يخاطب الإمبراطور أو الملك كندا له، فهو يخاطبه بلا نذل أو هوان .

وعلى العكس من ذلك تمامًا نجد المخاطبات التى دارت فى العصر البيزنطى بين الفلاحين المصريين والسادة الاقطاعيين تمتلئ بأساليب الخضوع والنذل والعطف وأبرز مثال على ذلك خطاب من أحد الفلاحين الأحرار إلى سيده أبيون، ويرجع هذا الخطاب إلى القرن السادس وجاء فيه.. " إلى سيدي الخير، محب المسيح، محب الفقراء، أبيون شريف طيبة ودوقها الموقر الأفخم من "أنوب" عبدك البائس المقيم بضيعته " فاكرا Phacra التابعة لك " .

أما عن الفلاح فعلى الرغم من أنه لم يكن فى بداية الأمر ثمة قوانين فى مصر البيزنطية تربط الفلاح بالأرض. فإن أفق الفلاح لم يتجاوز حدود قريرته الضيقة، ولم يتعد تفكيره تلك الحدود وظل الأبناء يتوارثون حرفة الزراعة من الآباء فى الوقت الذى أضحت فيه حيازة الأرض وراثية. ولم يكن ارتباط الفلاح بقريرته أمراً محتملاً ودائماً. وإنما تسببت عوامل أحياناً فى انتقال الفلاحين إلى أماكن أخرى، إذ تعرضت الأرض الواقعة على حافة الصحراء للإهمال والخراب وهجرة السكان بسبب انخفاض النيل أو إهمال تطهير الترعى أو توالى رداءة المحصول. وأحياناً أخرى اجتذب النشاط الصناعى والتجارى لبعض امدن أعداداً كبيرة من سكان القرى، خاصة حين دخلت مصر فى محيط تجارة البحر المتوسط. ونمت بعض مدنها الصناعية والتجارية مثل الإسكندرية.



هذا وانقسم سكان الريف من الفلاحين إلى طبقتين هما :

١ - طبقة المزارعين الأحرار :

وهم أما ملاك لبعض الملكيات الصغيرة، وأما مستأجرون لدى ملاك متوسطى الحال، والفلاح الحر هو الذى نشأ بقريته وارتبط بأرضه وجرى تسجيله فى تعداد الدولة سواء أكان مستقلاً بنفسه أو حاصلاً على حماية جاره الأقوى. وهذا الفلاح يقوم بزراعة أرضه ويورثها لأبنائه لزراعتها أيضاً. وقد امتلأت وثائق مصر البيزنطية منذ أواخر القرن الخامس الميلادى بأخبار هذه الفئة من الفلاحين الذين اسمتهم الفلاحين القراريين. وعلى الرغم من تمتع هؤلاء بالحرية من الناحية النظرية إلا أنهم كانوا مربوطين بالأرض، ويحظر عليهم مغادرتها، حرصاً على مصلحة الدولة وحفاظاً على الإنتاج الزراعى . فحين ضاقت الدولة بفرار الفلاحين من ضريبة الرأس، أصدرت القوانين التى تحرم انتقال الفلاح من قريته وذلك حتى تضمن الدولة جمع ضرائبها، وبذلك فقد الفلاح حريته فى الحركة والانتقال وارتبط بالأرض .

٢ - طبقة أفتان الأرض أو مزارعو الضياع الكبيرة :

وتلتزم هذه الطبقة بزراعة أرض الدولة سواء أن كانت ملكاً للحكومة أو الإمبراطور بطريق السخرة، كما تقوم هذه الطبقة بخدمة أصحاب الضياع الكبيرة، وهم مربوطين بالأرض، بأماكن معينة لا يغادرونها وبلغ من شدة ارتباطهم بها، أنهم أصبحوا من مقوماتها بنسائهم وأطفالهم وماشيئهم ومتاعهم وليس بوسعهم أن يغادروها . وقد وصفهم المؤرخ بل ( بارقاء الأرض ) .

وتجدر الإشارة إلى أن العلاقة التى ربطت بين الفلاحين القراريين-الذين سعوا بمحض إرادتهم للحصول على حماية جيرانهم الأقوياء من (كبار الملاك)- وبين هؤلاء السادة الأقوياء، جرت فى إطار عقد خاص يتمثل فى إعلان الفلاح



ولاءه وخضوعه لسيدته، وتعهده بالقيام بأعباء الزراعة، وأداء ما يتقرر عليه من ضرائب، وفي مقابل ذلك يقوم السيد بتسليمه أدوات الزراعة والبذور وغير ذلك كما يقرضه أحياناً أموالاً يتعهد الفلاح بتسديدها، فإذا لم يؤد الفلاح هذه الالتزامات تعرض لتوقيع الجزاء المنصوص عليه في العقد، مع اعتباره مواطناً له كيانه وشخصيته المميزة التي أتاحت له حق التعاقد أو رهن أرضه أو تقديم ضمان يغطى تسديد ما هو مطلوب منه، ولهذا لم يرق دليل من هذا العصر على أن هذا الفلاح كان قنأً أو عبداً بالمعنى المعروف. لذلك يرى المؤرخون أن هذه العلاقة بين الفلاح وسيدته لم تكن تنقص كثيراً من شعور الفلاح بأنه عامل حر ولد حراً ونشأ حراً، ودرج على أن يكتب اسمه واسم أبيه وأمه.

وعلى هذا فإن وجود القنية والأقنان بالمعنى الدقيق في مصر البيزنطية يحتاج إلى أدلة على الرغم من نمو الملكيات الخاصة على حساب أراضي الدولة، وازدياد اتساع هذه الملكيات الخاصة بمرور الزمن، مما أدى إلى وجود ملكيات كبيرة في ذلك العصر. ويستشهد بعض المؤرخين على عدم وجود القنية في مصر البيزنطية بانخفاض الضرائب العينية انخفاضاً محسوساً مما يدل على أن الفلاح توافر لديه من الحبوب ما جعله يتصرف فيها بالبيع في السوق الحرة. كما يستدلون على ذلك بنمو المسيحية وانتشار الرهبانية والديرانية التي ناهضت كل محاولات إنزال الناس إلى رتب العبودية أو إلحاق الأذى أو الظلم بهم، لأنه كلما تعرض الفلاح لنوع من العنف أو الجور وجد في الكنيسة حامياً ونصيراً.

### وضع المرأة في العصر البيزنطي :

شاركت المرأة مشاركة فعالة في الحياة العامة، وتمتعت بحرية تامة، ونالت نساء الطبقة الأرستقراطية اهتماماً خاصاً فيذكر لنا التاريخ المصري أسماء نساء شهيرات سواء كن مسيحيات أم وثنيات لعبن دوراً هاماً في مختلف الميادين وخاصة في ميدان العلم والمعرفة، وعلى رأسهن " هيباشيا " وهي ابنة



الفيلسوف وعالم الرياضة الوثني " ثيون Theon " وكانت عالمة كابيتها فى الرياضة والفلسفة ويبدو أنها تمتعت بشهرة علمية وخلقية كبيرة، وهيات لها مكانتها وشهرتها من المكانة ما جعلها وثيقة الصلة بسادة مدينة الإسكندرية الذين أعجبهم ما اشتهرت به من الطهر والعفاف . وادت شهرتها إلى زيادة مريديها وطلابها .

وشاركت المرأة فى العصر البيزنطى فى جميع أوجه النشاط الاقتصادى والاجتماعى والمالى فهناك العديد من الروايات الخاصة بعقود بيع وشراء عقدها المرأة، كذلك امتلكت بعض النساء مساحات من الأرض ووجد بينهن فى العصر البيزنطى صغار ملاك ومزارعات ومستأجرات سواء فى أراضى الدولة أو أراضى الكنيسة أو أراضى السادة الاقطاعيين. كما أن عدداً من نساء أسرة أبيون الاقطاعية امتلكن ضياعا كبرى، بل تولين إدارة ضياع أزواجهن، واشرفن على جباية المحصول ودفع الضرائب إذ جاء فى رسالة وكيل أبيون لزوجته، "فلتعلم سيدتى أن أوامره لم نهملها ولكن نفذت..". كان التعامل يتم مباشرة بين المرأة ومستأجرى أرضها ودافعى الضرائب بدون تدخل أو وصاية.

وكثر عدد النساء اللاتى عملن كمزارعات بداية من القرن الخامس الميلادى خاصة بعد أن أصبحت الحاجة ماسة إلى أيدى عاملة نتيجة لهروب الفلاحين من الأرض لكثرة الأعباء المفروضة عليهم مما ترتب عليه أن تحولت معظم الأرض الزراعية إلى أرض بور. كذلك تضمنت بعض سجلات دافعى الضرائب أسماء عدد من النساء ممن يعملن كمزارعات، وقد تعرضت المرأة نتيجة لعملها بالزراعة لقسوة جامعى الضرائب شأنها فى ذلك شأن الرجل.

ومن المهن الأخرى التى احترفتها النساء كذلك فى مصر فى العصر البيزنطى التجارة فى الأسواق. وأبرمت المرأة - خاصة خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين - عدداً من عقود البيع والشراء، كما كان للمرأة الحق فى



التصرف فى ميراثها بالبيع والشراء بلا أى عائق، وفى حالة البيع إذ شاركت المرأة الرجل عقد البيع فلا بد من توقيعها عليه شأنها فى ذلك شأن الرجل . ففى عقد بيع منزل من عصر جستينيان باع شخص يدعى يعقوب وزوجته منزلاً بالاشتراك فوقع على عقد البيع كل منهما كمالك مستقل.

ولم يحرم على النساء الخروج فى شوارع الإسكندرية والاختلاط بالرجال، ولكن نتيجة لاسراف النساء وخاصة نساء الإسكندرية ومغالاتهم فى ملبسهن وزينتتهن، أنبرى عدد من رجال الدين فى توجيه النصح والأرشاد لهن تارة واللوم عليهن تارة أخرى حتى يقللن من تبرجهن، وعلى رأس هؤلاء ( كلمنت السكندرى ) الذى وجه نقدًا شديدًا إلى نساء الإسكندرية لـرغبتهن الشديدة فى استخدام المساحيق، وفى ارتداء الملابس والأقمشة الحريرية والثياب الموشاة بالذهب، والثياب ذات الذبول الطويلة التى تهدى من السير، وتبدو وكأنها تكنس الأرض - على حد تعبيره - وكذلك لبس الملابس القصيرة التى تكاد تستر أجسادهن . وكذلك ارتداء الأحذية التى كتب على نعالها عبارات الحب التى تثير غرائز من يقرأها من الرجال .

واشتد كلمنت فى لوم النساء لما يظهرنه من عناية بالغة واهتمام زائد بشعورهن وصباغتها واتخاذ الشعر المستعار، وحرصهن على أن يجعلن من شعورهن تراكيب هندسية بالغة التعقيد، وامعن فى المحافظة عليها . ولذلك حمل كلمنت على الحلاق حملة شعواء، إذ أنه تفنن فى عمل الضفائر المثيرة التى شغفت بها النساء، كما قام بتزين وجوههن وأزالة ما بها من شعر زائد، وما يتبع ذلك من لمس الحلاق لوجوه النساء وخدودهن . غير أن صيحات كلمنت ذهبت أدراج الرياح، فلم تسمع نساء الإسكندرية نصائحه، واستمرت فى التزين والتمتع بكل ألوان الترف والأبهة .

وعلى الرغم من تمسك نساء الإسكندرية بمظاهر الترف والأبهة، إلا أنهم

تمسكن أيضاً بالحفاظ على الأسرة وما يتبع ذلك من حقوق وواجبات ويبدو أن الديانة المسيحية هي التي أضفت هذه العادة الطيبة على المجتمع المصري . فعن طريق تعاليم الدين المسيحي، تم تحديد الواجبات التي يلتزم بها الأزواج والزوجات، كما ساعدت على وجود نوع من الترابط الأسرى والاجتماعى .

وإذا كانت سيدات المجتمع قد تمتعت بحرية تامة فى الاختلاط والمشاركة فى الحياة العامة، فإن البنات العذارى لم يتمتعن بمثل الحرية التى تمتعت بها النساء المتزوجات، فكان الخجل يسيطر على تحركاتهن، وذلك حتى يتزوجن ويشاركن فى المجتمع مشاركة فعالة .

وإذا كانت الفرصة متاحة أمام نساء العاصمة للمشاركة فى الحياة العامة، فإن الفلاحات من نساء الريف قضين أوقاتهن بين الحقل والمنزل، وشاركن أزواجهن مشاركة فعالة فى الحقول إلى جانب ما قمن به من أعمال منزلية كالطهى وإعداد الملابس وغزل الثياب الكتانية وغير ذلك .

### وضع المرأة فى الأسرة :

إذا كان القانون قد جعل الرجل صاحب السلطة العليا بمقتضى السلطة الأبوية سواء مع زوجته أو بناته إلا أن المرأة كانت تحظى باحترام كبير بين جميع الطبقات سواء بين الطبقات العليا ثم الدنيا، وإن كان الوضع قد اختلف بين المرأة فى مصر وحياتها واهتماماتها وبين المرأة الرومانية ذات الأصل اليونانى، وبين حياة نساء العواصم وحياة نساء الريف" كما سبق أن ذكرنا.

وكانت لهجة التخاطب بين الأزواج والزوجات تتسم بالاحترام فيخاطب الرجل زوجته بأبناؤه وبأخته والسيدة، ويخاطب الأبناء أمهاتهم بسيدتى الأم، كما كان الأخ يخاطب أخته بسيدتى الأخت، فقد طلب أخ من أخته أن تجمع



المال الخاص به وترسله لزوجته قالاً لها "أنا أرغب أن تعرف سيدتي الأخت..." وكانت العلاقة بين أفراد الأسرة عامة تتصف بالترابط والتعاطف.

فالمراة كانت تشرف على شئون المنزل وإدارته وتدبر أمور الأسرة ويعاونها الخدم. وكان على الرجل أن يطلع زوجته على جميع أمور المنزل ولا يخفى عنها شيئاً ولا يمنعها من الإشراف على أموره المالية ومخازن داره فهذه فى نظره مسئوليتها الخاصة، كذلك من حقها اختيار من يعاونها فى إدارة المنزل؛ كما لم يكن باستطاعة الزوج إجبار زوجته على مرافقته إذا نقل من مكان لآخر. كما كانت الأم تشرف على تعليم أبنائها وتربيتهم وتتابع تحصيلهم العلمى.

ونظراً لأن الزواج هو الرابطة الأساسية لقيام الأسرة وتحديد العلاقة بين الأم والأب والأبناء، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات تتمثل فى الميراث والوصاية وغيرها فلا بد من التعرف على شكل الزواج فى مصر فى العصر البيزنطى.

نظرت المسيحية إلى العلاقة الزوجية سر مقدس فعلاقة الرجل بالمراة كعلاقة المسيح بالكنيسة كما أنها علاقة ابدية كذلك اعتبرت القوانين الزواج كرابطة مقدسة إذ يذكر ثيودوسيوس فى قوانينه "أن الحياة كلها فى هذا الرباط، وكل الحقوق الالهية والبشرية كذلك" وذكر جستنيان فى موسوعته "الزواج هو رباط بين اثنين رجل وامراة يسيران بمقتضاه فى طريق حياة بلا انفصال"، فالزواج رضى بين طرفين ويضفى عليه صبغة الشرعية وذلك بإعلانه وبانتقال الزوجة إلى بيت الزوجية.

ويلاحظ أن الزواج بأكثر من واحدة كان مسموحاً به فى الأنظمة السابقة، ولكن المسيحية منعت تعدد الزوجات، وفى مجموعة الاوستراكا القبطية فى مصر، والتي شملت مواعظ رجال الدين للشعب المسيحى وتعود إلى الفترة

البيزنطية، ينصح الأهالي بعدم تعدد الزوجات والاقتصار على زوجة واحدة وإلا تعرضوا لحرمان الكنيسة، مما يدل على أن التعدد كان موجوداً بين بعض أفراد المجتمع المسيحي.

وكان يسبق الزواج الخطبة في حضور الأهل والأقارب ويحضر بعضهم الشهود وكانت علامة الخطبة هدايا للخطيبة وخاتم من الذهب أو الفضة. وكان فض الخطوبة معروفاً في مصر في العصر البيزنطي، وكان فض الخطبة معروفاً كذلك فهناك العديد من البرديات التي تشير إلى ذلك، وكان يتم أحياناً على يد محامى خاصة إذا بلغت الأب بعض التصرفات المشينة من الخطيب أو سوء اخلاقه وذلك خوفاً على ابنته ورغبته في أن تحيا في هدوء وسكينة.

أما عن شروط صحة الزواج فهي :

١- الحصول على موافقة الأب فإذا كان الأب في سلطان أبيه وجب الحصول على موافقة الجد، ويستثنى رضا الأب في حالات معينة كجنونه أو أسره لمدة ثلاثة أعوام.

٢- البلوغ : وقد حدده جستنيان في قوانينه بأربعة عشر عاماً للولد واثنا عشر عاماً للفتاة.

٣- عدم زواج أو مصاهرة ذوى القربى. ففي تشريعات جستنيان الخاصة بالزواج يجب عدم الزواج بين أشخاص من الأصول والفروع مثل الزواج بين الأب وأبنته، وبين الجد وحفيدته وكذلك حرم زواج الأخوة، وأن يتزوج الرجل ابنة زوجته أو زوجة أبيه، والأم وأبنها والأب وحفيدته فهذا جريمة يعاقب عليها القانون.

ومن المحرمات في الزواج كذلك زواج الأشراف بالعامية، ولكن ما لبث أن أباحه جستين ليتزوج جستنيان من ثيودورا، ويحرم أيضاً زواج الحر بالمرور، والخائنة بعشيقها.



## أنواع الزواج :

أولاً : الزواج الرسمي أو القانوني ويتم ذلك الزواج بعقد رسمي يسجل في مكتب العقود بالإسكندرية، وينص العقد على شروط معينة أهمها المهر وهو أما عقارى ولا يحق للزوج التصرف فيه وأما غير عقارى يمكن التصرف فيه كالملابس والأدوات المنزلية وغيرها، وكان الزوج يدفع ما يعادلها مادياً - أحياناً - عند الطلاق. ويذكر فى عقد الزواج حجم الممتلكات ونوعها وثمانها لسببين : تحديد الضرائب ولاعادتها عند الطلاق. وقد نصت جميع عقود الزواج الرسمي فى العصر البيزنطى على هذه الشروط. كما نصت كذلك على تعهدات من الزوج بالمحافظة على زوجته وحسن معاملتها، وامدادها بالطعام والكساء وأن يكون محباً لها، وألا يتخذ عليها زوجة، والا يسيئ لها.

ثانياً: زواج التجربة : وهو ليس زواجاً رسمياً، وقد عرف المصريون هذا النوع من الزواج غير المكتوب ومع ذلك فقد كان يتضمن المهر وحقوقاً للزوجة، ولا يرتبط بفترة زمنية معينة، وكانت الزوجة تحظى فيه بالاحترام وعادة ما يتبع بالتسجيل الرسمي.

ثالثاً : زواج المتعة : وكان يحدد بفترة معينة وهو يختلف عن الزواج الشرعى فى عدم التزام الرجل تجاه محظيته، وأولاده منها كانوا لا يدخلون تحت سلطاته، وكذلك لم يكن من حق المرأة الحصول على مهر، ولكن تغير الوضع وفقاً لمراسيم جستينيان فاعترف بشرعية الأبناء. كذلك أكد جستينيان فى مراسيمه على أنه على الرجل والمرأة أن يحددا ما بينهما إذا كان زواجاً أو معاشرة، والأبناء فى هذه الحالة يتبعون حالة الأم فيكونوا أحراراً إذا كانت حرة، ويكونوا عبيداً إذا كانت أمة.

وخلال العصر البيزنطى كان الوضع القانونى بالنسبة للأبناء إذا تزوج الرجل

بخليته يخضع المولود لهما لسلطة أبيه، وذلك لتشجيع الوالدين على تصحيح علاقتهما. ولم تقبل النساء نوات الأصل الطيب على هذا النوع من الزواج.

رابعاً : زواج العبيد : وكان فى حكم زواج المتعة، وفى ظل هذا الزواج فإن المرأة الحرة إذا تزوجت عبداً لا يعتبر عقداً قانونياً بل تفقد حريتها وتلحق بسيد العبد كجارية، ولو تزوجت الأمة حراً لا يعتبر زواجاً قانونياً هو الآخر لأن القانون يشترط الزواج بين أحرار. والمرأة المحررة تظل فى سلطان حاميتها أى سيدها السابق إذ ليس لها استقلال ذاتى، ويحق له الأثر فيها إذا لم يكن لها أبناء.

أما عن الطلاق : ففى بعض الأحيان كان من الصعب استمرار الزواج بل واستحالته لذا يسعى الزوجان للانفصال وقد حدد القانون الحالات التى يسمح فيها بالطلاق منها : عجز الزوج عن القيام بواجباته الزوجية أو عقم الزوجة، وكذلك الخيانة، وأضاف جستين أسباباً أخرى منها : ذهاب الزوجة إلى الحمام العمومى أو إلى الملعب بصحبة رجل آخر وكانت الخيانة تفقد المرأة مهرها وتذهب بها إلى الدير. وقد حاربت الكنيسة فى مصر الطلاق بكل الوسائل ويبدو أن هذا ما دفع جستين إلى إلغاء الطلاق فى بعض متجدداته. ويبدو أن ما دفع جستين إلى ذلك هو زيادة نسبة الطلاق فى القرن السادس. ولكن جستين الثانى مالبت أن أعاده ثانية لاعتراض الناس.

وكان الطلاق يوثق من موتين محليين ويكتب من نسختين عليهما توقيعات الشهود ويصبح بذلك سارى المفعول ومن حق الزوجين تسجيله فى المكتب الرسمى فى الإسكندرية. وفى بعض عقود الطلاق كان يكتب كل من الزوج والزوجة وثائق متبادلة عن تسلم كل منهما لما منحه للآخر سواء أن كان فى صورة مهر للزوجة أو هدايا للزوج. هذا فضلاً عن تحديد حقوق الأبناء ومع من يقيمون هل مع الزوج أو الزوجة حسب الاتفاق بينهما.



أما عن الميراث فقد كانت القوانين السابقة على جستنيان لا تعطى للمرأة الحق في الميراث الدائم، فسوى جستنيان في قانونه بين الذكر والأنثى في الميراث. وكان للمرأة كذلك حق كتابة وصية منذ عهد ثيودوسيوس. ويبدو أن الارث كان يتم بالتساوى بين جميع أفراد الأسرة ففي إحدى الوثائق تم تقسيم الارث بين الأم وبناتها الثلاث لكل منهم الربع، كما أن نصيب الذكر والأنثى كان متساويا تماماً ووفقاً للقانون. كما كان يحق للأب أن يرث الابنة في حالة وفاتها بدون أولاد.

كذلك تمتعت المرأة بحق الرهن و التنازل و التصرف وإذا لم تستطع السداد في حالة الرهن فإن ورثتها يتكفلوا بالسداد حتى ولو كانوا أناً.

### الحياة الثقافية في مصر في العصر البيزنطي:-

اتخذت الحياة الثقافية في مصر في العصر البيزنطي مظهراً وطابعاً جديداً نتيجة لتغير الظروف العامة في الإمبراطورية بأسرها، وهي سيادة الدين المسيحي، واتخاذه ديناً رسمياً للدولة. فمنذ أن أعلن ثيودوسيوس المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية في القرن الرابع الميلادي، بدأت المسيحية تشغل الناس، وتسيطر على النشاط الفكري والثقافي في الإمبراطورية. وكانت مصر والإسكندرية بصفة خاصة إحدى المراكز الهامة للدين الجديد لذلك لم يكن غريباً أن تساهم مصر والإسكندرية بنصيب كبير في الحركة الثقافية الدينية الجديدة. وكان محور هذه الحركة هو الكتابة في شرح الدين الجديد ألا وهو المسيحية. وتمجيد أبطاله الأول، وعندما انقسم المسيحيون فرق ومذاهب في القرن الرابع، صار أتباع كل مذهب وفرقه يكتبون ويؤلفون في الدعاية لوجهة نظرهم والدفاع عنها. مثال ذلك الصراع بين أريوس واثناسيوس.

واتسم أسلوب اثناسيوس في الكتابة اليونانية بالبساطة والوضوح مع القوة

فى التعبير، ومن أشهر الأمثلة على ذلك مجموعة كتاباته فى دحض الدعوة الأريوسية، ومن كتاباته التاريخية الهامة ما يتحدث فيه عن مواقفه الدينية وأعماله ويعتبر كتابه عن حياة القديس انطونيوس من أقدم وأهم الكتابات عن نشأة الرهبانية المسيحية فى مصر .

اشتهرت الإسكندرية بأنها حاضرة العلم والفن والأدب، إذ كانت مركزاً لحركة علمية قوية، ومقرّاً لمدرسة كبيرة للثقافة، ونواة لنشاط عقلى ضخم منذ قرون عديدة . فمذ أيام البطالمة والإسكندرية مهذاً لدراسة العلم وتحصيل المعرفة، ومنطقة جذب للعديد من العلماء الذين سعوا إليها من شتى أنحاء العالم للدرس والإطلاع، وذلك بفضل مكتبتها ومدارسها .

### المكتبات العامة والخاصة :

تأتى مكتبة الإسكندرية على رأس المكتبات العامة شرع فى بنائها بطليموس الأول، ثم جاء بعده بطليموس الثانى فيلادلفوس ليكمل ذلك الصرح العلمى العظيم وضمت المكتبة عدد كبير من الكتب، اختلف العلماء حول تقديره، ويذكر البعض أنه بلغ ما بين خمسمائة وسبعمائة ألف كتاب أو مخطوط، وكان بها كتالوجات مفهسة فى ١٢٠ لفافة. وهذا عدد ضخم بالنسبة لهذا العصر الذى لم تعرف فيه الطباعة بعد، بل كان الاعتماد الأساسى على النسخ باليدى. وقد سلك البطالمة عدة وسائل للحصول على الكتب منها ما هو مشروع ومنها ما هو غير مشروع، ومن الطرق المشروعة الشراء أو الجمع من المعابد والإهداء . كذلك كلف ملوك البطالمة البحارة المصريين والإغريق أن يجمعوا الكتب ويأتون بها إلى الإسكندرية من مختلف أسواق الكتب خاصة فى أثينا ورودىس، ومن بين المكتبات التى تم شرائها، مكتبة الفيلسوف الشهير أرسطو باثينا، حيث تم شراؤها بثمن ضخم لتوضع فى مكتبة الإسكندرية.

ومن الاساليب غير المشروعة ما قرره بطليموس الثالث من أن كل من



ينزل بالإسكندرية ومعه كتب يسلمها وتسخ، ويأخذ صاحبها النسخ . كذلك طلب بطليموس الثالث من اثينا ان ترسل له نسخ من مسرحيات كبار شعراء الإغريق مثل (يوروبيدوس) و(وانتوخولوس) و(سوفوكليس) على ان يعيدها ثانية بعد نسخها، ولكنه احتفظ بالنسخ الاصلية وارسل النسخ المنقولة، وخسر بذلك مبلغ الضمان المالى الكبير من الفضة الذى دفعه لهذه النسخ الاصلية مما يدل على أن البطالمة بذلوا تضحيات كثيرة فى سبيل اقتناء المجموعات النادرة والأصلية من الكتب لضمها إلى مكتبة الإسكندرية.

وكانت هذه الكتب تفرز وتصنف بعد جمعها بواسطة أمناء المكتبة وكانوا من العلماء .

هذا واحترقت هذه المكتبة خلال الاضطرابات التى سادت مدينة الإسكندرية أثناء وجود قيصر بمصر فى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد عام ٤٨ ق.م. وكان قد جاء إلى مصر لينضم إلى كليوباترا السابعة فى صراعها ضد أخيها بطليموس الثالث حول العرش، ولكن خصوم كليوباترا قد ناضلوا ضدها بشدة وضد حليفها يوليوس قيصر، وكادوا أن يحققوا النصر ويستولوا على السفن الموجودة بالميناء، لذلك سارع يوليوس قيصر بأشغال النيران فى هذه السفن حتى لا تقع فى أيدي أعدائه، ولكن النيران امتدت إلى الحى الملكى الذى احتوت عليه المكتبة فاحترقت، وأكلت النيران ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ كتاب من كتبها. ومع ذلك فقد أهدى القائد أنطونيوس كليوباترا مكتبة أخرى هى مكتبة برجاموس (برجامون)، التى اغتمها اثناء حروبه فى اسيا الصغرى، وكانت تضم ٢٠٠,٠٠٠ كتاب. ووضعت هذه المكتبة فى السيرابيوم، واستمرت الإسكندرية بذلك منارة للعلم والعلماء . وحدث بعد ظهور المسيحية بمصر أن حل الدمار بأجزاء من السيرابيوم أثناء الاضطرابات التى سادت مصر والإسكندرية، ثم دمر السيرابيوم - مقر الوثنية - تدميراً تاماً بعد أن

قويت شوكة المسيحية في مصر ودمر المسيحيون مكتبته وأحرقوها في القرن الخامس الميلادي على أساس أنها تراث وثني . فقد حدث أن قام البطريك ثيوفيل والرهبان في عام ٣٩١ م بمهاجمة السيرابيوم مستعينا بالجيش البيزنطي في عهد ثيودوسيوس الأول (٣٧٨-٣٩٥م) الذي جعل المسيحية ديناً رسمياً للإمبراطورية، وأمر ثيوفيل بتدمير المعبد واشعال النيران فيه، فأنت على مكتبته التي كانت تضم آلاف الكتب، مما أدى الى تدهور مركز الاسكندرية الثقافي. ويعلن سارتون في كتابه "تاريخ العلم" بأن المسيحيين كانوا أعظم أعداء المكتبة في تلك الفترة"، وأخذ تدهور المكتبة يتزايد بتزايد نفوذ الأساقفة المسيحيين في الإسكندرية فقد كره هؤلاء المكتبة بشدة "لأنها كانت في نظرهم معقل الكفر والخلاعة".

## المكتبات الخاصة

### أولاً : مكتبات الأفراد

على أن تدمير مكتبة الإسكندرية وحرقتها، لا يعنى توقف الحركة العلمية بمصر والإسكندرية، فقد توفر لدى الكثير من الأفراد والأديرة المنتشرة في سائر أنحاء الإسكندرية الكثير من أنواع الكتب المختلفة سواء كانت كتب دينية أم فلسفية أم أدبية . فقد وجدت بالإسكندرية مكتبات خاصة يملكها أفراد ومن أمثلة هذه المكتبات، مكتبة كان يملكها العالم ( كزماس ) وكانت خير مكتبة بالإسكندرية، وكان يعير من كتبها بسخاء لمن يحب أن يقرأ، وكان فقيراً جداً، فلم يكن في بيته شيء من الأثاث إلا فراشه ومنضدة في حين كانت الكتب تملأ البيت . وكان كزماس ذاته مكبا على القراءة والتصنيف، يجادل اليهود جدلاً عنيفاً ويرد على كتاباتهم. وقد استفاد من مكتبة كزماس المؤرخان حنا مسكوس (ولد حوالي ٥٤٠ هـ وقيل ٥٥٠ هـ وتوفي ٦١٩ أو ٦٣٤م) وتلميذه صفرونيوس



(٥٦٠-٦٣٨م) الذي صار بطريركاً لبيت المقدس (٦٣٤-٦٣٨م)<sup>(١)</sup>.

ومن المكتبات الخاصة كذلك بالاسكندرية مكتبة مطران (آمد) التي ذاع ذكرها في اوائل القرن السادس للميلاد، وقد استطاع هذا المطران ان يجمع قدراً كبيراً من الكتب اثناء اقامته بالاسكندرية، وبعد وفاته نقلت المكتبة الى مسقط رأسه مدينة آمد ببلاد الجزيرة الفراتية. هذا علاوة على مكتبة فلافيوس ديسقورس، الذي عاش في القرن السادس الميلادي، وله العديد من القصائد الشعرية، وقد ألف معجماً إغريقياً قبطياً مما يدل على انتشار اللغة القبطية آنذاك خاصة بين رجال الدين والطبقات الدنيا، وقد كان فلافيوس من أكثر الشعراء انتشاراً في مصر في تلك الفترة.

#### ثانياً : مكتبات الأديرة

ومن المكتبات الخاصة كذلك (مكتبات الأديرة) المنتشرة في سائر أنحاء الإسكندرية فقد وجد بكل دير طائفة من النساخ والكتاب يقومون بنسخ المخطوطات بمكتبة الدير، ومن أهم هذه المخطوطات أسفار الكتاب المقدس، وسير الآباء البطاركة وخطابات، وترجمة حياة الشهداء وأعمالهم وقوانين الكنيسة وغيرها. ولذلك استمرت الإسكندرية مقراً للعلم والمعرفة.

ووجد بالإسكندرية العديد من المدارس من بينها :

#### أولاً : مدرسة المتحف (الموسيون) :

وهي مدرسة عريقة حوت العديد من كتب العلوم والمعارف المختلفة .

(١) ولد صفرونيوس في دمشق في عام ٥٦٠م، وتوفي بالقدس عام ٦٣٨م، وكان معلماً للخطابة، وصار راهباً واصطحب معلمه يوحنا موسكوس في العديد من الرحلات لزيارة أديرة مصر وفلسطين وروما.

ويقصد بالمتحف هنا ( معهد للعلم والدراسة ) أما معناها اللغوي فهو ( معبد ربات الفنون والعلوم ) . وأنشأ بطليموس الأول هذه المدرسة، وعين فيها مشرفاً على الدراسات العلمية، واختاره من كبار رجال العلم في ذلك الوقت. وكان علماء المتحف يعيشون حياة مشتركة داخل المتحف أشبه بحياة الرهبان داخل الدير، وكانت الحكومة تتكفل بالإنفاق عليهم وعلى المدرسة كذلك، وكان يشرف على أمور هؤلاء العلماء كاهن يعينه الملك .

وكان المتحف مركزاً للبحث والدراسات العلمية، بل هو المركز الرسمي لها بالإسكندرية، وكان له تخصص دقيق وهو ( علم الحيوان ) بوجه عام ( والبحوث الطبية ) بوجه خاص ويمكن مقارنته بجامعةنا الآن إلا أنه لم يكن يمنح شهادات و لا يضم فصولاً دراسية، بل كان عبارة عن مقر لعلماء الإسكندرية وباحثيها، وملتقى للعلماء والباحثين من مختلف الأقطار يتجادلون ويتناقشون ويتحدثون . لذلك احتوت مدرسة المتحف على قاعات بحث وأماكن لإقامة الأساتذة، وكان لكل فرع من فروع العلم قاعة. والتف حول كل أستاذ منهم مجموعة من الطلبة للاستفادة من علمه، وكما سبق أن ذكرنا لم يكن الطالب يحصل على شهادة. وقد لجأ أساتذة المتحف للتدريس في العصر البيزنطي لأن المكافآت المالية لم تعد تكفيهم.

ولم يكن للدراسات الإنسانية مجال في هذه المدرسة في بداية عهدها، ولكن المشرفين على هذا المعهد تنبهوا إلى أهمية هذه الدراسات، لذلك أنشأوا مكتبة ملحقة بالمتحف خصصت للدراسات الإنسانية، ودرس بها في البداية علوم اللغة والأدب والتاريخ ثم دخلت دراسة الفلسفة بعد ذلك .

وظلت هذه المدرسة قائمة حتى نهاية القرن الرابع الميلادي، ولم تندمج في مدرسة السيرابيوم إلا بعد زمن الإمبراطور ثيودوسيوس، حيث أصبح كهنة السيرابيوم من رجال المتحف ومدرسته . على أن مدرسة المتحف وما لبث أن



تداعت وانهارت لأسباب عدة من بينها :

( أ ) أنها لم تؤد شيئاً ذا قيمة للمسيحيين أو للوثنيين حتى بعد أن أدمجت فى مدرسة السيرابيوم .

(ب) أصبح وجود مدرسة المتحف يعطل الإيمان ويثير النزاع بين الوثنيين - الذين ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بالسيرابيوم الذى اشتهر حينئذ بفلاسفته - وبين المسيحيين الذين التفوا حول الكرسى الأسقى الذى تولاه بطاركة متحمسون .

(ج) تعرضت مدرسة المتحف لمنافسة مدارس بلاد اليونان وإيطاليا وآسيا الصغرى ومدرسة القسطنطينية، تلك المدارس التى هرع إليها الشبان المسيحيون والوثنيون على السواء خاصة وأنها أصبحت مراكز رئيسة للبلاغة والفلسفة والفقه والقانون .

### ثانياً : مدرسة السيرابيوم :

ونتيجة للخلاف بين الفلاسفة المسيحيين والفلاسفة الوثنيين كان لابد من اتخاذ كل فريق منهم مدرسة تكون مقرّاً له، ولا يشاركه فيها الفريق الآخر . وذلك للتقليل من النزاعات التى تنشأ من تواجدهم فى مكان واحد، ولذلك اتخذ الفلاسفة الوثنيون السيرابيوم - الذى كان مقرّاً لمكتبة الإسكندرية ذات الطابع الوثنى، وكان السرابيوم أو معبد سيرابيس اشبه ما يكون بالقلعة مبنياً فوق هضبة يرقى اليه بمائة درجة، واستمر السيرابيوم يؤدى دوره العلمى بفضل ما أولاه السكان من تقدير، وظل باقياً حتى زمن ثيودوسيوس إذ عندما اشتد النزاع بين الوثنيين والمسيحيين أمر الإمبراطور ثيودوسيوس فى عام ٣٩١م بتدميره .

وإذا كان الوثنيون قد اتخذوا من السيرابيوم مقرّاً لهم فإن الفلاسفة

المسيحيين التقوا حول كرسى الأسقف بالإسكندرية وأصبحت البطريركية مقراً للدراسات المسيحية .

واستمرت المدرسة الوثنية تتمتع بشهرة عالمية في الفلسفة والرياضة ويبدو أن هذا كان دافعاً للكنيسة، لأن تنشأ مدرسة مسيحية قوية تستطيع مقاومة المدرسة الوثنية ومناقشتها ولتجذب المسيحية الشباب الجديد . فكثيراً ما حضر الشباب إلى الإسكندرية لدراسة العلوم الإنسانية أى الفلسفة الوثنية وآدابها، ثم تحولوا بعد ذلك إلى المسيحية، وحدث ذلك بصفة خاصة في القرنين الرابع والخامس . وأبرز مثال على ذلك القديس سيفيروس الذى جاء من أنطاكية، ودرس العلوم الوثنية فى جامعة الإسكندرية ثم ذهب إلى بيروت، حيث أعلن اعتناقه للمسيحية، ودخل أحد الأديرة راهباً، ثم أصبح أسقفاً لكنيسة أنطاكية عام ٥١٢ م .

### ثالثاً : مدرسة الإسكندرية المسيحية اللاهوتية التبشيرية :

نشأت هذه المدرسة فى الأيام الأولى للمسيحية، وهناك روايتين حول تأسيسها تذكر أحدهما - وهى رواية القديس جيروم Jerome أبو الكنيسة اللاتينية فى القرن الرابع الميلادى - أن القديس مرقس هو الذى أنشأ هذه المدرسة قبل استشهاده لنشر الثقافة المسيحية بين طلابها، وبتأسيس مرقس لهذه المدرسة "صارت الاسكندرية عقل المسيحية" على حد تعبير جيروم. فى حين يرى البعض أن هذه رواية أسطورية، وأن هذه المدرسة أنشأت على أنقاض مدرسة المتحف بالإسكندرية، ثم انقلبت إلى مدرسة لاهوتية، امتزجت فيها الفلسفة بأمر الدين .

على أية حال فإن هذه المدرسة فى أساسها كانت مدرسة لتعليم الأطفال الدين المسيحى على طريقة السؤال والجواب والمناقشة والحوار، ثم اتسع نطاقها لتشتغل بالعلوم والآداب والخطابة والقانون والفلسفة . ثم أصبحت الفلسفة أهم



العلوم التى تدرس بهذه المدرسة أسوة بالمدراس اليونانية الموجودة فى ذلك الحين، كذلك اشتغلت هذه المدرسة بعلوم أخرى كالتب والكيمياء، والطبيعة، والحساب والهندسة، والفلك والجغرافيا والموسيقى والتاريخ ومن ثم لم تقتصر الدراسة فيها على اللاهوت المسيحى، كما كانت من قبل بل اتسع برنامجها التعليمى ليشمل مختلف العلوم والفنون .

وفتحت المدرسة أبوابها أمام الجميع من مختلف الديانات والجنسيات والثقافات، وذوى المراكز الاجتماعية المختلفة، والاعمار المتفاوتة، بل كانت تضم الجنسين نساء ورجال، سادة وعبيد، وكان المعلمون والتلاميذ يمارسون حياة التمسك والصوم والصلاة إذ يذكر المؤرخ اليهودى (فيلو) "كانوا جميعاً زاهدين فى الدنيا، لا يكثرثون بشئ من حطامها، إنما كان يهتمون بالله فقط... ولم يكن بينهم فقير ولا غنى، لأن الأغنياء منهم اعطوا من أموالهم الفقراء... ولا يتناولون الطعام إلا مرة واحدة كل يوم بعد غروب الشمس... وطعامهم الخبز وشرابهم الماء لا غير". وكانت العلاقة بين الأساتذة والتلاميذ علاقة شخصية، لا تقيدتها مبان أو أماكن.

ومن أشهر علماء هذه المدرسة والذين تولوا رئاستها بنتاين - كلمنت - واوريجين - أما عن باننينوس Pantaenus فقد ولد بالاسكندرية، وهو من اصل مصرى، ويرى بعض المؤرخين انه اثينيا، لاهتمامه بالفلسفة اليونانية، فى حين يرى فريق ثالث من المؤرخين انه من صقلية لان تلميذه كلمنت لقبه "بالنحلة الصقلية"، ولكن هذا رأى لا يؤخذ به لان النحل الصقلى كانت له شهرته العالمية فى ذلك الوقت. وان هذه كانت مجرد اشارة الى "عذوبة تعليمه وما يحمله من قوت وغذاء للعقل. هناك من فسر وجود كلمة الصقلية على أنهم مجموعة من العلماء الصقليين تعرف عليهم كلمنت ورشحوا باننتين ليعلمه المسيحية الحقيقية فى الإسكندرية وعلى هذا الأساس ذهبوا إلى أن باننينوس



## صقلي الأصل.

وترجع شهرة باننينوس إلى أنه من أوائل من تولى رئاسة هذه المدرسة، ونال شهرة كبيرة حتى اعتبره المؤرخ يوسابيوس "أول رئيس لهذه المدرسة" فضلاً عن أنه قام بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة المصرية أو القبطية، وقد عاونه في هذا العمل تلميذه كلمنت وكذلك اوريجين، ومن ثم فهو واضع الأبجدية القبطية. كذلك قام باننينوس بشرح أسفار الكتاب المقدس شفويا وكتابة، حتى دعاه معاصروه "بشارح كلمة الله". وتولى باننينوس إدارة المدرسة المسيحية التبشيرية في الفترة من ( ١٨١ - ١٩٠ م ) . وقد دعاه البطريك ديمتريوس بطريك الاسكندرية للخروج الى الهند والتبشير بالمسيحية هناك .

أما عن كلمنت فهو مواطن اثيني ولد في بلاد اليونان، وفي أثينا على الأرجح خلال الفترة (١٥٠-١٥٥م) درس الفلسفة الرواقية والافلاطونية ثم طاف ببلاد اليونان وغيرها باحثاً عن العلم والمعرفة، وأخيراً قصد مدرسة الاسكندرية اللاهوتية على عهد رئيسها باننينوس ، واعتق كلمنت المسيحية على يد يه، وعمره أربعون عاماً، ثم خلفه في رئاسة المدرسة عام ١٩٠م وقيل أيضاً في عام ٢٠٠م، اعتماداً على أنه عمده في عام ١٩٠م فكيف يتولى رئاسة المدرسة اللاهوتية في نفس عام دخوله المسيحية؟

وقامت مبادئ كلمنت على أساس مزج ما اشتهرت به المسيحية الخالصة من التقوى بما انطوت عليه الثقافة اليونانية من الخير والمحبة. وترجع شهرة كلمنت إلى أنه يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم اللاهوت المسيحي، كما أنه تولى إدارة المدرسة اللاهوتية أولاً حينما قام باننينوس بزيارة إلى الهند على رأس بعثة تبشيرية، ثم أصبح مديراً لها في الفترة من ( ١٩٠ - ٢٠٢م)، ثم رحل بعد ذلك إلى فلسطين في عام ٢٠٢م فراراً من اضطهاد سبتيموس سيفيروس، في حين أن هناك رأى آخر يذكر أنه رحل في عام ٢٠٤م وأنه حضر الاضطهاد



فى مصر إذ أن كتاباته تحتوى على العديد من الإشارات عن الاضطهاد والاستشهاد.

ومن أهم مؤلفاته مجموعة من الرسائل :-

- (١) "المدخل إلى المسيحية" وتوضح موقف الثقافة اليونانية من اديانة الجديدة.
  - (٢) "حديث إلى اليونانيين" ويشير الى ما للمسيحية من جاذبية .
  - (٣) "المؤدب" المعلم أو المربي وهى فى السلوك وأساليب الحياة التى تتلائم مع المسيحية .
  - (٤) رسالة فى تفسير أنجيل مرقس بعنوان (من هو الغنى الذى سيخلص).
  - (٥) كتاب مفقود بعنوان (المناظر) وقد أشار فيه إلى علاقته ببنتاين وفسر فيه الأسفار غير المعترف بها.
- وجميع كتابات كلمنت بقيت باللغة اللاتينية أو اليونانية المعدلة، هذا وقد قام فوتيوس Photius بترجمة أعمال كلمنت إلى اللغة اليونانية.
- وكانت العلاقة بين كلمنت وتلاميذه علاقة قوية اذ يذكر باردى (Bardy) صاحب كتاب "القديس كلمنت السكندرى" ان كلمنت رفع قلوب طلابه الى الاعالى بصبره وابتسامته الدائمة .
- أما عن العلامة أوريجين فكان من تلاميذ كلمنت، وهو أحد عمالقة المفكرين المسيحيين الأول، وقد سبق أن تحدثنا عن آرائه حول طبيعة السيد المسيح منها :
- (١) أن الله هو الجوهر الأول لجميع الأشياء .
  - (٢) أن السيد المسيح ليس هو الإنسان الذى يصفه العهد الجديد بل هو العقل الذى ينظم العالم .



(٣) أن الله أعين وأيدى وأعضاء جسدية .

وقد درس أوريجين الفلسفة على يد أستاذه كلمنت، واستشهد أبوه فى اضطهاد سفيروس للمسيحيين، واضطر أوريجين للرحيل عن الإسكندرية بعد أن أغلقت المدرسة اللاهوتية أبوابها، ورحل عنها أساتذتها . وقد تأثر أوريجين بأستاذه كلمنت، وحذ حذوه فى استخدام الفلسفة اليونانية فى خدمة المسيحية. وفى حسن معاملته لطلابه، حتى قال عنه أحد تلاميذه: "كان اوريجانوس الشراة المنيرة، التى القيت فى اعماق نفوسنا فأشتعل الحب فىنا، وصار لهيبا حيب العلوم الى نفوسنا". لقد خطت علاقة اوريجانوس بطلابه حدود الدراسة، فكان يلتقى بهم فى السجن، ويرافقهم فى ساحات القضاء، وفى ساحات الاستشهاد. مما يظهر مدى الارتباط الوثيق بين الاستاذ وطلابه .

ومن أهم أعمال العلامة أوريجين قيامه بتفسير الكتاب المقدس لذلك أطلق عليه لقب ( أمير الشراح ) أو ( أمير شراح الكتاب ) كما كان أول أستاذ للنقد العلمى للتعاليم الدينية . كما اهتم بالكتاب المقدس ومقارنة نسخه وترجماته، ومن كتبه المشهورة كتاب (المبادئ) وكتاب (الصلاة). ومن مصنفاته كذلك كتاب جمع فيه ترجمات الكتاب المقدس العبرية واليونانية وذلك بعد مراجعة الترجمة اليونانية. وظل اوريجين فى رئاسة المدرسة المسيحية حتى عام ٢٣٢م وتوفى عام ٢٥٣م على اثر اضطهاد دكيوس .

وخرجت مدرسة الإسكندرية المسيحية اللاهوتية عدداً من آباء الكنيسة والديانة المسيحية مثل القديس اثناسيوس وكيرلس وغيرهم ممن وقفوا فى وجه الأباطرة البيزنطيين، وشهدوا عقد المجامع المسكونية الكبرى. ومن أشهر اساتذة هذه المدرسة (بيروس) الذى لقب بارويجانوس أو (أوريجين الجديد) لعمق علمه. وكان اساتذة هذه المدرسة مثالا يحتذى به، إذ امتاز غالبيتهم بحبهم



الشديد لحياة الزهد والرهبانية، ولم يكونوا مجرد محاضرين يلقنون الطلبة، بل كانوا يهتمون بتقديم المشورة لهم فى البحث، مع المناقشة المستمرة. فقد كان المعلم أشبه بمرشد يعين تلاميذه على التعرف على المدارس الفلسفية بانفسهم، ويختارون ما فيها من حق ويرفعون ما دون ذلك

ولعبت المدرسة اللاهوتية دورًا كبيرًا فى نشر الدين المسيحى بالبلاد المصرية، ولكن بعد مجمع خلقدونية عام ٤٥١م بدأ نجم هذه المدرسة فى الأفول، وأخذت تضعف تدريجيًا ثم ما لبثت أن أنهارت بسبب الخلافات والنزاعات بين المسيحيين والوثنيين، وما دار بينهم من جدل فضلاً عن الاضطرابات التى نشبت بينهم .

### المدارس العامة:-

هذا وظهرت عدة مدارس أخرى لم تكن تابعة للكنيسة على الرغم من خضوعها لإدارة مسيحية من قبل الإمبراطور والمدينة، وكانت الدراسة فى تلك المدارس تشمل الفلسفة والنحو والطب والنقد، وتسرب الوثنيون إلى هذه المدارس إذ لم يكن هناك ما يمنع من انضمامهم إليها أو تلقى العلم بها . واجتمع بتلك المدارس عدد كبير من الطلاب المسيحيين والوثنيين على السواء إذ لم يحدث أى اعتراض على تردد الطلبة الوثنيين على هذه المدارس العامة، ولذلك اشتدت المنافسة العلمية بين الفريقين مما أدى إلى اشتداد الحركة العلمية وازدهارها بمدينة الإسكندرية . هذا فضلاً عن المدارس التى ألحقت بالكنائس والأديرة وفيما يتعلق بمدارس الدير، كان بعضها مدارس لتعليم أفراد الشعب والبعض الآخر خاص بتعليم الرهبان أنفسهم .

ويلاحظ أن العنصر المسمى انتشر فى الدوائر العلمية فى مدينة الإسكندرية فلم يعد علماء الإسكندرية قاصرين على مواطنى الإسكندرية أو الإغريق فحسب بل أصبح هناك علماء من صعيد مصر، مثال ذلك شخصية



الفيلسوف هور أبوللو الذى كان رئيساً للمدرسة الوثنية فى الإسكندرية، فهو ينتسب إلى أسرة من صعيد مصر، وعمل والده أستاذاً فى الإسكندرية كذلك شغل أفراد آخرين من أسرته هذه المهنة .

### أهم العلوم التى درست فى مدراس الإسكندرية (الفلسفة) :

ومن أشهر فلاسفة الإسكندرية ثيون Theon وابنته هيباشيا، وكان ثيون عالماً فى الرياضة، وذاع صيت ابنته كذلك فى الرياضة والفلسفة خاصة فلسفة أفلاطون وأفلوطين (٢١٥-٢٧٠م)<sup>(\*)</sup> واشتهرت هيباشيا بالعلم إلى جانب الخلق الفاضل، كما كانت تمثل ذروة الجمال والوداعة والرقّة النسائية، مما جعلها وثيقة الصلة بسادة مدينة الإسكندرية وأهلها، ولذلك صارت تتردد على مجالس الرجال وفى المجتمعات العامة دون حرج أو خجل مما أثار عليها المسيحيين، فقد ظهر اتجاه خاصة فى عهد البطريك ثيوفيل (٣٨٥ - ٤١٢م)، وكذلك كيرلس يهدف إلى جعل الإسكندرية مدينة مسيحية الطابع والصبغة وذلك بالقضاء على أى صفة وثنية فيها، وراحت هيباشيا ضحية هذا الاتجاه، ففى أثناء سيرها فى عجلتها فى أحد شوارع الإسكندرية بعد الانتهاء من درس فى الرياضة جروها على الأرض حتى كنيسة قيصر وهناك جردوها من ثيابها ورجموها حتى ماتت ثم مزقوها أربا واحرقوها فى أحد الأفران، وذلك فى عام ٤١٥م. ويرجع سبب ما حل بها إلى تحمسها الشديد للتبشير بالوثنية فضلاً عن الصداقة التى ربطتها بالوالى البيزنطى ويدعى أورستس Orestes وكان وثنياً ومتحمساً للوثنية أيضاً.

(\*) هو فيلسوف مصرى من قلب الصعيد، ودخل فى خدمة الإمبراطور جالينوس الذى استدعاه ليؤسس مدينة افلاطون، وهو صاحب المدرسة المعروفة بالافلاطونية الجديدة، وهى تمزج بين الفلسفات القديمة كالرواقية والفيثاغورثية والتوفيق بينها وذلك من خلال كتابه المعروف باسم (التاسوعات).



وعلى الرغم من مقتل هيباشيا إلا أن الدراسات الفلسفية والرياضية  
بمدرسة الإسكندرية، لم تتوقف، بل استمرت تؤدي دورها بالكامل، وهرع  
انطلاب من سائر أنحاء الشرق لا سيما من فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى إلى  
مدينة الإسكندرية، كما وفد إليها علماء من كافة الأنحاء . ويرجع ازدهار دراسة  
الفلسفة ونشاطها في القرن السادس إلى ما قام به جستينان من إغلاق مدارس  
أثينا الوثنية، والإبقاء على مدارس الإسكندرية مما أدى إلى رحيل الكثير من  
العلماء إلى مدرسة الإسكندرية، وانتعاش الحركة العلمية بها . ويكفى أن نقرأ  
بعض رسائل سنيسيوس أسقف كنيسة قورينة (مدينة الشحات الحالية على بعد  
١٦٥ ك.م من بنغازي)، والذي يعد من أشهر الشخصيات التي تلقت العلم على  
يد الفيلسوف هيباشيا لندرك مكانة الإسكندرية، كمركز للعلم والتعليم في ذلك  
الوقت وأنها كانت لا تزال منافساً قوياً لأثينا، وجاء في واحدة من رسائل  
سنيسيوس ما يلي : « لم يبق لأثينا شيء رفيع سوى أسماء البلاد المشهورة  
فاليوم قد تلقت مصر وصانت الحكمة النافعة من هيباشيا، قديماً كانت أثينا  
موطن الحكمة، أما اليوم فتجار العسل هم مصدر فخارها » .

واشتهرت الإسكندرية في القرنين الخامس والسادس بوجود عدد كبير من  
العلماء المرموقين من أمثالهم ثيودوت الإسكندري Theodote وهو من رجال  
النحو، وأوريون Orion من رجال المعاجم، هزيكيوس Hesychios من الشراح،  
وأسطفان الفيلسوف وغيرهم .

واشتهرت مدرسة الطب أيضاً بالإسكندرية شأنها في ذلك شأن  
مدرسة الفلسفة، وشهدت الإسكندرية مجموعة من الأطباء البارعين،  
وهرع إليها الطلاب من كل صوب وحذب . ومن بين أطباء الإسكندرية  
البارزين بازيليكيوس . ومن الجدير بالذكر أن هناك من الأطباء من  
جمع بين الطب والتفقه في الدين، ومن بين هؤلاء سرجيوس وأتيكيوس .



ويتحدث القديس أوغسطين من براعة الأطباء المصريين فيذكر أن طبيباً سكندرياً كان موضع احترام في قرطاجة لأنه جراح ماهر ومدّش.

ومن بين العلوم والدراسات الأخرى التي درست بالإسكندرية إلى جانب الفلسفة والطب، الفقه في علوم الدين المسيحي، والأدب والشعر، والفلك والتنجيم، وعلم البلدان الذي كان ضرورياً للتجار والرحالة. كذلك نالت الدراسات التاريخية قدراً كبيراً من الاهتمام، ووجد بالإسكندرية عدد كبير من المؤرخين في العصر البيزنطي ومنهم على سبيل المثال يوحنا النقيوسي.

هذا وقد لعبت الكنيسة المسيحية والأديرة دوراً هاماً وكبيراً في نشاط الحركة العلمية إذ امتلأت الكنائس والأديرة بالكتب والمكتبات، وأثرت المسيحية في مفاهيم عامة الشعب وتفكيرهم، وأدت إلى ظهور نوع جديد من الأدب الديني، وهو الأدب القبطي الذي كتب باللغة القبطية تعبيراً عن رفض الشعب لكل ما هو يوناني. وقد تناول هذا الأدب بطبيعة الحال موضوعات انجيلية ولاهوتية، ولكنه لا يرقى إلى الأدب اليوناني ومن أهم ما كتب في العصر البيزنطي كتابات يوسيبوس القيصرى، مؤرخ قسطنطين العظيم، وأسقف قيصرية بآسيا الصغرى، وتاريخ اثناسيوس، وكيرلس السكندري. كذلك هناك أدب العظات الذي اتخذ شكل مواظ تتعلق بالأمر الديني فيما يعرف باسم "أدب الحكمة".

هذا فضلاً عن أن الأدب القبطي حفل بقصص القديسين أو شرح الأناجيل أو برديات شهداء، كتب عدد منها بأسلوب ركيك، وخاصة في الفترة الأخيرة كتبها عدد من رجال الدين، وكان الغرض منها العظة والحث على الفضائل أكثر من أى شئ آخر.



## اللغة والأدب فى مصر فى العصر البيزنطى

### أولاً اللغة :

استخدمت اللغة المصرية القديمة "الديموطيقية" كلغة تخاطب وكتابة فى مصر منذ عصر الأسرة الخامسة والعشرين أى منذ حوالى سنة ٧٠٠ ق.م. حتى أواخر عصر الرومان ربما إلى سنة ٤٧٠م، لأن آخر نص كتب بالديموطيقية إنما يرجع إلى سنة ٤٧٠م، أى أن الديموطيقية ظلت تستخدم كلغة تخاطب وكتابة طوال العصرين البطلمى والرومانى فى مصر رغم انتشار اللغة اليونانية منذ بداية عهد البطالمة، وهى التى أصبحت اللغة الرسمية للبلاد فى العصرين البطلمى والرومانى.

وبمرور الوقت دخلت إلى اللغة الديموطيقية المكتوبة بالحروف اليونانية كلمات وتعبيرات جديدة من اليونانية، خاصة بعد ظهور المسيحية وترجمة الكتاب المقدس إلى هذه اللغة الجديدة، فتطورت اللغة الديموطيقية، وخرج منها ما عرف باللهجة القبطية، وأخذت هذه اللغة الجديدة، التى اعتبرت لغة دراجة من الديموطيقية تحل رويداً رويداً محل اللغة الديموطيقية وتستخدم فى التخاطب وفى الكتابة، أى أن المصريين حينما أحسوا بأهميتهم وحسهم القومى ابتكروا كتابة جديدة للتعبير عن ذاتيتهم واعتزازهم بروحهم القومية، لأن أغلبية المصريين كانوا لا يعرفون اليونانية ولا يميلون إلى استخدامها، ويفضلون عليها اللغة المصرية التى أصبحت فى صورتها الجديدة تعرف بالقبطية، والتى ظلت لفترة طويلة لغة تخاطب وكتابة فى مصر البيزنطية.

معنى ذلك أن القبطية هى اللغة المصرية القديمة فى صورتها الأخيرة أو المرحلة الأخيرة من مراحل تطور اللغة المصرية القديمة، ثم جرى وضع أبجدية لهذه اللغة الجديدة أى القبطية حافظ المصريون من خلالها على سبعة حروف من الخط الديموطيقى تعبر عن أصوات ليس لها مقابل فى اللغة

اليونانية، وأكملوا الأبجدية بالحروف اليونانية، وذلك لرفع القبطية إلى مصاف اللغات الأدبية، حتى تصبح أداة تعبير أدبي وتستطيع أن تنهض به. ولهذا فقد أخذت القبطية تنهض بأدائها منذ أواسط القرن الثالث الميلادي خاصة بعد انتشار المسيحية، واستخدام القبطية في التبشير بهذه الديانة الجديدة، وترجمة الإنجيل منذ زمن مبكر إلى هذه اللغة، ثم جرى التأليف بالقبطية لاسيما في الكتابات الدينية وتراجم حياة القديسين.

وبعبارة أخرى قام المصريون بتدوين لغتهم القبطية بحروف يونانية مع الحفاظ على بعض الحروف الديموطيقية، التي لا نظير لها في اليونانية، وكتبوا بهذه اللغة نصوصاً قبطية لازال بعضها محفوظاً في متحفى باريس ولندن، لغتها مصرية وحروفها يونانية وبها بعض الحروف الديموطيقية. ولاشك أن انتشار المسيحية في مصر انتشاراً حثيثاً، مع ازدياد التصادم مع السلطات الحاكمة الأجنبية في مصر، وشعور المصريين بأهميتهم وذاتهم القومية، قد جعلهم أكثر إصراراً على استخدام لغتهم القومية، خاصة في التبشير بهذه العقيدة الجديدة، لتبلغ إلى سائر الناس وترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة القومية لتحقيق هذه الغاية. فإذا أضفنا إلى ذلك اضطرار رجال الدين لاستخدام القبطية في شرح العقيدة وتفسير مفاهيمها للغالبية العظمى من المصريين، الذين كانوا يجهلون اللغة اليونانية أو يكرهونها، فضلاً عن جهل بعض هؤلاء الأساقفة أنفسهم باللغة اليونانية، لذا أصبح لزاماً أن يجرى التأليف والكتابة بالقبطية خاصة في الكتابة الدينية من أجل صالح المصريين.

ونظراً لانتشار هذه اللغة الجديدة في مناطق متسعة وتوالي العصور عليها، فقد ظهرت فيها لهجات متعددة ومختلفة سادت في مصر العليا وفي مصر السفلى متشعبة عن اللغة الأم، فعرفت لهجة مصر السفلى باللهجة البحرية نسبة إلى البحر، أي لهجات الأراضى المجاورة للبحر أو ربما



المنسوبة إلى إقليم البحيرة، وكانت أهم لهجات اللغة القبطية، لأنها كانت لهجة مدينة الإسكندرية من ناحية، ولأنها وصلت إلى درجة اللغة الأدبية من ناحية أخرى، بينما عرفت مصر العليا عدة لهجات منها الصعيدية والفيومية والاخميمية، ويرجع سبب ذلك إلى أن اللغة المصرية القديمة التي ارتكزت عليها القبطية كانت تتميز ببعض الاختلافات في جهات متعددة من مصر القديمة، أصبحت أساساً لما ظهر في القبطية من لهجات متعددة.

وفي نفس الوقت أخذت القبطية بلهجاتها المتعددة تتباعد شيئاً فشيئاً عن اللغة المصرية القديمة منذ أن بدأت كتابتها بالحروف اليونانية، لاسيما وقد دخل عليها مفردات وتعبيرات يونانية من ناحية، وجرى كتاباتها بالحروف الصامتة والمتحركة من ناحية أخرى، فتباعدت رويداً رويداً عن اللغة المصرية القديمة والخط القديم، الذي كان يكتب بالحروف الصامتة فقط، وبدأت تزخر بكلمات جديدة لا وجود لها في اللغة المصرية القديمة وتعبيرات لم تكن معروفة في هذه اللغة من قبل.

وعاشت القبطية في مصر فترة طويلة حتى بعد أن جرى فتح مصر على أيدي العرب المسلمين إلى جانب اللغة اليونانية القائمة في مصر فعلاً واللغة العربية، التي بدأت تتقدم على ما عداها منذ ذلك الفتح، إذ كانت القبطية هي لغة التخاطب بين عامة الناس في مصر، بينما كانت اللغة اليونانية هي لغة الكتابة، ولهذا اضطرت اللغة العربية الجديدة أن تعيش إلى جانب هاتين اللغتين لفترة، حتى أسهمت بعض العوامل في إعطاء العربية تفوقاً على ما عداها، أهمها انتشار الإسلام انتشاراً واسعاً بين المصريين، واستخدام العربية في إقامة الشعائر الدينية وقراءة القرآن الكريم، والتعامل مع الحكام العرب المسلمين، فضلاً عن تعريب الدواوين، الذي جرى في عهد الدولة الأموية وعلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي هيا الفرصة للعربية لتصبح لغة الكتابة



والدواوين، وتلح محل اليونانية في مصر في هذه الناحية.

وبعبارة أخرى أخذت القبطية تتكلم شيئاً فشيئاً في مصر بعد الفتح العربى مع انتشار الإسلام انتشاراً حثيثاً بين المصريين، وبدأت تضعف كثيراً وتتلاشى حتى بين الأقباط أنفسهم، ومن لم يتحول منهم إلى الإسلام، فلم ينته القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى)، إلا وكانت اللغة العربية قد أصبحت هى السائدة بين أهالى مصر، لتصبح كل من القبطية واليونانية هى لغة الأقليات، ولتتفوق العربية على هاتين اللغتين وتسود فى كل أنحاء مصر فى القرون الأولى التى تلت فتح مصر على أيدي المسلمين، وبدل ذلك على مدى اختلاط العرب بالأقباط، كما يدل على تأثر الأقباط بالعرب تأثراً كبيراً، وكان هذا التأثر أسرع فى الوجه البحرى منه فى الوجه القبلى. إذ ظلت القبطية معروفة فى بعض جهات مصر العليا عدة قرون أخرى، وظل بعض الناس يتخاطبون بها فترة أخرى فى جهات مختلفة من صعيد مصر.

والدليل على ذلك ما أشار إليه المؤرخ الكبير "المقريزى" فى القرن الخامس عشر الميلادى فى حديثه عن أحد الأديرة يقول: "والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى، وهو أصل القبطية، وبعدها اللغة القبطية البحرية" فقد ظل رهبان الأديرة وبعض رجال الدين يتمسكون بالقبطية فترة أخرى من الزمن، ويضيف المقريزى: "ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا القبطية الصعيدية"، وأيضاً ما أشار إليه ماسبيرو إذ يقول: "ولكن من المؤكد أن سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون بالقبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر".

والواقع أن القبطية انكشيت كثيراً، ثم اقتصرت على كونها لغة الكنيسة وبعض رجال الدين، واستخدمت فى الصلوات وقراءة الكتب المقدسة، كما اقتصرت معرفتها على بعض الأفراد من الأقباط فى الأديرة والمدن عن طريق



هذه الصلوات، فضلاً عن المهتمين بدراسة هذه اللغة والمعنيين بها من العلماء والدارسين في الشرق وفي الغرب على حد سواء، وكان لها أثر في بعض اللغات التي تسربت إليها كلمات من القبطية ومنها اللغة العربية ذاتها التي انسابت إليها كثير من الكلمات القبطية ومن اللغة المصرية القديمة أيضاً لازالت تستخدم في العربية حتى يومنا هذا، أورد الكتاب والمؤرخون بعضها أو نماذج منها مركزة في الأسماء والأفعال وبعض التعبيرات مثال ذلك :

أردب - تنده - حلق - رفاق - كعك - قلة - ماجور - ريم - كحلة - برسيم - بلح - بصارة - بقوطى - سمان - شونة - شوش - شوربة - شبورة - شوطة - شرش - نونو - ننوس - نبوت - تاتا (أمشى) - أمبو (ماء) - بيبية (برغوث) - لقمة - لبشة - خن .

ومنها أيضاً الأفعال مثل : فرفر - نكت - نط - هوش - هلوس - دمس .

وبعض التعبيرات أيضاً مثل : ورور (للفجل) - بح (انتهى أو خلص) - كانى مانى (سمن وعسل) .

هذا فضلاً عما زخرت به البرديات العربية من كلمات قبطية، وما حفلت به النصوص التي كتبت في تلك الفترة، من كلمات ومصطلحات وتعبيرات قبطية أو مصرية قديمة، أى أن تأثير القبطية في العربية لم يكن قاصراً على لغة الحديث والتخاطب، وإنما تعدى ذلك إلى اللغة المكتوبة التي ضمت كلمات وألفاظ قبطية حفظتها البرديات التي ترجع إلى تلك الفترة فضلاً عما دخل العربية من الفاظ وكلمات يونانية ولايتينية، دخلت إليها عن طريق القبطية ومعظمها من ألفاظ الإدارة، بالإضافة إلى أسماء الشهور القبطية في البرديات العربية بطريقة نطقها القديم، كما عرفه المصريون القدماء، والتي لازال الفلاح يعرفها ويحفظها حتى الآن لارتباطها بالمواسم والفصول الزراعية.



## ثانياً : الأدب القبطى :

واكب ظهور الادب القبطى ظهور الفن الوطنى فى مصر البيزنطية، وزاد نموه كثيراً بعد أحداث مجمع خلقدونية ٤٥١م، وتعصب مصر لمذهبها المونوفيزيى، واستخدام القبطية بدلاً من اليونانية خاصة فى الكنيسة، على الرغم من أن معظم المصريين - باستثناء أهل الإسكندرية - لم يكونوا شغوفين كثيراً بالادب، لأن معظم كتاباتهم كانت كتابات دينية وتراجم لحياة القديسين والرجال الاتقياء الصالحين، إلا أننا لم نعدم وجود كتابات أدبية، وقصائد شعرية وصل إلينا منها مختارات ونماذج لهذا الأدب القبطى، منها : قصص مشاهير الزهاد والرهبان، وسير الشهداء، وقصص الرجال الصالحين، وكلها نماذج لأدب شعبى حافل بالمعجزات الخيالية والكرامات الخارقة، وبكل ما يستهوى خيال القراء المصريين.

ويقرر الدارسون لهذه الآداب القبطية أنها لم تكن جيدة، ولم ترتفع إلى مصاف الآداب التى شهدتها مصر فى عصور أخرى، على الرغم من وفرتها وغزارة إنتاجها، ومع ذلك كان لها أهمية خاصة، لما يمكن أن يستخلص منها من أفكار مصر المسيحية، واتجاه الفكر المسيحى فى ذلك العصر، فضلاً عما يمكن أن يستنتج منها من نتائج تتعلق بحياة المصريين إذ ذاك، لأنها تعكس صوراً من تلك الحياة فى مصر البيزنطية.

وأبرز تلك النتائج ما حدث من تقلص وانحسار المؤثرات الهلينية وظهور الأمة المصرية واضطراد تقدمها فى العصر البيزنطى، فقد أظهرت تلك الآداب أن العنصر الوطنى لم يكف عن إظهار كراهيته للهلينية، وإعلان معارضته للسيادة البيزنطية، وزادت كراهيته لهذه السيادة بعد اعتناقه المسيحية على المذهب المونوفيزيى المخالف لمذهب بيزنطة، مما عرض الشعب المصرى لنقمة البيزنطيين واضطهادهم، الأمر الذى جعلهم ينظرون للغزو الفارسى الذى



حدث على عهد الإمبراطور هرقل، ثم الفتح العربي لمصر على أنه تحرير لهم من ظلم الإمبراطورية البيزنطية واستبدادها.

ومن تلك النتائج أيضاً، أنه كان للمسيحية اثر عميق في حياة المصريين في ذلك العصر، وأهمية كبيرة في تطور تاريخ مصر البيزنطية، لما بثته المسيحية في نفوس المصريين من حماسة وثقة، جعلتهم يلفظون الهالينية ويقاومون كل ما هو يوناني بيزنطي، ولما بذلته المسيحية من تشجيع لإثارة الروح القومية في مصر بالصورة التي عكستها تلك النماذج من الآداب القبطية.

وثمة نتيجة أخرى أمكن استخلاصها من تلك النماذج الأدبية الوفيرة المنتمية إلى العصر البيزنطي في مصر. لا تقل أهمية عن النتائج المشار إليها والمستخلصة من هذه الآداب القبطية. ذلك أنه صلب ظهور القومية المصرية، وانبعاث الروح الجديدة في مصر تدهور اقتصادي وقصور فكري في مجالات أخرى متعددة، إذ اضمحلت أحوال البلاد الاقتصادية، وعانت مشكلات في هذه الناحية انعكست على نماذج الأدب في ذلك العصر، وظهرت واضحة في تلك الصور الأدبية، فضلاً عن ضعف مستوى الفن وتداعي الثقافة بصفة عامة في مصر البيزنطية - باستثناء الإسكندرية - ووضح ذلك وعكسته تلك النماذج والصور الأدبية المنتمية إلى تلك الفترة، ولم يكن هذا التدهور الفكري قاصراً على المصريين، بل شاركهم فيه البيزنطيون، كما أشار إلى ذلك آخر الشعراء اليونانيين في مصر ويدعى ديوسقورس Dioscore.

وقد لاحظ المؤرخون أن ظهور تلك الروح القومية في مصر البيزنطية لم يصاحبه ظهور أحد من الأدباء أو الشعراء، يستطيع أن يصور تلك الروح وذلك الشعور الوطني، ويستطيع أيضاً أن يتولى الدفاع عن قضايا الأمة تجاه الصلف البيزنطي وتحكم الإمبراطورية واستبدادها، وذلك عن طريق الأدب: نشره وشعره، وهو الذي يلهب الحماس وينكي روح المقاومة ضد الحكم الأجنبي،



على الرغم من أن مقاومة المصريين وكرهيتهم لذلك الحكم كان لا بد وأن تؤدي إلى زوال هذه السيادة البيزنطية.

وإذا استعرضنا بعض النماذج الأدبية المؤلفة بالنثر في مصر البيزنطية، وجدنا منها الكثير ومن هذه النماذج ترجمة الكتاب المقدس، وهى بالدرجة الأولى من آداب اللغة القبطية وقد ترجمت عن اليونانية؛ ربما فى القرن الثانى الميلادى، واعتبارها الدراسات من أدق الترجمات، نظراً لإمام الذين تولوا القيام بها باللغتين اليونانية والقبطية إماماً تاماً، ولم يحل القرن الرابع والقرن الخامس الميلاديين، إلا وكان الكتاب المقدس كله مترجماً إلى بعض اللهجات القبطية الشمالية والجنوبية، بسبب ما أظهره المترجمون من حماسة دينية بالغة.

ومن هذه النماذج الأدبية أيضاً، أقوال المنتسكين ومعلمى الرهبانية وأقوال آباء الكنيسة المسيحيين، وتدور هذه النماذج حول التنسك والزهد، وتبحث عليه وتدعو إلى التجرد من الماديات وترويض النفس على الفضيلة، والطهر والنقاء. ومن أمثلتها الرسائل العشرون التى أرسلها القديس انطونيوس إلى تلاميذه، وكذلك الأنظمة الديرية التى وضعها القديس باخوم لتنظيم حياة الرهبان، ومنها أيضاً المواعظ والخطب الدينية التى كان تلقى فى أيام الأحاد أو الأعياد أو فى بعض المناسبات الدينية الأخرى، ومن أشهرها خطب الأنبا شنودة الديرية أثناء كفاحه ضد الوثنية وخلال نشره لتعاليم المسيحية.

ومنها أيضاً سير القديسين والأنقياء الصالحين، وهى كثيرة جداً تتحدث عن جهاد من استشهد منهم فى سبيل العقيدة، وتصف حياة الرهبان العظام والزهاد وبعض البطارقة ورجال الدين، ولم تكن مجرد تاريخ مسرود، وإنما وضعت فى أسلوب أدبى مميز بالغ الأثر، لحث الناس على السير فى الحياة الفضلة، والافتداء بحياة أولئك الصالحين من الشهداء والرهبان ورجال الدين المخلصين ومن أشهرها سيرة حياة الأنبا شنودة التى كتبها تلميذه (وبصا).



ثم هناك أيضاً القصص، ومعظمه قصص ديني ولكنه شمل أيضاً القصص الوطني، وتميز القصص الديني بخصب الخيال وحسن التصور، ومن أمثله قصة ملكة سبأ ومقابلتها للنبي سليمان الحكيم، بينما اتسم القصص الوطني بصدق المشاعر القومية وبأنه كان وسيلة نفس به المصريون عما في أنفسهم من مشاعر ظلت مكبوتة فترة طويلة، تحت ضغط المستعمر البيزنطي، ومن أمثله رواية الإسكندر الأكبر التي عكست الروح القومية والحس الوطني المصري، ووجدت لها ترجمة باللهجة القبطية الجنوبية محفوظة في الدير الأبيض، وكذلك من أمثله رواية قمبيز وغزو مصر التي عبرت عن اتجاهات أدبية خاصة ونوازع قومية، أعطت صورة واضحة عن هذا النوع من القصص في مصر البيزنطية.

ومن هذه النماذج أيضاً ذلك الأدب الذي اتصف بالإصلاح الاجتماعي وعكس روح المصلحين الاجتماعيين. مثل خطب الأنبا شنودة التي أنكر فيها البدع والسحر والشعوذة وانتشار الدجل واستخدامه في العلاج، والموالد وما يحدث فيها من فوضى وتسيب، وبناء الهياكل على رفاة الشهداء، وغير ذلك من السلوك المرفوض، ومنها أيضاً الآداب الكنيسة وطقوس العبادة، فضلاً عن نصوص سرد التاريخ ومواد القانون وشرح القوانين.

هذا عن الأعمال الأدبية المؤلفة بالنثر، أما عن المنظومات الشعرية، فلم يصل إلينا شعر من ذلك العصر يتناول الأغراض الدنيوية إلا القليل، وما وصل من ذلك الشعر المنتمي إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين غلبت على طابعه الروح الدينية وعلى اتجاهات المصريين في قرص هذا النوع من الشعر، فلم يولوا الأغراض الدنيوية كبير اهتمام، إذ مدحوا العذراء مريم والملائكة والأنبياء والقديسين والشهداء، ومجدوا بالنظم هذه النماذج التي تحفل في نفوسهم مكانة سامية، وعلى الرغم من هذا الاتجاه الديني في الشعر فإن ما عثر عليه



من مقطوعات شعرية فى الأديرة والكنائس، دلت على مواهب كثيرة فى قرص الشعر فى تلك الآداب القبطية، ولا زالت نماذج كبيرة من هذه المنظومات الشعرية محفوظة فى المكتبة الأهلية ببائرس ومكتبة المتحف البريطانى.

كما خلف لنا ذلك العصر القصص الشعرية، التى نظمها المصريون فى قصائد طويلة، كقصة راهب رفض مقابلة أمه وفاء لنذر قطعه على نفسه ألا يرى امرأة قط، وهى قصيدة طويلة نظمت فى شكل حوار يمس ناحية حساسة فى المشاعر الإنسانية ويصور براعة الشاعر وموهبته فى إدارة هذا الحوار بما فيه من قوة التأثير والقدرة الفائقة فى التمثيل، ويعطى صورة دقيقة لهذا النوع من المنظومات والقصص الشعرية.

ثم هناك أيضاً الأشعار الكنسية التى تعبر عن موضوعات اخذت من المزامير أو الإنجيل وجرت على شكل تسبيح فى بعض الأحيان، إذ نظموا لكل يوم تسبيحة خاصة جرى تلحينها بلحن مميز وقراءتها بصورة غنائية خاصة، وسجلت فى بعض الكتب لتعطى صورة واضحة عن هذا النوع من الشعر الذى صيغ فى قالب مسيحي وطبع بطابع ديني.

وبجانب كل ذلك وصلت إلينا نماذج من الآداب الشعبية المنتمية إلى هذه الفترة، وإن كانت متأثرة أيضاً بموروثات مصر من عصورها الغابرة، لاسيما الآداب الشعبية الخاصة بالمناسبات الجنائزية. وندب الميت وتعيد مآثره ومزاياه، والتى جرى نظمها نظماً خاصاً يناسب المفاهيم والأنواع الشعبية، وسجلوه فى أحيان أخرى ونقشوه على الرخام كشواهد القبور، وعثر على كثير من منظومات الندب القبطية التى نظمت فى قصائد تهدف إلى تعديد محاسن الميت وندبه وتصور الهلع الذى أحدثه فقده، كذلك المنظومة التى تقول: "أيتها النساء يا كافة من أنجبين أبناء تجمعن وأبكين معي" وكانت هذه المنظومات الشعبية محل اهتمام الدارسين لنماذج الأدب باعتبارها أدباً شعبياً يعبر عن



تراث وموروث قومي.

وعلى هذا فأداب مصر البيزنطية تركزت في كتابات أنطونيوس وباخوم ومواعظ شنودة الذين لم يعرفوا إلا القبطية، والذين لم يكتبوا إلا بالقبطية، رغم معرفة بعضهم باليونانية. وتركز هذا الأدب المصري في الأديرة وخاصة أديرة وادى النطرون باللهجة البحيرية أو الشمالية، وفي الدير الأبيض والأديرة الباخومية بالصعيد باللهجة الجنوبية أو الصعيدية، وهكذا تحولت أديرة الرهبان إلى معاقل للأدب القبطي ومراكز لنشر هذا الأدب المصري الصميم، وأمام هذه التقدم الأدبي أخذت اليونانية تتقهقر وتراجع بمقدار النمو المطرد الذي انتشرت به المسيحية بين المصريين، وتعصبهم لمذهبهم المونوفيزيتي وبعُدول الناس عن استخدام اللغة اليونانية وتحولهم إلى القبطية كلغة أدب.

### الفن القبطي في العصر البيزنطي :-

شهر بعد مجمع خلقدونية ٤٥١م فن جديد في مصر البيزنطية له شخصيته المستقلة عن الفن البيزنطي، فإذا كان الفن القبطي قد تأثر لفترة زمنية وجيزة بالفن البيزنطي إلا أنه سرعان ما تخلص عن وصاية الفن البيزنطي عليه. فلم يعد المصريون يرضون عن الفن البيزنطي، الذي تأثروا به لفترة محدودة، وكان من الضروري أن ينشئوا لهم مدرسة فنية جديدة، خاصة بهم تشبع ميولهم وتتناسب مع عقيدتهم، ومن هنا ظهر الفن القبطي المصري، الذي يختلف عن الفنون السابقة عليه. أما عن خصائص هذا الفن فهي :-

### أولاً:- الفن القبطي المصري فن شعبي:-

يعد الفن القبطي المصري، الفن الأول من نوعه في الشرق، الذي تميز بصفة الشعبية، فهو لم يخضع لتوجيه الحاكم أو لاشرافه أو لسيطرته، ولم يقيم تحت نفوذه بل قام على اكتاف الشعب، فقد كانت الفنون السابقة عليه تنشأ في

كنف الحكام ورجال البلاط، لتكون تحت رعايتهم، وتكتسب توجيهاتهم، ويقومون بالتالى بالانفاق عليها، ولقاء ذلك كان الحاكم يختار الفنان ويأمره بتنفيذ ما يريد.

هذا فى حين أن الفن القبطى المصرى فى العصر البيزنطى، كان يمول من جانب الشعب، الذى ينفق عليه بلا ادنى مساهمة أو اشراف من الحاكم، وليس ادل على ذلك من أنه صور مناظر الحياة اليومية ومنها: "منظر لفلاح يجمع عناقيد العنب". كما يتضح من الافاريز الحجرية فى المتحف القبطى، والمسارج المعدنية، التى شكلها الفنان على هيئة طيور أو حيوانات، كذلك الادوات المنزلية والطبية وغيرها، التى تعبر عن أن الفن القبطى نابع من البيئة، على عكس الفن الرومانى مثلا الذى كان يهتم بتصوير مناظر الحروب والانتصارات وتمائيل الاباطرة والاحكام .

### ثانيا: - الفن القبطى فن دينى :-

نشأ الفن القبطى فى صعيد مصر حيث الدير الابيض على مقربة من سوهاج ودير الانبا سمعان فى اسوان، ثم نشأ فى كنائس مصر القديمة . هذا الى جانب ان الفن القبطى يعبر عن مناظر دينية مستوحاة من الكتاب المقدس، كذلك يظهر فى الايقونات أى الصور المقدسة، التى تصور السيد المسيح والعذراء مريم والقديسين والشهداء، كذلك يظهر فى المنسوجات ممثلة فى الملابس الدينية، التى يرتديها رجال الدين وقت تأدية الشعائر الدينية . وايضا فى الاخشاب حيث نجد الفنان المصرى القبطى يجسم موضوعا باكملة من حياة السيد المسيح وخير مثال على ذلك لوحة دخول السيد المسيح اورشليم، ويتضح كذلك فى العتبة العليا لباب الكنيسة المعلقة وهى موجودة الان بالمتحف القبطى .

كذلك لم ينس الفنان القبطى المصرى فى العصر البيزنطى أن يصور القصص الدينية والموضوعات المستوحاة من الكتاب المقدس، ونجد على صخرة واحدة ثلاثة عشر منظرا، تمثل حياة السيد المسيح، هذا فضلا عن الزخارف



الكتابية بالحروف القبطية في التحف المعدنية مثل أغلفة الاناجيل، التي شملت بعض الآيات من الكتاب المقدس .

### ثالثاً:- الفن القبطي المصري فن رمزي :-

تعد الرمزية من أهم خصائص الفن القبطي، وترجع نشأتها إلى الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي شهدتها مصر في مرحلة ما قبل انتشار المسيحية في منتصف القرن الأول الميلادي. فلم يكن الدين المسيحي يهدف بأى حال من الأحوال إلى ابتداع رموز للتعبير عنه، وإنما نشأت رموز هذا الفن بشكل عفوى نابع من الثقافة الشعبية المصرية آنذاك. وعلى الرغم من أن الفن القبطي لم تكتمل ملامحه ليصير طوراً فنياً له خصائص مميزة إلا في القرن الرابع، إلا أن شيوع الرمزية في هذا الفن بدأ منذ القرن الثاني الميلادي ليستمر كملح رئيسي للفن القبطي بشكل عام، فقد استخلص المصريون من الموروث الشعبي الديني والأسطوري - خاصة المتعلق بالطقوس الجنائزية - رموزاً تعبر عن مفاهيم العقيدة المسيحية وبخاصة مفاهيم الخلاص والتطلع إلى الملكوت.

وهناك أسباب ساهمت في شيوع استخدام الرموز بين العامة تتلخص في استخدام هذه الرموز كعلامة سرية فيما بين المؤمنين خلال عصور الاضطهاد الروماني الذي عانى منه المسيحيون الأول، كما أن هذه الرموز كانت الوسيلة الأكثر مثالية لتعليم وشرح حقائق الكتاب المقدس بشكل أكثر تجسيدا في زمن شاعت فيه الأمية. علاوة على أن الرموز لعبت دوراً هاماً في تمصير المسيحية، إذ أن هذه الرموز كانت مصحوبة بشروح وتفسير مستوحاة من الموروث المصري واليوناني وذلك لتبسيط ماهية العقيدة الجديدة خاصة في العصور الباكرة لانتشار المسيحية، كذلك ساهمت الرموز في تأصيل مدرسة فنية محلية مصرية متميزة عن باقي الأفكار التي أمنت المسيحية.

ولم تقتصر رموز الفن القبطي على الموروث الحضارى المصرى

واليوناني فقط، ولكنها اعتمدت أيضاً بشكل واسع على الكتاب المقدس، خاصة بعد الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً في الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن الرابع الميلادي، وعلى الرغم من قلة الرموز المستوحاة من الكتاب المقدس إلا أنها أصبحت منهلاً لا غنى عنه للفنان القبطي، فصارت قصص الأنبياء المدونة في التوراة موضوعات لها أهمية كبيرة في الفن القبطي باعتبارها رموز لمفاهيم مسيحية مثل مفاهيم الخلاص، العقاب، الخلود أو باعتبارها نبوءات لمقدم المسيح المخلص، ومن أبرز هذه القصص قصة أضحية إبراهيم لابنه اسحاق، ويوسف وأخوته، والنبى يونس والحوت، وخطيئة آدم وحواء.

أما في القرن السادس الميلادي فقد تراجعت موضوعات العهد القديم لتحل محلها تدريجياً صور القديسين والشهداء كنوع من البحث عن تأصيل جذور المسيحية بعيداً عن اليهودية، وكذلك تأصيل المدرسة المسيحية الأرثوذكسية ونضالها في مواجهة الكنيسة البيزنطية خاصة بعد مجمع خلقدونية ٤٥١م.

أما عن الرموز التي أستخدمت في الفن القبطي المصري في العصر البيزنطي فهي كثيرة ومتعددة ولكل منها مغزاه الديني ومنها على سبيل المثال : استخدام السمكة وعناقيد العنب، ورموز على شكل طيور مثل الحمامة والنسر وطائر العنقاء والاسد . وهذه الرموز لم تستخدم من قبيل الصدفة، ولكنها ذكرت في الكتاب المقدس، ولها دلالات ومعان روحية .

### فن التصوير والرسم وفن النحت والعمارة :-

برع أهل الاسكندرية في فن التصوير وكذلك في فن النحت . أما عن فن التصوير فقد نشأ هذا الفن في خدمة الكنيسة، وقام على اساس الفن الهلينستي، ومن ابرز الامثلة على ذلك الفن تلك الصور التي وجدت بمقابر الاسكندرية في القرن الرابع.



وما لبثت الاسكندرية أن احتلت مركز الصدارة في فن التصوير، وذاعت شهرتها في هذا الفن، وقبلت كنيستها عن طيب خاطر ان تزين اضرحتها ومشاهدها، بتلك الوحدات الزخرفية الجذابة، التي ابتدعها اهل الاسكندرية . وحفلت العمائر الدينية في القرن الرابع والخامس الميلاديين بصور الفسيفساء، التي تحتوى على الرسوم والمناظر الدينية كالطيور والازهار ومناظر الصيد والقنص .

وقد ترك الاثر الهليني بصماته على فن التصوير المصرى في العصر البيزنطى، ويتضح ذلك من خلال ما عثر عليه بالفيوم من صور مصرية، تتبض بالحياة والتعبير . وكذلك يظهر من خلال صور الايقونات المكتشفة فى سيناء وغيرها .

ويبدو ان تصوير المخطوطات كان يعتبر فنا من الفنون الشائعة فى مصر، والراجح أن هذا الفن، خلق فى الاسكندرية مهنة تصوير بعض الكتب المسيحية الهامة . فالصور الدقيقة التي يزدان بها كتاب المزامير المخطوط بالمكتبة الاهلية بباريس، انما يدل على ان تصوير مزامير داود حدث بالاسكندرية، وذلك لاحتوائها على العديد من الرموز والعمائر ذات الالوان الزاهية البراقة .

أما عن الفن الاسكندري بصفة خاصة، فهو فن زخرفى، اتسم بدقة التفاصيل والواقعية فى التصوير، ويرجع سبب ذلك الى ما اتصف به أهل الاسكندرية من صفات منها الميل الى اللهو والمرح والسرور، لذلك توافرت فى الفن الزخرفى جميع العناصر التي تشبع ذوق أهلها ومن أمثلة ذلك الفن : تصوير المحبين وهما يلعبان ويقطفان عناقيد العنب، ويحصدان الزرع، كذلك تصوير المناظر الطبيعية الخلابة، ومناظر الازهار والحدائق والحقول وغيرها .

وتجدر الإشارة إلى أن الفنان المصرى استخدم ملكتى الخيال والابتكار



بالإضافة إلى ما ورد في الكتاب المقدس وفي المصادر الدينية الأخرى في تصوير موضوعات من حياة السيد المسيح فيما وراء الطبيعة المرئية، وهذه غالباً ما كانت تحتوى على كائنات خرافية مكونة من أجزاء من كائنات حية كمحاولة منه لأعطاء التصوير بعداً يميل إلى المصدقية. ومن أمثلة ذلك الرسم الجدارى الجصى الموجود على جدران أجدى القلايات فى دير القديس أبوللو فى باويط، وهو يمثل قصة استطاع الفنان أن يعير فيها عن كل ألوان الشر من خلال ملئ الخلفية بكائنات حية بعضها خرافي ترمز للشر ومن أمثلتها : كائن خرافي مركب جاء النصف العلوى منه جسم آدمى مجنح والنصف السفلى ذيل ثعبان، وكائن خرافي آخر نصفه العلوى آدمى والسفلى جسم جواد.

ومن أمثلة الموضوعات الدينية ذات السمات التخيلية فى مصر موضوع "التجلى" وأروع نماذجه فسيفاء دير سانت كاترين، وأيضاً موضوع "الصعود" وقد تم التعبير عن الكون بدائرة يجلس فى وسطها السيد المسيح على العرش، وتحمل الدائرة المخلوقات الأربعة. وكذلك التعبير عن "الملائكة" فى صورة شكل آدمى كامل الهيئة له رأس وجذع وأطراف وذراعين وساقين، ولكن يخرج من خلف الظهر جناحان. وقد استقى الفنان المصرى هذه الصورة من المصرى القديم، فالجناحان يدلان عند الأخير على الحماية التى تفرضها بعض الآلهة المعبودة التى تسكن السماء، مثال الآلهة "توت" التى تبسط جناحيها لتحمى أوزوريس. وكانت تصور على هيئة جسم آدمى لأنثى لها جناحين. وهكذا جمع فن التصوير فى مصر فى العصر البيزنطى بين الكائنات الخرافية وبين السمات التخيلية.

أما عن فن الرسم القبطى فقد ظهر من رد الفعل القومى للأقباط إزاء محتليهم البيزنطيين. فمواطنوا الاسكندرية من الأثرياء المتأخرين مالوا للفن الرومانى المتأخر الذى كان مزدهراً فى كافة أنحاء الإمبراطورية الشرقية، بينما



أنشأ باقى المواطنين فى الأقاليم الأخرى مدرسة وطنية خاصة بهم. ويرغم أن طراز الرسم القبطى يذكرنا لأول وهلة بالفن البيزنطى إلا أنه يتشابه مع الطراز المصرى القديم فى نواح عديدة.

وفى العصر القبطى المبكر ساد الطراز الاسكندرى ولكن بعد انفصال أصحاب الطبيعة الواحدة فى مصر عن بقية المسيحيين الذين اتبعوا مذهب الطبيعتين الصادر فى مجمع خلقدونية ٤٥١م، تطور الطراز الوطنى الإقليمى وازدادت أهميته، ولكن الطرازين كليهما لم ينفصلا عن الديانة المسيحية لأن كافة الأعمال الفنية كانت تنفذ لأغراض دينية.

وقد كان الطراز القبطى نمطياً ولكنه شديد التأثير، اتصف بالبساطة فى تحديد الخطوط، وقد ظل منتشرأ من القرن الخامس حتى القرن السابع الميلادى.

وتوجد غالبية الرسومات القبطية فى الكنائس والأبيرة، وموضوعاتها دينية بطبيعة الحال هذا إلى جانب المناظر التى تمثل أحداث العهدين القديم والجديد مثل: آدم وحواء، نوح والفلك، يونس والحوث، يعقوب وإيراهيم وإسحاق، الخروج، الهروب إلى مصر، وغيرها. أما عن المناظر الخاصة بحياة السيد المسيح فهى نادرة.

ومن أكثر المناظر الشعبية صورة العذراء حامله الطفل يسوع محاطة أحياناً بالتلاميذ، وكذلك مناظر تصور هروب العائلة المقدسة إلى مصر، وعماد السيد المسيح فى نهر الأردن ثم دخولها أورشليم بالإضافة على العشاء الأخير والصلب ثم القيامة وأخيراً صعود السيد المسيح، وصورة العذراء المثيرة للانتباه فى أثناء البشارة والميلاد، كما أن بعض الكنائس كانت تصور القديس الذى تجعله شفيعاً لها مثل القادة العسكريين ومنهم مارجرجس مع مشاهير الرهبان والنسك.

وقد وصف الكتاب العرب فى مصر أثناء العصور الوسطى لوحات فنية



عظيمة منها تلك اللوحة الشهيرة فى ضريح القديس مينا بالقاهرة، ولكن هذه النماذج العظيمة للفن القبطى قد اختفت. ومن المؤسف أن ما يعرض حالياً من فن الرسم القبطى ما هى الا النماذج الرديئة الموجودة فى الكنائس المغمورة التى لم تصل إليها يد التخريب والتدمير.

## العمارة :

كانت العمارة القبطية تنفذ عن طريق فريق عمل يشارك فيه المجتمع ككل. ويدل على هذا العمل المشترك ما نراه من عمارة الكنائس والأديرة، بالرغم من غموض بداية العمارة المسيحية القبطية.

استفاد المسيحيون الأول من العماثر المصرية القديمة، وذلك بتحويل المعابد أو بعض أجزاءها على سبيل المثال إلى كنائس، ولكن هذا لم يمنع من بناء كنائس خلال القرون الأولى لانتشار المسيحية ومنها كنيستين بالإسكندرية باسم العذراء مريم كذلك اقيمت كنائس أخرى فى الإسكندرية. ومصر القديمة (الآن) ما زال بها خمس كنائس قديمة أهمها : كنيسة أبى سرجة (القديس سرجيوس) التى بنيت فى القرن الخامس الميلادى، وكرست على اسم اثنين من الجنود الشهداء هما سرجيوس وواخس اللذين استشهدا فى أوائل القرن الرابع الميلادى، وكان السرداب الموجود داخلها هو المكان الذى استراحت فيه العائلة المقدسة حينما جاءت إلى مصر.

أما الكنيسة المعقدة : فهى واحدة من أجمل كنائس مصر القديمة بنيت فى القرن الخامس الميلادى ويطلق عليها اسم المعقدة لأنها بنيت فوق حصن بابلين وتحديداً فوق الباب الجنوبى للحصن وعلى الحوائط التى تحدد قلعة بابلين القديمة، وكانت مقراً لبطاركة الكنيسة القبطية خلال الفترة من القرن الحادى عشر حتى القرن الرابع عشر.



أما الكنائس الأخرى بالمنطقة فهي كنيسة القديسة بربرارة وبنيت كذلك فى القرن الخامس الميلادى (إحياء لذكرى شهيدة من شهداء المسيحية) وتقع فى الجانب الشرقى من حصن بابليون، كما تقع بالقرب من معبد ابن عزرا اليهودى. وقد أعيد بنائها فى القرن العاشر مع احتفاظها ببابها الخشبى الذى يعد آية من آيات الفن الرفيع. أما كنيسة مار جرجس فقد شيدت على أحد برجى بوابة الحصن، وأخذت شكله العام فى استدارة بنائها، كما أقيمت فوقها قبة كبيرة، وهدمت فى القرن الثامن للميلاد وجددت فى القرن العاشر. ويبدو أن عمارة هذه الكنائس كانت هى النموذج الذى اتبع فى بناء كافة الكنائس اللاحقة بما فيها الكنائس الحالية.

## فن النحت

تتكون نماذج النحت القبطى المبكر من بقايا أعمال وجدت فى كل من البهنسا واهناسيا وغيرها، ترجع إلى القرن الرابع الميلادى. وقد نقلت إلى المتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية وإلى المتحف القبطى بمصر القديمة. ومعظم هذه القطع أخذت من مبان غير مسيحية إذ أنها عبارة عن أجزاء معمارية مثل تيجان الأعمدة والحنيات والمحاريب التى زخرفت بشرائط ملتفة من أوراق الأزهار وأوراق العنب وقد اختلطت أحياناً بصور الطيور والحيوانات والأشكال الهندسية. هذا إلى جانب أن معظم نماذج النحت الموجودة ترجع إلى ما بين القرنين الخامس والتاسع الميلاديين.

ويتكون النحت القبطى من الأعمال الحجرية المنحوتة التى توجد فى الأديرة والكنائس على شكل قطع معمارية خاصة المحاريب والأقاريز وتيجان الأعمدة، وأكثر نماذجها اثاراً للانتباه هى تلك المحفورة على شكل سلال تحتوى على أرغفة وأسماك من الحجر. أما المادة المستخدمة فى صنعها فهى الحجر الجيرى أو الحجر الرملى.



وقد استخدم فن النحت لزخرفة المباني المسيحية ومع ذلك فإن الوحدات الزخرفية مازالت هي الوحدات التقليدية الموجودة في البهنسا واهناسيا بالإضافة إلى الصليب القبطى المأخوذ عن علامة الحياة عند المصريين القدماء والتي تسمى (العنخ) وهى الأثر الوحيد من فنون مصر الفرعونية الموجودة فى أعمال الحفر القبطية، وقد اتخذ شعاراً للمسيحيين مع بداية القرن السادس الميلادى .

ومن نماذج النحت القبطى أيضاً أعداد كبيرة من شواهد القبور القبطية التى ما زالت موجودة ويرجع تاريخها إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين. والشاهد منها يتكون من عمود حجرى محفور على سطح مستو مع صورة للمتوفى هو واقف رافعاً ذراعيه فى وضع المتضرع لله، ويحفر عليها أيضاً صور للطيور والصليبان، التى تعتبر هى الوحدات الزخرفية الشعبية. وكانت شواهد القبور حتى القرن السادس الميلادى محفور عليها زهريات أو وحدات نباتية أو علامة العنخ، ولكن بعد هذه الفترة تحولت الشواهد إلى ألواح مستطيلة كبيرة بها أحياناً حليات مثلثة الشكل أو صغيرة لها قمم مستديرة. وقد تضمنت معظم شواهد القبور نقوشاً بسيطة تبين اسم ومكان المتوفى، ومعها عبارة جنائزية مسيحية أحياناً، وأحياناً تتضمن تاريخ الوفاة مدوناً حسب الفترة الزمنية (كانت الفترة الزمنية تتكون من ١٥ سنة تدور فى شكل دورات متتالية حسب النظام الذى وضعه دقلديانوس ليسهل الشئون الإدارية).

ومن المعروف أن الاسكندرية صنعت التوابيت الرائعة، ومن أشهرها تابوت القديسة كونستانس، والتابوت المنسوب الى القديسة هيلانة، وهذه التوابيت محفوظة فى الفاتيكان، وتحمل هذه التوابيت رسوم تتكون من أكاليل الازهار، ومن أطفال يرقصون بين اغصان الأشجار .

كذلك يشهد بعظمة فن النحت بالاسكندرية وبراعة اهلها فيه تلك الادوات



المصنوعة من العاج، التي كان لها باسواق الاسكندرية أهمية تجارية. وقد عثر في مقابر الاسكندرية على بعضها، وقد ظلت محتفظة برونقها وجمالها طيلة العصر البيزنطى. ومن أشهر التحف العاجية تحفة "بربرينى" المحفوظة بمتحف اللوفر بباريس وهى تمثل الامبراطور قسطنطين، حامى المسيحية فى هيئة الفارس المنتصر، وهى الهيئة التى يحبها المصريون. هذا الى جانب قطعة أخرى من العاج محفوظة فى نفس المتحف، وهى عبارة عن رسم يمثل القديس مرقس بين خلفائه من البطاركة .

### النسيج :

يظهر الفن القبطى كأحسن ما يكون فى النسيج، ويعود الفضل فى ذلك إلى عادات أقباط القرن الرابع الميلادى وما تلاه خاصة فيما يتعلق بالدفن لأنها حفظت نماذج نسيج هذه الفترة. إذا كان الموتى يدفنون وهم يرتدون الملابس التى كانوا يرتدونها فى حياتهم اليومية ممثلة فى الجلابيب، والعباءات، وأغطية الرأس، والجوارب، والصنادل والأحزمة. وكان الجسم أحياناً يلف فى كفن مصنوع من النسيج الذى يستخدم فى الستائر التى تعلق على الجدران، وقد ظلت المنسوجات فى القبر ولم تتحلل، بل حفظت فى حالتها الأصلية، وظهر ذلك بجلاء فى مقبرتين قبطيتين رئيسيتين فى أخميم والشيخ عبادة.

ويمكن التعرف كذلك على أنواع الثياب والمنسوجات من خلال البرديات الخاصة بعقود الزواج، والتى يتضح من خلالها أن الثوب الرئيسى فى العصر الرومانى والبيزنطى كان يتكون من قميص يصنع غالباً من الكتان وأحياناً من الصوف، ويزخرف عادة من الأمام والخلف بأشرطة على الأكتاف. أما ثياب رجال الدين فكانت تصنع من نسيج الكتان المزين برسوم هندسية رقيقة. وكانت غالبية الثياب منسوجة بطريقة (القباطى) وهى أقدم المنسوجات المزخرفة، والزخرفة هنا نسيجية مكونة من لونين أو أكثر، وغالبية الثوب كان اللون



الأبيض أو الكحلى أو الأرجوانى، أما الزخارف فبالوان متعددة.

وتظهر آلاف النماذج المتوفرة من النسيج القبطى أن لوحات النسيج الصوفى كانت واسعة الانتشار وكانت تعلق على الحوائط، والستائر وأغطية المذبح وغيرها. وكانت تصنع من الصوف الملون والخيوط غير المصبوغة المنسوجة على النيل. وكان الصوف المستخدم فى لوحات النسيج الصوفى ملونا بالصبغات النباتية، هذا وقد انتشر فيها استخدام اللون الواحد كذلك كالقرمزى أو الأحمر بداية من القرن السادس فصاعداً.

أما عن زخرفة النسيج القبطى فكانت مشابهة لزخرفة الأعمال الحجرية، إذ استخدم فى الزخرفة أوراق الأشجار والأسماك والحيوانات خاصة الأرناب البرية والأسود، وسيقان الكرمة التى تبرز من السلال.

### استيلاء الفرس على مصر ( ٦١٦ - ٦١٩ م ) :

بعد أن تمكن الفرس من الاستيلاء على مدن الشام كان لابد وأن يتمموا فتوحاتهم بالاستيلاء على مصر . لذلك بعد أن أكمل الفرس استعداداتهم الحربية حوالى نهاية خريف أو شتاء عام ٦١٦م بدأوا فى المسير نحو مصر عن طريق غزة والصحراء، فاستولوا أولاً عن العريش ( رينوقولورا Rhinokulura ثم على بلوزيوم ( الفرما ) بدون عناء ولا مشقة، وخرب الفرس كنائسها وأديرتها، ثم استولوا على ممفيس وأخذوا طريقهم إلى بابلين، غير أنه لم يرد ذكر فى المصادر عن إخضاع الفرس لهذه المدينة الحصينة أو لاستيلائهم عليها .

ولسوء الحظ فإن المعلومات الخاصة بهذه الحملة قليلة، حتى أن اسم قائد تلك الحملة موضع خلاف بين المؤرخين فمنهم من يذكر أنه شهرباراز Sharbaraz ومنهم من يذكر أنه شاهين، ويضاف إلى ذلك أن الجزء المتعلق بتاريخ هذه الفترة مفقود فى مخطوطة يوحنا النقيوسى .



سار جيش الفرس براً بعد فتح ممفيس، يساعده أسطول عظيم فى نهر النيل واتجه الفرس نحو مدينة الإسكندرية متتبعين الشاطئ الغربى للنيل عن طريق الفرع الكانوبى حتى وصلوا إلى بوابات الإسكندرية، وشاع الاضطراب والفرع فى المدينة عند سماع نبأ اقتراب الفرس منها، غير أن مدينة الإسكندرية كانت من المناعة والحصانة ما جعلها تصمد فى مقاومتها للفرس، فقد كانت المدينة محاطة بالأسوار وكان لها أبواب حصينة .

وتحتّم على الفرس حصار تلك المدينة الحصينة، التى لا يجدون فيها مطعماً، وفى أثناء الحصار كان الفرس يهاجمون المناطق المحيطة بالمدينة من الريف، ولا سيما ما فيه من الأديرة، ويشفون بذلك ما فى نفوسهم من الغيظ لفشلهم أمام مناعتها وصمودها . فيذكر ساويرس ابن المقفع أنه كان بأطراف المدينة ستمائة دير عامرة ... يعيش فيها الرهبان فى أمن وبلا خوف ولكن أحاط بهم الفرس، وقتلوهم جميعاً بالسيف إلا عدداً قليلاً منهم، ونهب الفرس ما حوته هذه الأديرة من أموال وانية، ثم هدموا تلك الأديرة، وتركوها خاوية على عروشها .

تم للفرس الاستيلاء على مدينة الإسكندرية بالخيانة والخديعة إذ يروى صاحب التاريخ السريانى المجهول أن الفرس حاصروا المدينة لمدة طويلة، ولم يستطيعوا فتحها، وعندئذ خرج لهم المدعو بطرس وكان قد قدم إلى الإسكندرية منذ طفولته للدراسة ووعد قائد الفرس بأن يسلمه هذه المدينة وكان بطرس هذا قد وجد فى أحد الكتب ما يلى :

« إذا ما اشتد الضيق فى الإسكندرية فسوف تسقط من الباب الغربى المطل على البحر » ويبدو أن بطرس دل الفرس على ذلك، فاستعدوا وركبوا مراكب الصيد وفى الفجر والظلام لازال مخيماً، استتروا فى مراكب الصيد هذه، واختلطوا بالصيادين، ودخلوا المدينة، وذبحوا حرس الأبواب وفتحوها

لزملائهم . وحاول بعض أهل الإسكندرية الهروب من المدينة عن طريق البحر، ولكن الرياح دفعت بالسفن، التى كانت تحمل كنوز الكنيسة وأموال أهل المدينة، إلى معسكر الفرس، فأرسلوها إلى كسرى مع مفاتيح المدينة، وذلك فى السنة الثامنة والعشرين من حكم كسرى (٦١٨ - ٦١٩م)، ويتضح من هذه الرواية أن مدينة الإسكندرية فتحت عنوة وبالخدعة والخيانة.

عامل الفرس أهل الإسكندرية بقسوة وعنف، فيذكر ساويرس أن السوالى الفارسى نائب كسرى ومقدم الحرب . أمر كل شاب فى مدينة الإسكندرية ممن تتراوح أعمارهم بين ١٨ - ٥٠ عاماً أن يخرجوا ليأخذوا عشرين ديناراً، وعندما اجتمع شباب المدينة، كتب أسماءهم، وهم يظنون أنهم يأخذون العطيّة التى وعدهم بها، ولكن عندما علم بخروجهم جميعاً، أمر جيشه أن يحيط بهم ويقتلهم جميعاً بالسيف، وبلغ عدد من قتلهم ثمانية آلاف رجل .

ويرى بتلر أن الفرس كانوا قساة، فإن شريعة الحرب عندهم لا تبيح لهم أن يقتلوا أهل مدينة سلمت لهم بغير قتال، ويرى كذلك أنه من المضحك ما جاء فى رواية ساويرس من ذكر الوعد، الذى وعده القائد بإعطاء المال، وكذلك كتابة أسماء آلاف من الشباب تمهيداً لقتلهم، ويستبعد بتلر فى نفس الوقت أن يكون ساويرس ذلك المؤرخ المصرى مخطئاً، وهو الذى يقيم فى مصر ويعرف أخبارها .

حقيقة أن رواية ساويرس تنم عن روح القسوة والعنف التى عامل بها الفرس أهل الإسكندرية كما تظهر مدى كراهية ساويرس للفرس، غير أن ما جاء بها بشأن كتابة أسماء ثمانية آلاف تمهيداً لقتلهم ليس بالأمر المضحك كما ذهل بتلر بل من المحتمل أن الفرس لجأوا إلى هذه الوسيلة كنوع من الحيلة والخدعة، هذا وأن كانت تلك المقتلة، التى ذكرها ساويرس مبالغاً فيها، ولم يرد لها ذكر فى الرواية السريانية عن فتح الإسكندرية ولكن هذا لا يمنع أن



الفرس تصرفوا بوحشية خلال السنوات الأولى من الاحتلال .

أما نيقتاس حاكم مصر، فما أن علم بسقوط الإسكندرية في يد الفرس حتى خارت شجاعته، وعزم على الفرار، وسلم الإدارة إلى قائد الجيش إسحق وأبحر على ظهر سفينة، كما اكتشف بطريك الإسكندرية يوحنا المتصدق مؤامرة لاغتياله فقرر بدوره أن يذهب بعيداً، وقد تبع هذا السلوك السيء عدد كبير من الموظفين الرسميين، الذين شحنوا ثرواتهم في السفن، ولكن الفرس نجحوا في الاستيلاء على هذه السفن بما فيها، وما كان منهم إلا أن أرسلوا الموظفين بكنوزهم وثرواتهم إلى كسرى .

أبحر نيقتاس ومعه يوحنا المتصدق بطريك الإسكندرية إلى القسطنطينية ولكن عندما وصلا إلى جزيرة رودس سقط يوحنا فريسة للمرض، فعاد ثانية إلى قبرص، حيث مات في نفس المكان الذي ولد فيه وهو اماثوس . والواقع أنه لم يكن أمام نيقتاس سوى الهرب، فلم يكن لديه سوى قليل من الرجال، فضلاً عن كونهم غير مدربين، وليس لديهم خبرة بفنون الحرب والقتال ومن ناحية أخرى لم يكن أهل الإسكندرية على استعداد لمد يد العون له لمواجهة الفرس نظراً لكرهيتهم لكل ما هو بيزنطي، ورغبتهم في التخلص من الحكم البيزنطي، فضلاً عن أن القمح لم يعد يصل إلى مدينة الإسكندرية من ريف مصر، ولهذا لجأ يوحنا المتصدق إلى استيراد القمح من صقلية، غير أن ذلك لم يكن كافياً فلما طال أمد الحصار ونفدت الأقوات، ولم يأت المدد من قبل هرقل أيقن الناس أنه لا بد لهم من الاستسلام، ولم يستطيع نيقتاس أن يفعل شيئاً أمام ذلك سوى الرحيل .

تابع الفرس تقدمهم، فاستهوا على صعيد مصر دون مقاومة تذكر، وبلغوا بفتوحاتهم أطراف وادي النيل وحتى أسوان، غير أنهم لم يتخلوا عن سياسة العنف والقسوة تجاه المصريين، فعندما وصل القائد الفارسي مدينة نقيوس



(ابشادي مركز تلا بمحافظة المنوفية) أخبره قوم بالمدينة عن جماعة من الرهبان، يعيشون في الجبال، يقدر عددهم بسبعمئة راهب، وأن لديهم أموالاً كثيرة، وأنهم يحتمون في حصن، فأرسل القائد الفارسي جيشه، فأحاط بهم وحاصرهم في الليل، وما أن أشرقت شمس الصباح حتى أقتحم عليهم الحصن وقتلهم جميعاً ولم يبق أحد منهم .

أحدث فتح الفرس لمصر والإسكندرية أثراً بالغاً في العالم آنذاك فقد عادت مصر إلى ظل السيطرة الفارسية، بعد فترة تزيد على التسعة قرون، وكان الملوك الساسانيون يطمعون دائماً في أن يمدوا حدود إيران إلى ما كانت عليه أيام الهخامدثيين، ومن ثم زادت حملة الفرس هذه على مصر والإسكندرية من النفوذ الفارسي بدرجة كبيرة . كما كان سقوط الإسكندرية والاستيلاء على مصر ذا وقع شديد على البيزنطيين، فالإسكندرية كانت مركزاً ثقافياً كبيراً، فضلاً عن كونها ميناء عظيماً على البحر المتوسط، كما أن مصر كانت مخزن غلال القسطنطينية وبضاياعها توقفت امدادات القمح المصري، مما كان له أبلغ الأثر على الأحوال الاقتصادية في العاصمة البيزنطية.

### استعادة مصر والشام من أيدي الفرس :

كادت الإمبراطورية البيزنطية تهوى أمام اتساع الخطر الفارسي، وابتلاعه للولايات البيزنطية الكبرى ممثلة في ( ما بين النهرين ) Mesopotamia وسوريا وفلسطين ومصر وخلقدونية، بل وتهديده القسطنطينية نفسها، وخرج الفرس من قتالهم مع الدولة البيزنطية محملين بأعداد لا تحصى من الأسرى، ومحملين بالثروات وبأعمدة الرخام والمرمر، وبأوني النحاس وبلوحات وشارات عديدة من آسيا الصغرى ومن بلاد الشام.

لم تكن القسطنطينية في ذلك الوقت موضع تهديد من جانب الفرس فحسب



بل ومن جانب الأفار Avars كذلك - الذين عبروا تراقيا، وهددوا العاصمة البيزنطية من ناحية البر ووصلت حالة الدولة البيزنطية السيئة في ذلك الوقت إلى درجة أن فكر الإمبراطور هرقل في ترك عاصمته والذهاب إلى قرطاجة في أفريقية، لولا أهل القسطنطينية، وضغطهم مع البطريك عليه ليقيم يمينا في كنيسة آيا صوفيا بأنه لن يترك عاصمته .

حاول سرجيوس Sergius بطريك القسطنطينية أن يعيد الهدوء للإمبراطور، وأن يصرف شكوكه وخيبة أمله، على أن هرقل أخبر البطريك بأن المشورة والنصيحة والعظات ليست كافية وأنه يحتاج إلى الوسائل فالإمبراطورية لا يمكنها مواجهة ذلك العدد من الأعداء دون تجهيز جيش، ودون دبلوماسية وكلاهما يحتاج إلى المال الذي لا يمتلكه، وأدرك سرجيوس الذي لم يكن رجل دين وراع كنيسة فحسب بل كان شخصاً ذا أفق واسع أن الإمبراطور على صواب، وأن القرارات الكبيرة ضرورية في وقت الأزمات، فشرع في اتخاذ قرار بنفسه، وأظهر بعد نظره، وذلك بأن وضع بشعور وطني حقيقي كنوز الكنيسة تحت تصرف الإمبراطور . وتمثلت كنوز الكنيسة في تلك الأموال المخصصة لأعمال الخير، وفي الشمعدانات وأطباق الكنيسة وأنيبتها المصنوعة من الذهب والفضة، وكانت ثروة الكنيسة هائلة فقدمها كلها للدولة، أرسلت كلها إلى دار سك العملة لتحول إلى عملات جديدة يمكن بها دفع رواتب للجند وشراء السلام .

غير أن هذه التضحية من جانب الكنيسة، كان لها صفة القرض مع التزام من جانب الدولة ممثلة في شخص الإمبراطور برد قيمة هذا القرض عقب نهاية الحرب، ويبدو أن ذلك القرض تم فيما بين عامي ٦١٩ - ٦٢٠م عندما بدأ سك العملات الجديدة، وفي الوقت الذي بدأ فيه هرقل يعد لحملة عسكرية جديدة .

وفي نفس الوقت اتخذت إجراءات أخرى للحد من النفقات ممثلة في إلغاء



توزيع الحصة المجانية من القمح، الذى كان يتسلمه سكان العاصمة منذ أيام الإمبراطور قسطنطين العظيم وتحمل الأهالى الحرمان بدون اعتراض، ولا شك فى أن هذا الإجراء كان ضرورياً، وخاصة بعد أن فقدت الإمبراطورية مصر مزرعة الغلال الإمبراطورية فى عام ٦١٦ م . كما فرضت الضرائب الباهظة على رجال الدين . وجرى تخفيض ٥% من رواتب الموظفين، وذلك كله لملء الخزانة الإمبراطورية الخاوية وحتى يتيسر للإمبراطور اتخاذ الوسائل الضرورية لخوض غمار حرب ضروس ضد الفرس .

وإذا كانت مشكلة المال قد حلت، فقد بقيت مشكلة أخرى وهى إعداد الجيش، لقد أدرك هرقل أن تنظيم الجيش البيزنطى ضرورة لا بد منها وأنه طالما يتحتم عليه مواجهة الفرس فعليه أن يستوعب دراسة الطرق العسكرية عند الفرس وجوانب القوة فى جيشهم . وأيقن هرقل أن العنصر الأساسى فى الجيش الفارسى، هو سلاح الفرسان الذى يتكون من الطبقة الأرستقراطية فى الدولة، وكانت له المكانة الأولى دائماً فى الميدان وقصب السبق فى ساحة القتال، وكان سلاح الفرسان الفارسى مجهزاً تجهيزاً عالياً، ولذا كان يعول عليه فى إحراز النصر فقد كان خيالة الفرس رماة مهرة، وعلى أعلى مستوى من التدريب والخبرة، يضاف إلى ذلك أن الجيش الفارسى كان يعمل به جنود وطنيون وليس جنود مرتزقة . هذا فى حين كان عماد الجيش البيزنطى سلاح المشاة الثقيلة، أما سلاح الفرسان فكان يمثل قوة صغيرة للاستطلاع والإغارات السريعة، وكان الجيش البيزنطى يعتمد على مرتزقة أجنبية، وثبت عدم جدوى هذا النظام عندما أصبحت الخزانة الإمبراطورية خاوية .

كان إصلاح الجيش أمراً حيويًا وجوهريًا، ولذلك انسحب الإمبراطور



هرقل - قبل بداية حربه مع الفرس فى شتاء عام ٦٢١م - خارج أسوار القسطنطينية وأقام فى قصر هيريا على الشاطئء الأسيوى حيث تفرغ تماماً لدراسة الخطط العسكرية والإمكانيات العسكرية الموجودة لديه . وطرح خططه للحرب، وحاول تنظيم حملته وعكف هرقل خلال عزلته، التى استمرت حتى عيد الفصح ٦٢٢م على إعداد كتيب إرشادات للخطط الحربية والتكتيكية، يسترشد به ضباطه وجنوده وقادته . وبعد انتهاء هرقل من إعداد هذا الكتيب، قضى عدة أشهر فى تدريب جنوده، وكان يدير تلك التدريبات بنفسه . وبذلك أعطى هرقل المعركة قبل المعركة .

قرر الإمبراطور قيادة الجيش بنفسه، وسار بذلك على نهج الإمبراطور موريس ( ٥٨٣ - ٦٠٢م ) الذى قاد الحرب بنفسه ضد الإفار وكان من الطبيعى أن يواجه هرقل نفس المعارضة الشرسة، التى واجهها موريس من جانب مستشاريه وذلك لأنه منذ عصر ثيودوسيوس الأول ( ٤٩١ - ٥١٨م ) لم يكن هناك إمبراطور قبل موريس قد نزل إلى ميدان القتال، وقاد جيشه بنفسه، وهذا ولم تؤثر المناقشات الطويلة والنصائح من جانب مستشاريه على قراره هذا .

ونظراً لأن الإمبراطور هرقل كان يخشى جانب الأفار فقد أرسل خطاباً إلى خاقانهم يذكره بالمعاهدة التى تربطهما سوياً، ومدحه بكثير من المبالغة وذكر أنه يعتبر كوصى وأب للإمبراطور الشاب قسطنطين ابنه، وذلك طبقاً للعادة التى كانت سائدة فى تلك الأيام، ووعده بمبلغ كبير من المال وذلك حتى يستطيع أن ينقل قواته من أوربا إلى آسيا بدون أن يعوقها عائق .

وفى الرابع من إبريل ٦٢٢م وبعد الاحتفال بعيد الفصح، ذهب الإمبراطور إلى الكنيسة فى اليوم التالى - أى كنيسة آيا صوفياً - ودعا إليه كل من البطريرك سرجيوس والحاكم بونوس ورجال السناتو وكبار الموظفين



والوجهاء والأعيان وأعلن ابنه قسطنطين كخليفة وشريك له في العرش، ونائباً عنه أثناء غيابه عن العاصمة، ونظراً لأنه قاصراً إذ لم يتجاوز العاشرة من عمره، فقد عهد الإمبراطور إلى البطريرك سرجيوس والبطريق بونوس بتولى شؤون الإمبراطورية، وكان بونوس رجلاً كريماً له خبرة ودراسة بالشئون الإدارية .

وبعد الصلاة والإبتهال والتوسل، امسك الإمبراطور بايقونة المسيح المخلص، وجعلها لواء له، وتقدم بها نحو الميناء، وهناك ودع عائلته والبطريرك وأصدقاءه، ثم ركب السفينة وأبحر في حملته التاريخية . وبعد أن عبر البوسفور أبحر إلى خلقدونية، وأخذ منها الطريق الإمبراطوري الكبير عبر آسيا الصغرى، والذي يؤدي إلى قيصرية قبادوقيا وكان قد أمر جنوده بالتجمع هناك . وعلى طول هذا الطريق أقيمت الحصون، التي شكلت نظاماً دفاعياً ممتازاً، والتي استطاع هرقل أن يجمع منها فرقاً جديدة لجيشه، هذا وما أن وصل الإمبراطور إلى قيصرية، حتى استخدم حصنها كمقر أساسى للإمدادات خلال فترة الحرب، وقضى هناك الصيف كله إلى جوار جيشه ليدير القوات الجديدة، وعكف على دراسة الخطط الحربية، وابتكر أساليب جديدة، من ذلك أنه قسم الجيش إلى قسمين وأعطى الجنود الدروع والخوذ والأبواق، وأمر بأن يهاجم كل قسم القسم الآخر وأن يشتبكا سوياً، ولكن بدون سفك أو أراقة دماء بل يكتفوا بأحداث الضجيج والصراخ وكأتهم في ميدان القتال . وكان يهدف من وراء ذلك كله إلى أن يشجعهم على مواجهة العدو وبدون جهد ومشقة، وأن يهاجموه بجرأة وإقدام وثبات .

ويبدو أن الفرس كانوا على علم بالاستعدادات البيزنطية ففي خلال نفس الصيف، الذي أخذ فيه هرقل جيشه إلى آسيا احكم كسرى قبضته على المسيحيين الأرثوذكس في مملكته، وفرض ضرائب جديدة من أجل تجهيز جيشه .



كانت خطة الإمبراطور هرقل تهدف إلى استعادة المناطق التي أغتصبها الفرس وإجبارهم على قبول سلام عادل ومنصف، ولكن نظراً لأنه كان من العسير الاتجاه نحو سوريا وفلسطين ومصر لاستعادتها، لذلك كان على هرقل أن يضرب الفرس أولاً في عقر دارهم وفي قلب فارس ذاتها .

ونجحت خطة هرقل بالفعل بعد قتال دام ست سنوات، انتهى بهزيمة الفرس هزيمة ساحقة في معركة نينوى عام ٦٢٧م وكان الانتصار الذي حققه البيزنطيون في نينوى عظيماً إذ فتح الطريق أمامهم إلى طيسيفون عاصمة الفرس، وأصبحوا على مقربة منها .

ومع أن هرقل كان في مركز القوة إذ كان هو المنتصر إلا إنه عرض على كسرى الصلح وعقد اتفاقية سلام وكتب إليه يقول :

« لندع السلاح، ونسعى إلى الصلح، ونطفأ النيران قبل أن يحترق كل شيء » غير أن كسرى رفض بنود الصلح التي تمثلت في العودة إلى حدود عام ٦٠٢م وإطلاق سراح الأسرى . وكان رفض كسرى عروض الصلح مدعاة لاحتقار أتباعه له، ولنقمه شعبه عليه . وفي ربيع عام ٦٢٨م قامت ثورة ضد كسرى انتهت بعزله، وتتويج ابنه شيرويه ملكاً على الفرس في ٢٥ فبراير ٦٢٨م . وعقد شيرويه معاهدة صلح وسلام مع البيزنطيين، وتمثلت شروط الصلح في إعادة الحدود إلى ما كانت عليه في عام ٥٩١م وهذا يعني جلاء الفرس عن جميع الأراضي التي احتلوها، وإطلاق سراح الأسرى .

وبذلك عادت مصر والشام مرة ثانية إلى حظيرة الدولة البيزنطية .

### الفتح العربي لمصر :

واكب ظهور الإسلام السنوات الأولى لحكم الإمبراطور هرقل، وفي الوقت الذي شرع فيه هرقل لقتال الفرس، هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة



فى عام ٦٢٢م حيث وضع أسس وقواعد الدولة العربية الجديدة، وما أن فرغ من ذلك حتى شرع فى توسيع نطاق الدعوة الإسلامية، فولى وجهه شطر بلاد العرب وخارجها، وبعث ﷺ فى ٧هـ/٦٢٨م رسلاً من أصحابه بكتب إلى ملوك وأمرآء البلاد المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام والإيمان برسالته، ويقال أن الرسول ﷺ صنع لنفسه خاتماً من الفضة، ونقش عليه عبارة « محمد رسول الله » وختم به رسائله إليهم .

وكان من بين هؤلاء الملوك والأمراء قيصر الروم أو الإمبراطور البيزنطى هرقل، وقيرس أو كيروس ( المقوقس ) حاكم مصر من قبله، والحارث بن أبى شمر الغسانى عامل هرقل على الشام .

وكان سفير الرسول ﷺ إلى الإمبراطور هرقل هو دحية بن خليفة الكلبى وكتب له الرسول الكريم كتاباً، وأمره أن يسلمه إلى حاكم بصرى ومنه إلى هرقل، وكان أن تلقى حاكم بصرى الكتاب من دحية وسلمه بدوره لهرقل، الذى قرأه، وكان قد جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، اسلم تسلم يؤتك أجرى مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضاً بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وتروى المصادر العربية أن هرقل تلقى كتاب الرسول الكريم بقبول حسن واستقبل سفيره بأدب وحفاوة، وأنه حاول استطلاع أمر هذا الدين الجديد . وتحكى بعض الروايات العربية أيضاً بأن هرقل كاد يسلم، ولكنه ما لبث أن تراجع خشية أن يقتله رعاياه أو أن يفقد تاجه . بل ويعلن اليعقوبى صراحة



إسلام هرقل ولكنه بلا شك مبالغ في ذلك ايما مبالغة شأنه في ذلك شأن سائر الروايات العربية .

ولم تهتم المصادر البيزنطية بالإسلام في هذا الوقت المبكر فلم يرد بها أى شىء عن كتاب الرسول الكريم إلى هرقل، ويذهب بعضها إلى أن الرسول ﷺ هو الذى ذهب بنفسه إلى هرقل للتفاوض معه، وهو فى طريقه إلى حمص فى الرحلة التى قام بها إلى بيت المقدس عند عودته منتصراً من فارس وأن محمداً عقد مع البيزنطيين اتفاقاً يكفل لهم حرية الانتقال والتجارة بين الجزيرة العربية والأقاليم البيزنطية، وأنه بمقتضى هذا الاتفاق أصبح محمد سيدياً على دومة الجندل . هذا فى حين أن الاتفاق مع صاحب دومة الجندل كان - على نحو ما تذكره الروايات العربية - بعد معركة تبوك على نحو ما سنرى .

وبعث الرسول ﷺ سفارة أخرى إلى كيروس Cyrus المعروف باسم «المقوقس» نائب هرقل على مصر، وكان على رأس هذه السفارة حاطب بن أبى بلتعة. ويبدو أن حاطباً غادر المدينة المنورة فى ذى الحجة عام ٧هـ - إبريل ٦٢٨م، وفى نفس الوقت الذى غادرها فيه دحية بن خليفة الكلبي سفير الرسول الكريم إلى هرقل. ووصل حاطب مصر، والتقى بالمقوقس فى الإسكندرية، وأحسن المقوقس استقبال حاطب ابن أبى بلتعة وأكرمه، وأخذ منه كتاب الرسول ﷺ إليه الذى استهله الرسول الكريم بعبارة :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط... » ونص هذا الكتاب هو نص كتاب النبى إلى هرقل، وفى نفس عباراته، وفيه يدعو النبى الكريم المقوقس إلى الإسلام مثلما دعا هرقل من قبل. ويقال أن المقوقس بعد أن قرأ الكتاب، جعله فى حق من عاج وختم عليه، ثم دعا كاتباً بالعربية، فكتب إلى الرسول ﷺ :

« لمحمد بن عبد الله من مقوقس عظيم القبط سلام »

أما بعد فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوة، واهديت لك بغلة لتركبها والسلام». وجاء في رواية أخرى أن المقوقس أهدى الرسول ﷺ بغلة شهباء وحماراً أشهب وثياباً من قباطى مصر، وعسلا وعسل بنها وبعث إليه بمال صدقة .

وهكذا كانت النتائج التى انتهت إليها الكتب والسفارات النبوية إلى الإمبراطور هرقل والى عامليه على الشام ومصر نتائج سلبية . ولم تكن حاسمة فى شىء بيد أنها كانت بلا ريب ذات أثر معنوى عميق فى البلاط البيزنطى وفى الكنيسة البيزنطية .

ويبدو أن البيزنطيين، لم يدركوا أهمية الدين الإسلامى ولا التطور الذى بدأ يحدث فى بلاد العرب فى المرحلة الأولى من العهد الإسلامى، وكذلك لم يقدر البيزنطيون تلك الدعوة التى وصلتهم، ولم يدركوا ما انطوت عليه من عقيدة جديدة، سوف تزلزل أركانهم، وتنتزع أرضهم وذلك أن الدولة البيزنطية نظرت إلى الإسلام والعقيدة الإسلامية على أنها ضرب من ضروب الأريوسية، أى اعتبروا الإسلام مذهباً مشابهاً لمذهب الطبيعة الواحدة أو المونوفيرتية . ونهج المؤرخون البيزنطيون نهجاً مماثلاً، فلم يكثرثوا لظهور النبى العربى، وكان ثيوفانىس Theophanis الذى كتب فى بداية القرن التاسع، هو المؤرخ البيزنطى الأول الذى سجل بعض الحقائق عن حياة الرسول وعن العرب . أما المصادر البيزنطية التى كتبت بعد ثيوفانىس وعلى رأسها زانوراس Zanos فهو يتحامل على المسلمين، ويقدم معلومات مشوشة وغامضة عن محمد ودعوته بل ويصل به الأمر إلى حد السباب.

اتسعت حركة الفتوحات الإسلامية فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق ثم فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، ونجح المسلمون فى فتح بلاد الشام



فيما عدا قيسارية، ثم شرعوا يفكرون في فتح مصر . وكانت الضرورة تقتضى بفتح مصر بعد أن تم فتح بلاد الشام لأسباب من بينها :

أولاً : أن مصر كانت محور ارتكاز القوات البيزنطية في شرق البحر المتوسط، كما كانت القاعدة التي يمكن عن طريقها استعادة الشام مرة ثانية والقضاء على الفتوحات الإسلامية هناك فعن طريق مصر كان يمكن إمداد الموانئ التي لم تسقط في بلاد الشام وخاصة قيسارية بالمؤن والرجال والعداد خاصة وأن مصر كانت أقرب قاعدة بيزنطية بالنسبة لبلاد الشام ومحور ارتكاز القوات البيزنطية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط .

ثانياً : كانت مصر ذات مركزاً استراتيجياً يهيء موقعه الجغرافى للبيزنطيين القيام بحملة انتقامية على بلاد العرب نفسها أى على المدينة المنورة - مركز الدولة العربية الإسلامية وذلك حينما يفيق البيزنطيون إلى أنفسهم.

ثالثاً : رأى المسلمون فى الاستيلاء على مصر حرمان الأسطول البيزنطى من قاعدة يستطيع أن يعمل فيها ضد المسلمين سواء فى مياه البحر المتوسط قرب سواحل الشام أو فى مياه البحر الأحمر قرب الحجاز .

رابعاً : يحقق المسلمون بفتح مصر أهم غرض لهم من حركة الفتوحات الإسلامية وهو تبليغ الدعوة الإسلامية إلى بقاع جديدة من الإمبراطورية البيزنطية، وتأمين من يؤمن بالإسلام .

خامساً : الاستفادة من خيرات مصر ومواردها الطبيعية .

هذه الأسباب مجتمعة جعلت فتح مصر بعد فتح الشام ضرورة عسكرية هامة .

أما عن الفاتح فهو كما نعلم - عمرو بن العاص، وتختلف الروايات حول

مسير عمرو بن العاص لفتح مصر فمنها ما يذهب إلى أن عمرو بن العاص أستاذن الخليفة عمر بن الخطاب في الخروج لفتح مصر، وأنه حسن له فكرة الفتح، وما يعود على المسلمين من نتائج من وراء هذا الفتح، وأخذ يلح عليه ويهون عليه الفتح، حتى أذن له الخليفة بفتح مصر، وأمره بالمسير إليها على أنه سوف يرسل له كتاب إذا وصله ولم يدخل مصر أو شيئاً من أرضها فعليه أن يعود من حيث أتى، وأن دخلها قبل أن يأتيه الكتاب فعليه أن يستمر في فتح مصر .

وهناك روايات أخرى تذكر أن عمر بن الخطاب هو الذي كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بفتح مصر بعد أن تم فتح الشام ثم عرض الخليفة قراره هذا على أهل المشورة ومنهم عثمان بن عفان فخوفه عثمان من أمر فتح مصر، فشعر الخليفة عمر بالقلق من أمر فتح مصر لأسباب منها :

١ - إشفاقه على المسلمين من أن يصيبهم الفشل خاصة وأن القوات الإسلامية كانت متفرقة في الشام والجزيرة وفارس لقتال البيزنطيين والفرس .

٢ - أن الخليفة عمر كان يخشى من التوسع في الفتوحات خاصة وأن إقدام المسلمين لم ترسخ بعد في البلاد التي فتحوها .

٣ - أن توسع المسلمين السريع في بلا البحر المتوسط يتطلب أسطولاً للدفاع عن شواطئ البلاد التي استقروا فيها ضد هجمات البيزنطيين وكان العرب يهابون ركوب البحر .

وعلى هذا فقد تردد الخليفة ثانية وتخوف من فتح عمرو بن العاص لمصر بعد أن أرسل إليه يطلب منه فتحها للأسباب السابقة .

وهناك روايات أخرى تذكر أن عمرو بن العاص خرج لفتح مصر سرّاً وبدون استئذان الخليفة عمر، وأنه مضى لفتح مصر بجيش صغير من تلقاء



نفسه، وأن الخليفة غضب منه لذلك، وكتب إليه يوبخه قائلاً له : إلى العاص ابن العاص .... « على أنه لا يعقل أن فتح مصر تم بهذا الاستخفاف وبهذه السهولة، ولا يعقل أن يسير عمرو لفتح مصر سرًا وبدون استئذان الخليفة، خاصة وأن فتح مصر لم يكن مجرد فكرة طارئة عنت لعمرو، وأنه كان ضرورة عسكرية حتمية بعد فتح الشام لتأمين الفتوحات بها أى بالشام ولطرد البيزنطيين من مصر والقضاء على قواتهم العسكرية بها .

أما عن مراحل الفتح فتبدأ بفتح عمرو بن العاص لمدينة ( العريش ) بلا عناء ودون أية مقاومة وذلك لسببين الأول : عدم وجود حاميات بيزنطية بها تقوم بالدفاع عنها والثاني : لم تكن حصون هذه المدينة من المناعة بحيث تقف في وجه المسلمين .

وبعد أن أتم عمرو بن العاص فتح العريش اتجه نحو ( الفرما أو بلوزيوم ) وهى مفتاح مصر من ناحية الشرق، وتعد من الحصون الأمامية فى خط الدفاع عن مصر، وحاصر عمرو الفرما لمدة شهر وذلك لمنعتها رغم إهمال البيزنطيين إصلاح ما تخرب من حصونها على يد الجيش الفارسى الذى فتح مصر ( ٦١٦ - ٦١٩ م ) وبعد شهر من الحصار استسلمت الفرما للمسلمين وذلك لما يلى :

- استبسال المسلمين فى القتال وقوة إيمانهم وصدق عزيمتهم .
- لم يرسل البيزنطيون أى مساعدات أو نجدات لأهل الفرما حتى تقوى المدينة على مقاومة حصار المسلمين .
- مساعدة القبط الذين كانوا بالفرما لعمرو رغبة منهم فى تحرير بلادهم من النفوذ البيزنطى . وهكذا كان القبط بالفرما أعواناً للمسلمين كما تذكر المصادر .

ولهذه الأسباب استسلمت مدينة الفرما للمسلمين، وقد ترتب على ذلك نتائج منها :

١ - فقد البيزنطيون قاعدة هامة من قواعد وجودهم في مصر، وبدأوا يشعرون بخطورة موقفهم .

٢ - أصبح في أيدي المسلمين معقلاً يؤمن ظهورهم، ويؤمن لهم الطرق المؤدية إلى بلادهم أى ترتب على استيلاء المسلمين على الفرما تأمين خطوط مواصلاتهم مع بلاد العرب، وتأمين طريق العودة إذا ما حلت بهم الهزيمة.

وبعد أن استولى عمرو بن العاص على الفرما قام بهدم أسوار هذه المدينة وحصونها حتى لا ينتفع بها البيزنطيون إذا ما عادوا إليها، ودفع عمرو إلى القيام بهذا العمل أيضاً عدم توافر القوات معه والتي يمكن أن يتركها لحراسة هذه المدينة .

وبعد الاستيلاء على الفرما سار عمرو بن العاص نحو الجنوب الغربى حتى وصل إلى (بليبيس) وهى من أعمال محافظة الشرقية واصطدم هناك بشخصيتين هما : الأرطوبون حاكم بيت المقدس الذى فر إلى مصر، بعد أن استولى المسلمون على بيت المقدس على أمل أن يتخذها قاعدة لقتال المسلمين، وكان يعرف الأرطوبون ( بداهية الروم ) وأراد أن يوقع بداهية المسلمين أى عمرو بن العاص، ولكنه لم يفلح فى ذلك، ولم تجد مقاومته.

أما الشخصية الثانية التى اصطدم بها عمرو بن العاص فى بليبيس فهى (أرمانوسة) ابنة المقوقس حاكم مصر من قبل الإمبراطور البيزنطى هرقل، وكان ابوها قد جهزها وأرسلها إلى بليبيس، لتذهب عن طريقها إلى قيسارية حيث يوجد زوجها قسطنطين بن هرقل هناك . ولكنها ما لبثت أن علمت وهى فى الطريق إليه أنه رحل إلى القسطنطينية، فعادت إلى بليبيس وعندئذ وقعت أسيرة فى أيدي قوات عمرو وهى ورجالها وأموالها وجواربها، غير أن عمرو ما



لبث أن أعادها هي وجميع أموالها إلى أبيها معززة مكرمة . وكسب عمرو بذلك محبة المصريين وحفظ له المقوقس هذا الجميل .

وبعد استيلاء المسلمين على بلبيس، اتجهوا نحو ( أم دنين ) شمال حصن بابلين ( وموقعها اليوم مكان حديقة الأزبكية ) وعند أم دنين دار قتال عنيف بين عمرو وبين البيزنطيين الذين تحصنوا في هذه المدينة واحتشدوا بها، واستمر هذا القتال عدة أسابيع خاصة وأن البيزنطيين كانوا قد أعدوا له عدتهم، وأصبح مركز عمرو وقواته حرجا، وبدأ اليأس يدب في صفوف جنوده خاصة وأنه لم يعهد بمثل هذه المقاومة من جانب البيزنطيين من قبل . ولذلك أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب طالبا المدد، وضاعف جهوده في نفس الوقت حتى تمكن من إحراز النصر على البيزنطيين في أم دنين . وقد ترتب على هذا الانتصار نتائج من بينها : أن عمرو ضمن حصناً هاماً يقع في شمال حصن بابلين، كما ضمن موقعاً استراتيجياً هاماً على النيل وأصبح تحت إمرته الكثير من السفن .

اختلف المؤرخون بعد فتح أم دنين في ترتيب وقائع الفتح الإسلامي لمصر، وجوهر الخلاف بينهم وهو غزو إقليم الفيوم فالمصادر العربية ترتب وقائع الفتح على النحو التالي : العريش، الفرما، بلبيس، أم دنين، بابلين ثم الفيوم بعد عام من فتح مصر والحصن، أما المؤرخ المصري يوحنا النقيوسى فهو لا يذكر وقائع الفتح الأولى بل يبدأ مباشرة بغزو إقليم الفيوم ثم وقعه عين شمس ثم حصار حصن بابلين . والحقيقة أنه لا يمكن الاتفاق مع رواية يوحنا النقيوسى لأن فتح إقليم الفيوم قبل فتح حصن بابلين أمر غير ممكن لأسباب من بينها :

١ - أن عمرو بن العاص أثناء قتاله البيزنطيين في أم دنين طلب الإمدادات من الخليفة، وهذا يعنى أنه لم يكن لديه القوات اللازمة لمواصلة الفتح وغزو



إقليم الفيوم .

٢ - أن مسير عمرو بن العاص إلى الفيوم كان يتيح للبيزنطيين الفرصة لاسترداد ما استولى عليه عمرو بن العاص من مدن كالعريش والفرما وبلبيس وأم دنين، ويقطعون عليه بذلك طريق العودة إلى بلاده .

٣ - أن مسير عمرو في النيل الذي يشرف عليه حصن بابليون سوف يجعل من السهل على البيزنطيين أن يلحقوا بالمسلمين خسارة فادحة أثناء مرورهم من النيل، فمما لا شك فيه أنهم كانوا سيهاجمونه .

٤ - أن العرب كانوا يجهلون جغرافية مصر، ولا سيما إقليم الفيوم الذي يعتبر بمثابة واحة كبيرة في الصحراء الغربية، وليس هناك ما يدعو إلى أن يبدد الجيش الإسلامي قوته ليفتح أقليمًا بعيدًا مثل إقليم الفيوم، وخاصة وأنه لم تكن لهذا الإقليم قيمة عسكرية حقيقية لتأمين الوجود الإسلامي في مصر .

على أية حال أرسل الخليفة عمر بن الخطاب الإمدادات لعمرو بن العاص وكانت تتألف من أربعة آلاف على رأسهم الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو، وعبادة من الصامت، ومسلمة بن مخلد وقيل خارجة بن حذافة ووصلت هذه الإمدادات إلى عين شمس ( هليوبوليس ) وما أن علم ثيودور قائد الجيوش البيزنطية في مصر بوصول هذه الإمدادات حتى استدعى جميع الجنود البيزنطيين من كافة أنحاء مصر ليعزز حامية حصن بابليون، وهرع ثيودور والمقوقس إلى الحصن حيث قام الأول بتعبئة الجيش وإعداده لقتال المسلمين . غير أن عمرو نجح في إخراج البيزنطيين من الحصن والاشتباك معهم بعيدًا عنه، وبالفعل استعد البيزنطيون لقتال المسلمين عند عين شمس، وعندما علم عمرو بذلك قام بتقسيم جيشه إلى ثلاث كتائب : التقت إحداها بقوات ثيودور في المكان المعروف اليوم ( بالعباسية ) ونشب القتال بين الفريقين، وتصور ثيودور



أن تلك الكتيبة تمثل الجيش الإسلامي بأكمله، ولكن عندما اشتد القتال، انقضت الكتيبة الثانية على البيزنطيين فاختلفت صفوفهم، واضطروا للإنسحاب نحو أم دنين، وهناك انقضت عليهم الكتيبة الثالثة للجيش الإسلامي، فانهارت قواهم وتشتت شملهم، وقتل عدد كبير منهم، وفر عدد آخر على ظهور السفن متجهين نحو حصن بابلون . أما ثيودور القائد العام للجيش فقد فر إلى الإسكندرية في حين احتفى المقوقس بالحصن .

وبانتصار عمرو بن العاص في عين شمس أصبح سيداً على المنطقة الإستراتيجية المحيطة بحصن بابلون، كما اتخذ عمرو من عين شمس مقراً لقيادته الحربية، ولم يعد أمام عمرو سوى حصن بابلون .

وقام عمرو بنقل معسكره من عين شمس إلى شمال شرقي حصن بابلون، وفي المكان الذي أنشئت فيه مدينة الفسطاط - فيما بعد - وكان مكاناً ممتازاً تحيط به الكنائس والبساتين مما أتاح الفرصة لعمرو ليحكم الحصار على الحصن. وبدأ عمرو من هذا المكان يعد العدة لحصار الحصن، وكان هذا الحصن على درجة كبيرة من المناعة، ويرجع ذلك إلى أسواره المتينة وأبراجه العالية، وتوافر الكثير من المعدات والمؤن والذخائر والجند بداخله، وكان على رأس حاميته قائد يعرف بجورج وتسميه المصادر العربية الأعيرج إلى جانب المقوقس . وزاد في مناعة هذا الحصن أن حفر البيزنطيون حوله خندق .

مع ذلك فقد صف عمرو جنوده حول الخندق، وشدد الحصار على الحصن، وضربه بالمنجنيق، ولكن طال امد الحصار فقد استمر لمدة شهر وذلك لأن الفيضان كان مرتفعاً فملأ الخندق المحيط بالحصن فزاد في مناعته، هذا إلى جانب أن البيزنطيين جعلوا للخندق أبواب ورموا فيها حسك الحديد، لذلك عجز المسلمون عن الاقتراب من أسوار الحصن واكتفوا بالحصار .

ولإصرار المسلمين على حصار الحصن، حاول المقوقس التفاوض معهم

بعد أن رأى تصميمهم على اقتحام الحصن، غير أن المفاوضات باءت بالفشل لأن المقوقس رفض في بداية الأمر أن يختار واحدة من ثلاث : الدخول في الإسلام، دفع الجزية أو القتال .

وشدد المسلمون الحصار على الحصن وضربوه بالمنجنيات وعجز البيزنطيون عن صد هجمات المسلمين على الحصن، ونجح المسلمون في قتل عدد كبير منهم وأسر عدد آخر، وعندما أدرك البيزنطيون عدم استطاعتهم مواجهة المسلمين طلبوا من المقوقس أن يتفاوض معهم بشأن الصلح، واتصل المقوقس بالفعل بعمره ليبحث معه أمر الصلح وكانت شروط الصلح على النحو التالي :

- ١ - يفرض المسلمون على جميع من بالديار المصرية من المسيحيين دينارين عن كل نفس يستثنى من ذلك الشيوخ والأطفال والنساء .
- ٢ - للمسلمين على البيزنطيين حق الضيافة فإذا نزل عليهم ضيف أو أكثر من المسلمين كان عليهم ضيافته لمدة ثلاثة أيام .
- ٣ - أن يبقى للروم أرضهم وأموالهم على ما هي ولا يتعرض لهم المسلمون بشيء .

واشترط المقوقس شرطين هما :

(أ) أن يخير البيزنطيين بين قبول شروط الصلح وبين الخروج من أرض مصر .

(ب) أن تبقى الكلمة الأخيرة في قبول شروط الصلح للإمبراطور هرقل فإذا لم يقبلها الإمبراطور يعودوا إلى القتال ثانية لذلك اتفق الطرفان على أن تظل جيوشهما في مواقعها حتى ترد موافقة الإمبراطور هرقل على الصلح .



وترك المقوقس حصن بابلليون، وذهب إلى الإسكندرية ومن هناك أرسل إلى القسطنطينية نص الاتفاق الذى عقده مع عمرو بن العاص، والظروف التى حتمت عليه عقد الصلح معه وطلب من الحكومة الإمبراطورية إقرار الصلح . وتلقى هرقل خطاب المقوقس لقاء بالغ السوء، وكتب إليه يطلب منه قتال المسلمين بالروم أن رفض المصريون القتال، وأصدر أوامره لقادة مصر أن يبذلوا محاولة أخيرة لتخليص الحصن غير أنهم فشلوا فى ذلك لأسباب من بينها:

- أن المياه انخفضت فى الخندق لإنخفاض النيل، وضعفت لذلك آمال المدافعين عن الحصن، كذلك رفض السكان إطاعة أوامر القيادة البيزنطية بل وانضموا إلى المسلمين وساعدوهم فى مهاجمة جانب من الحصن وهو الجانب المطل على النيل، إذ كانوا يغيرون ليلاً على جزيرة الروضة وينقضون على السفن البيزنطية، التى تتوجه نحو الحصن .

- يضاف إلى ما سبق أن الإمبراطور لم يرسل إليهم أية إمدادات ثم أنهم علموا أخيراً بموت الإمبراطور هرقل، مما كان له أكبر الأثر فى وهنهم وضعفهم . لهذه الأسباب جميعاً عرض جورج ( الأيجرج ) قائد حامية الحصن على عمرو بن العاص بعد أن تشاور مع قادة الروم - أمر الصلح وتسليم الحصن له على أن يأمن الجند على أنفسهم، ورحب عمرو بذلك، وتم الاتفاق على أن يخرج الجنود من الحصن خلال ثلاثة أيام، ويحملون معهم ما يلزمهم من المؤن لبضعة أيام، وأن يأخذ المسلمون الحصن بما فيه من ذخائر وآلات حربية وأموال، أن يؤدى السكان الجزية للمسلمين .

وبعد أن خرج الجند البيزنطيون من الحصن تسلمه عمرو بن العاص، وبإتمام فتح حصن بابلليون انجز عمرو الجزء الأكبر من فتح مصر، وأصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى الوجه البحرى والإسكندرية، فما كان من عمرو إلا أن اتجه نحو الإسكندرية وفتحها بسهولة وذلك للفوضى والاضطراب الذى

شهدته القسطنطينية على أثر وفاة الإمبراطور هرقل ٢١هـ / ٦٤١م والنزاع الذي دار حول العرش البيزنطي، وأحكم عمرو بن العاص سيطرته على بقية أنحاء القطر المصري وصارت مصر بأكملها في قبضة المسلمين .

وبهذا ينتهي الوجود البيزنطي على أرض مصر وتزول الصفة البيزنطية عنها وتتحول إلى ولاية إسلامية بعد أن كانت تابعة لبيزنطة .

للمزيد من الكتب عن التاريخ المصري و الآثار المصرية برجاء زيارة صفحتنا علي الفيس بوك

**Egyptology Resources, and Books**

<http://www.facebook.com/Egyptology.Resources.Books>



## قائمة المصادر والمراجع

١. ابن المقفع : تاريخ بطاركة الاسكندرية، اربعة اجزاء.
  ٢. أبو صالح الارمني : كنائس مصر واديرتها .
  ٣. ابراهيم الجندي : دراسات فى تاريخ مصر ايان العصر الرومانى المتأخر (البيزنطى) ٢٨٤-٦٤٢م، القاهرة ٢٠٠٤م.
  ٤. اثناسيوس (القدس) : سيرة حياة القدس انطونيوس الكبير، نقلها الى العربية عن اليونانية الاب ميشال نجم .
  ٥. اسحق عبيد : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية.
  ٦. اسد رستم : الروم، جزءان، بيروت، بدون تاريخ.
  ٧. أمير نصر : مار مرقس الرسول ومدرسته بالاسكندرية، بدون تاريخ.
  ٨. أمين حكيم : دراسات فى تاريخ الرهبنة والديرية المصرية .
  ٩. بربارة واترسون : أقباط مصر، ترجمة ابراهيم سلامة، القاهرة، ٢٠٠٢م.
  ١٠. بل : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى، ترجمة محمد عواد حسين، القاهرة، ١٩٥٤م .
  ١١. تادرس يعقوب ملطى : القدس يوحنا الذهبى الفم .
  ١٢. حامد زيان غانم : تاريخ أوربا فى مطلع العصور الوسطى، القاهرة ٢٠٠٤م - ٢٠٠٥م.
  ١٣. دورليان (بول شينو) القديسون المصريون، ترجمة ميخائيل مكسى اسكندر ومريام جميل سليمان، القاهرة ٢٠٠٢م.
  ١٤. رافت عبد الحميد : الدولة والكنيسة، اربعة اجزاء.
- تاريخ الفكر الكنسى، القاهرة ٢٠٠٠م.

١٥. روستوفتزف : تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى،

ترجمة زكى على ومحمد سليم، القاهرة ١٩٥٧ م .

١٦. زكى شنودة : موسوعة تاريخ الاقباط، الجزء الاول .

- مدرسة الاسكندرية اللاهوتية (اوريجانوس) .

- قبطى فى عصر مسيحي، القاهرة ٢٠٠٣ م.

١٧. زبيدة عطا : الفلاح المصرى فى القرنين السادس والسابع الميلاديين، القاهرة،

١٩٧٨ م .

- وضع المرأة فى مصر البيزنطية فى ضوء القانون الرومانى وأوراق

البردى.

- إقليم المنيا فى العصر البيزنطى فى ضوء أوراق البردى.

- الحياة الاقتصادية فى مصر البيزنطية .

- قبطى فى عصر مسيحي، القاهرة ٢٠٠٣ م.

١٨. سمير فوزى : القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية، ترجمة نسيم

مجلى، القاهرة ١٩٩٩ م.

١٩. سهير محمد إبراهيم : دور المرأة فى مصر البيزنطية، بحث قدم لندوة دور

المرأة عبر عصور التاريخ، التى عقدها قسم التاريخ - جامعة القاهرة فى

مارس ٢٠٠١ م.

٢٠. سيد الناصرى وسيد توفيق : معالم تاريخ وحضارة مصر منذ اقدم العصور

حتى الفتح العربى لمصر، القاهرة، ١٩٧٧ م .

٢١. سيد الناصرى : تاريخ الامبراطورية الرومانية .

- الناس والحياة فى مصر زمن الرومان .



٢٢. السيد الباز العرينى : مصر البيزنطية، القاهرة، ١٩٦١م .
٢٣. شنودة ماهر اسحق : الادب القبطى .
٢٤. صموئيل زكى : المسيحية والوظائف الكنسية، القاهرة ١٩٩٦م .
٢٥. طارق منصور : قطوف الفكر البيزنطى، الجزء الأول، الأدب .
- تاريخ مصر فى العصر البيزنطى، ٢٨٤-٦٤٠م .
٢٦. عائشة سعيد أبو الجدائل : واقع الأديرة الشرقية فى الإمبراطورية البيزنطية. بحث منشور فى مجلة عين شمس ، مركز الدراسات البردية والنقوش، العدد ١٩، القاهرة ٢٠٠٢م .
٢٧. عبد النظيف أحمد على : مصادر التاريخ الرومانى، بيروت ١٩٧٠م .
٢٨. عمر طوسون : وادى النطرون، رهبانه واديرته، الاسكندرية، ١٩٣٥م .
٢٩. عمونيل البعيدانى : تاريخ الرهبنة الانطونية .
٣٠. عزيز سوريال عطيه : نشأة الرهبنة المسيحية فى مصر وقوانين القديس باخوميوس، الاسكندرية ١٩٤٨م .
- "الكنيسة القبطية والروح القومى فى مصر فى العصر البيزنطى " العدد الأول من مجلة الجمعية التاريخية، ١٩٥٠م .
- تاريخ المسيحية الشرقية، ترجمة إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥ .
٣١. فازيليف : العرب والروم، ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة .
٣٢. كامل صالح نخلة : تاريخ القديس مار مرقس، القاهرة ١٩٨٩م .

- تاريخ الامة القبطية .

٣٣. كيرس الانتونى : عصر المجامع.
٣٤. ليلى عبد الجواد : الدولة البيزنطية فى عصر الامبراطور هرقل وعلاقتها بالمسلمين (٦١٠-٦٤١م)، القاهرة ١٩٨٥م.
٣٥. متى المسكين (الاب) : القديس اثناسيوس الرسول (٢٩٦-٣٧٣م).
٣٦. مجدى جرجس : القضاء القبطى فى مصر.
٣٧. محمد عبد الفتاح السيد : ملاحظات فى أسباب هجرة كل من كلمنت واوريجينيس من مصر إلى فلسطين فى القرن الثالث الميلادى". بحث منشور فى ندوة فلسطين فى ضوء أوراق البردى التى نظمتها جامعة عين شمس عام ١٩٩٨م. ونشرت فى القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٠٩-١٣٣.
٣٨. محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ مصر البيزنطية، اسكندرية، بدون تاريخ.
٣٩. مراد كامل : حضارة مصر فى العصر القبطى، القاهرة، بدون تاريخ.
٤٠. مصطفى العيادى : مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى.
٤١. ملاك إبراهيم يوسف : دور وعلاقات الكنيسة القبطية خلال العصر القبطى، جزآن، القاهرة ٢٠٠٠م.
٤٢. ميخائيل مكسى اسكندر : عذارى حكيما من سير القديسات والشهيدات والخادما الحكيما، القاهرة ١٩٩٣م.
٤٣. يوسابيوس القيصرى : تاريخ الكنيسة، ترجمة مرقس داود، بيروت، ١٩٦٠م.
- حياة قسطنطين.



## المراجع الأجنبية

- Bury, History of the Later Roman Empire.
- Diehl, L'Egypte Byzantine.
  - L'Egypte Chretienne.
- Hardy, Chirstian Egypt.
  - The Large Estates of Byzantine Egypt.
- Johnson, Egypt and The Roman Empire.
- Maspero, Organization Militaire de l'Egypte.
- Ostroyrosky, History of the Byzantine Empire
- Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzantine- 2 tomes.

للمزيد من الكتب عن التاريخ المصري و الآثار المصرية برجاء زيارة صفحتنا علي  
الفييس بوك

## Egyptology Resources, and Books

<http://www.facebook.com/Egyptology.Resources.Books>

الصفحة	الموضوع
١٢٢	مقدمة
١٢٥	مصر في عصر الرومان
١٥٠	مصر ولاية بيزنطية
١٢٧	الحياة الدينية
١٢٧	انتشار المسيحية في مصر
١٣٧	الاضطهادات الدينية
١٤٣	مراسيم التسامح
١٤٥	الاضطهاد زمن دقلديانوس
١٤٨	اضطهاد دقلديانوس في مصر
١٥٢	مرسوم ميلان
١٥٦	كنيسة الإسكندرية والجدل حول طبيعة السيد المسيح
١٦٧	الرهبانية والديرانية
١٢٢	الانقسام المذهبي بين بطريركيتي الإسكندرية والقسطنطينية
١٣٧	سياسة الإمبراطورية البيزنطية الدينية في مصر بعد مجمع خلقدونية ٤٥١ م.
١٤٦	النظام الإداري في مصر في العصر البيزنطي
١٤٧	الوحدات الإدارية
١٤٩	التنظيمات الإدارية بمصر وفقاً لقانون ١٣
١٦٠	النظام المالي في مصر في العصر البيزنطي



- ١٦٩ التنظيمات المالية بمصر وفقاً لقانون (١٣)
- ١٧٦ - العقوبات المتعلقة بالإدارة المالية  
Bury, History of the Later Roman Empire
- ١٧٧ - ضريبة القمح  
Dichtl, L'Egypte Byzantine
- ١٨١ التنظيمات الحربية  
L'Egypte Chrétienne
- ١٨٨ التنظيمات القضائية منذ زمن جستينان  
Hardy, Christian Egypt
- ١٩٣ الشرطة  
Large Estates of Byzantine Egypt and The Roman Empire
- ١٩٥ الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية  
Maspero, Organization Militaire de l'Egypte Byzantine
- ٢١١ الحياة الاجتماعية  
Ostrogorsky, History of the Byzantine Empire
- ٢٣٦ الحياة الثقافية  
Vasiliev, Histoire de l'Empire Byzantine - 2 tomes
- ٢٥٢ اللغة والأدب في مصر في العصر البيزنطي
- ٢٥٢ أولاً : اللغة
- ٢٥٧ ثانياً : الأدب القبطي
- ٢٦٢ الفن القبطي في العصر البيزنطي
- ٢٦٥ فن التصوير والرسم
- ٢٦٩ فن النحت والعمارة
- ٢٧٢ النسيج
- ٢٧٣ استيلاء الفرس على مصر ( ٦١٦ - ٦١٩ م )
- ٢٨٢ الفتح العربي لمصر
- ٢٩٦ قائمة المصادر والمراجع

# Black Hawk

الصيدق الأسود  
قراسنقر

تعزوت للأسباب  
والأوت وأجر

عن لم يمت  
بالسيف مات بغيره

المزيد من الكتب عن التاريخ المصري و الآثار المصرية برجاء زيارة صفحتنا  
علي الفيس بوك

Egyptology Resources, and Books

<http://www.facebook.com/Egyptology.Resources.Books>



# Black Hawk

الصدقر الأسود  
قراسنقر

تعدت الأسياب  
والطوت والأحر

عن لم يمت  
بالسيف مات بغيره

المزيد من الكتب عن التاريخ المصري و الآثار المصرية برجاء زيارة صفحتنا  
علي الفيس بوك

Egyptology Resources, and Books

<http://www.facebook.com/Egyptology.Resources.Books>

للمزيد من الكتب عن التاريخ المصري و الآثار المصرية برجاء زيارة صفحتنا  
علي الفيس بوك

Egyptology Resources, and Books

<http://www.facebook.com/Egyptology.Resources.Books>

# Black Hawk

الصقور الأسود  
قراسنقر

تعددت الأسباب  
والموت واحد

عن لم يمت  
بالسيف مات بغيره